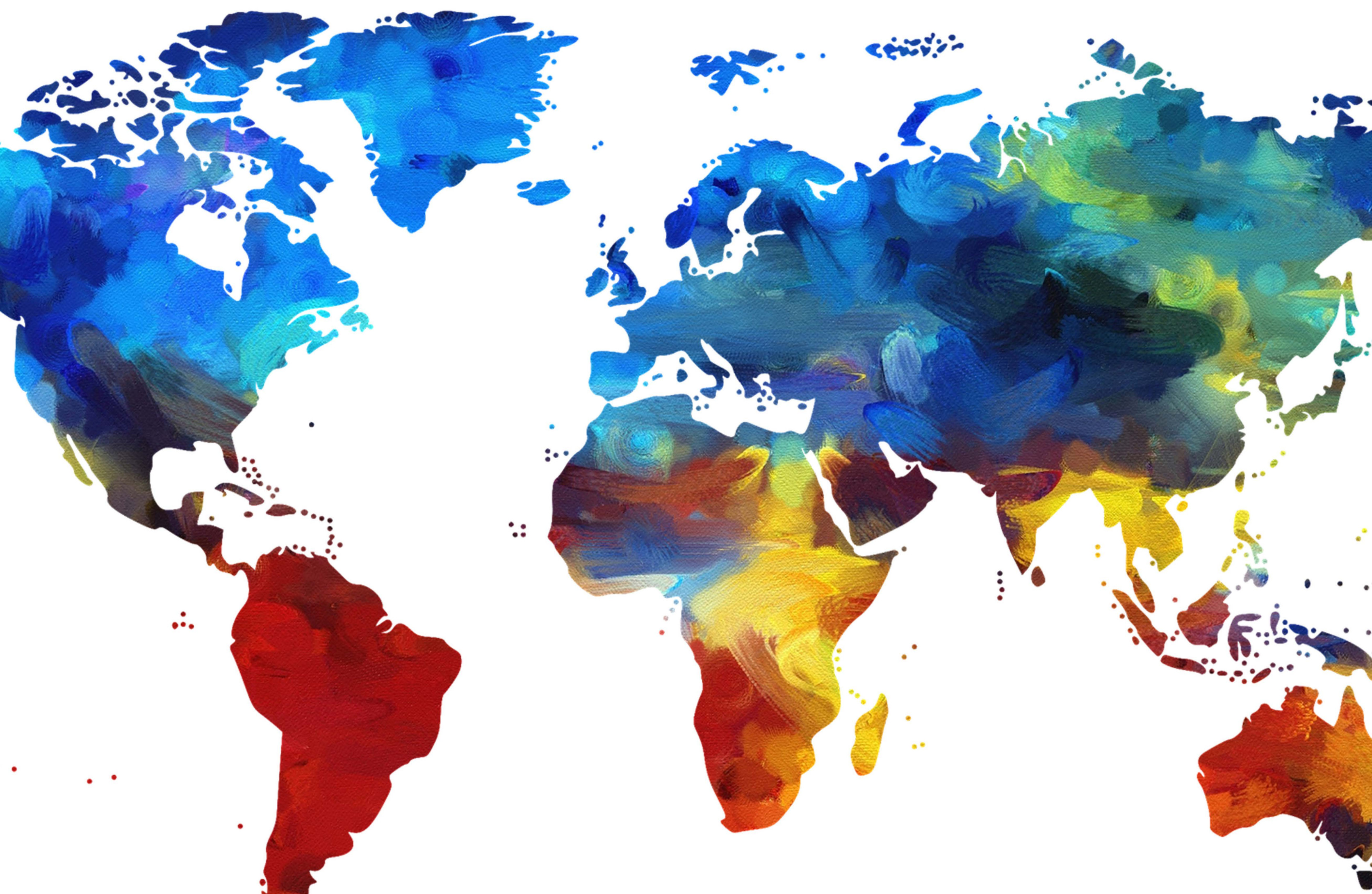
محمّد بلفقيه

الجغرافيا

القول عنها والقول فيها

- البحث عن الهوية -



بسم الله الرحمن الرحيم

محمد بلفقيه
كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط

الجغرافيا
القول عنها و القول فيها

1 البحث عن الهوية

تـوطئـة : إلى أين تذهب الجغرافيا ؟

إلى أين تذهب الجغرافيا ؟

تعقبت الجغرافيين فوجدت أغلبيتهم قوما قصار علم ليسوا على شيء ذي بال، تقطعوا أمرهم بينهم زُبُراً، كل حزب بما لديهم فرحون. تراهم في كل وادٍ يهيمون، يلعبون على حبلين ويأكلون من قصعتين ثم يدعون المنزلة بين المنزلتين. فهم في صحبة الأدباء علماء ومع العلماء « مجرد » أدباء. فأي بضاعة عزيزة هذه التي يروجها هؤلاء وأي علم فذ هذا الذي يدعون إليه ؟ ألا يسمعون أنين المتذمرين واستنكار الجاحدين ؟ أولئك تقطعت بهم السبل وقتلتهم الحيرة وهؤلاء يقولون هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين.

أما آن لنا معشر الجغرافيين أن نحط الرحال ونتأمل الحال والمآل ؟

وبعد هذه الرحلة الشاقة والشيقة أيضا رجعت إلى نفسي ثم أخذت أتدبر الأمر عسى أن أبلغ الحقيقة. ولا شك أن الحقيقة تقتضي، قبل محاكمة الجغرافيين والحكم لهم أو الحكم عليهم، أن نحيط بالقضية إحاطة شاملة بكل حيثياتها وملابساتها، ومنها بكل تأكيد النظر أيضا في العلوم «المساندة» للجغرافيا التي يبدو أنها هي الأخرى ليست أحسن حالا.

فإن صدق هذا الزعم فلا تقل : إذا عمت المصيبة هانت، بل قل عظمت ! لذلك ترى اليوم فريقا متزايد العدد من الفلاسفة ينكبون بكل جد وجدية لمعاينة الحالة ومعالجتها. لكن هذه «الأزمة» التي استفحل شأنها واستشرى أثرها، أخذت تحرك، زيادة على فلاسفة العلم، حتى ذوي الاختصاص أنفسهم الذين حَزَبهم الأمر وأقلقهم ما آلت إليه علومهم. وهذا بالذات ما تسعى إليه هذه المحاولة المحفوفة بالمكاره والأخطار.

إن حديث «عالم» عن علمه أو بالأحرى متخصص بعينه عن

تخصصه شيء في غاية الصعوبة، خاصة في العلوم الإنسانية، وذلك لأسباب شتى منها ما هو موضوعي كالاستيعاب الصحيح للمادة والاطلاع الواسع على مختلف الرؤى والآراء، ومنها ما هو ذاتي كعلاقة الذات بالموضوع مثلا. وبخصوص الجغرافيا التي هي موضوع هذا الكتاب فبالامكان طرح تصورات شتى لمناقشة المسألة. إلا أنه اعتبارا لحداثة البحث في هذا الاتجاه من جهة ورغبة منا لتوطيئه من جهة أخرى نرجح أن يكون العرض التاريخي أنسب المداخل وأجداها، لا سيما وأن كثيرا من الناس، حتى من بين المتخصصين أنفسهم ليسوا على اطلاع كافٍ على مادتهم أصلا وتطورا. لكن هذه الرحلة عبر الزمن الماضي لن تكون مجرد نزهة نلتقي فيها بأعلام الجغرافيا ونجالسهم لنطلع على أعمالهم وآرائهم أو نتصفح كتبهم أو نستجلي همومهم واهتماماتهم فحسب، بل الهدف أساسا منها هو استقراء تجربتهم ومحاولة الربط بين أفكارهم بغية الخروج بتصور شمولي للمادة يربط الماضي بالحاضر ويتشوف إلى المستقبل.

1 ـ بين الجحود والتذمر

العلم والفلسفة متلازمان ملازمة الصاحب لصاحبه، وكلما تأسس علم جديد أو جدت معرفة إلا ورأيت الفلاسفة يسارعون إلى معرفة الحدث والكشف عنه. فإذا كانت للفلسفة تجربة طويلة في ميدان العلوم التجريبية، تظافرت فيها جهود العلماء والفلاسفة على حد سواء، فالأمر ليس كذلك بالنسبة للعلوم الإنسانية والاجتماعية. والسبب ليس في تقصير من أحد الطرفين فحسب بل يرجع أيضا إلى الحداثة النسبية لبعض من هذه العلوم من جهة، وللتطور السريع للبعض الآخر من جهة أخرى. فلا يستغربن أحد إذن إذا قلنا أن فلسفة العلوم الإنسانية والاجتماعية ما تزال في بداية الطريق. ومع ذلك فهناك من المهتمين من واجه الموضوع بشجاعة وراح يحلل ويصنف و... يصدر الأحكام كحكم أحدهم على الجغرافيا.

1.1 ـ « اللقيطة المنكرة »

قد لا يخفى على الجغرافيين اليوم ما ذهب إليه البعض بشأن

الجغرافيا حيث أنكروا عليها صفة العلم ونعتوها بلقيطة العلوم وصوروها في شكل ثوب مرقع رتقته أيادي التقليد الأعمى. فالجغرافيا في اعتقاد هؤلاء لا تعدو مجرد موضوع معرفي تقتصر مهمته على وصف الأرض ومن عليها. لكن الأدهى والأمر من ذلك أن ترى أحد أعلام الإبستمولوجيا [1] المعاصرين، ج. **بياجي**، مؤسس «الإبستمولوجيا التكوينية» يسكت عنها ولا يذكرها بالمرة في كل مؤلفاته [2]. صحيح أن بياجي لم يتعرض للموضوع مباشرة ولم يعرض في المسألة رأيا صريحا إلا أننا قد نستشف مبرراته من خلال محاولته لتصنيف العلوم الذي أقصى بموجبه ليس فقط الجغرافيا بل كل العلوم «البينية» ذات المشارب المتعددة [3]. ويعني هذا في رأي بياجي أنه لا يمكن أن تكون للجغرافيا إبستمولوجيا خاصة بها ما دامت تعتمد على إبستمولوجيا التخصصات التي تتعامل معها وتوظفها.

وفي الحقيقة فإن موقف بياجي «السلبي» من الجغرافيا ليس موقفا فريدا بل نجده أيضا عند غيره، خاصة في عدد من التقارير الرسمية، وإن كنا لا نعلم هل تأثر هؤلاء المقررون برأي بياجي أم أنهم انطلقوا من قناعات شخصية لم يعلنوا عنها على كل حال أو يعللوها [4]. وإذا كان لعمل بياجي الصدى الكبير في جميع الأوساط العلمية، فإن أثره كان أشد وقعا وأبلغ عمقا في نفس الجغرافيين الذين ثارت ثائرتهم فرفعوا عقيرتهم ثم تفرقوا بين مندد يائس [5] ومدافع متحمس [6] ومعترف متعظ [7].

2.1 ـ الجغرافيا بصيغة الجمع

إن الانقسام الذي تحدثه الإبستمولوجيا في صفوف الجغرافيين بين العناد والإقرار ينم بكل تأكيد على وجود مشكلة حقيقية لا يمكن قطعا إنكارها أو التمادي في تجاهلها، وهي مشكلة وجود الجغرافيا نفسها كعلم قائم الذات. وقد لا نحتاج إلى عناء كبير لاثباتها إذ يكفي أن نطرح السؤال الآتي : وما هي الجغرافيا ؟. فعلى بساطته فإن هذا السؤال القديم الذي يتحاشى الكثير منا التصدي له والجواب عنه يجعلنا في حرج وضيق حتى أنه يخيل إليك أن لكل واحد منا جغرافيته الخاصة، يغار عليها ويكاد يخفيها عن الناس كأنها عورة !

1

انظر تعريف الإبستمولوجيا في الفقرة الآتية : 3. 2. 1

2

Piaget (Jean) **Logique et connaissance scientifique,** Gallimard, Paris, 1967. id **Epistémologie des sciences de l'homme,** Gallimard, Paris, 1970.

3

Jean Piaget, **Logique et connaissnace scientifique,** op. cit. pp 1118 et 1119.

4

Documentation Française. **Livre blanc de la recherche** sept. 1985.

5

مثل الجغرافي الفرنسي جيل سوطير الذي كتب بجرة قلم واحدة كما يذكر هو نفسه مقالا لاذعا استهله بما يلي : «لم يعد للجغرافيا وجود. لقد قُضي عليها، وبشكل غريب... بأمر السلطة العلمية، وأي سلطة : سلطة عالِم ذاع صيته وصار مرجعا للمثقفين الجغرافيين : جان بياجي الذي في معرض حديثه عن العلوم تخطى الجغرافيا وتجاوزها.». ثم استطرد صاحب المقال موجها اللوم هذه المرة لجهة أخرى : «أما اليوم فالجغرافيا تلغى بموجب مرسوم إداري...» والاشارة هنا إلى المرجع السابق.

Sautter (Gilles) **La géographie en question,** l'Espace Géographique, n° 1, 1985 pp 59 - 64.

6

هذا ما ذهب إليه مثلا كلود رفّستان (C. Raffestin) الأستاذ بجامعة جنيف وأنجيلو توركو (Angelo Turco) المدرس بجامعة ميلانو الايطالية حيث كتبا معلقين

1.2.1 ـ الجغرافيا في المعاجم العلمية

لعله يكون من المفيد، قبل أن نستخبر الجغرافيين عن علمهم أن نرى كيف يعرفه ويعرف به غيرهم، وفي أي صورة يصل إلى الناس عامة والمثقفين خاصة. ويحسب امرىء عينة عشوائية من التعاريف يلتقطها من بطون المعاجم، ولا سيما العلمية منها، ليتيقن من غموض المادة وإبهامها.

جاء في معجم لَالَنْد[8] المعروف في مادة «جغرافيا» ما نصه : «وصف لمختلف مناطق سطح الأرض؛ دراسة، وبقدر الإمكان، تفسير للظواهر الطبيعية والسياسية والاقتصادية في علاقتها بالمكان وفيما بينها». وهذه الرؤية نفسها نجدها في معجم آخر مختص في العلوم الاجتماعية[9] حيث ربط المؤلف كلمة جغرافيا بأصلها اللغوي اليوناني ثم قال : «مادة تهتم بوصف سطح الأرض. ومن الوصف تتقدم شيئا فشيئا إلى التفسير القائم أساسا على الجيولوجيا (التي تدرس الطبقات الباطنية للسطح وتاريخها) والظواهر الجوية[10]. وفي معجم ثالث متخصص هو الآخر في العلوم الاجتماعية[11] اقتصر صاحبه بالنسبة لمادة الجغرافيا على الجغرافيا البشرية وحدها[12]. ونفهم من هذا ضمنيا أن هؤلاء كلهم يقرون بازدواجية الجغرافيا التي تنقسم إلى فرع طبيعي وآخر بشري. وبعد تسجيل هذه الملاحظة الهامة لنستمع إلى ما جاء في تعريف الجغرافيا البشرية : «فرع من فروع الجغرافيا العامة الذي يدرس تنظيم المكان بفعل الإعمار وأوجه نشاط الناس. ويرى كثير من المتخصصين أن الجغرافيا الاقتصادية إحدى شعبها الهامة، وهي تهتم بالخصوص بالآثار البارزة التي تخلفها الأنشطة الاقتصادية للبشر وتوزيعهم على السطح».[13]

رُبَّ معترض يعترض على هذه الاستشهادات ولا يعتبرها قاطعة بسبب انتمائها كلها إلى مصدر فكري معين ورؤية لاتينية خاصة للعلوم الاجتماعية؛ لذا نسوق الآن ما جاء في الطبعة المختصرة من الموسوعة البريطانية التي تعرف الجغرافيا أنها : «العلم الذي يصف ويحلل التحولات المكانية للظواهر البشرية والطبيعية على سطح الأرض. وترتبط الجغرافيا بالأرض وعلومها كما ترتبط أيضا بالعلوم الإنسانية[14].

إننا حينما سقنا هذه النماذج من التعاريف لم يكن غرضنا أن نتحامل

على رأي بياجي : «لا... إن كل تصنيف للعلوم بدءا بِبِيْكن (Bacon) ووصولا إلى بياجي عبر أمبير (Ampère) وسبنسر (Spencer) وكونت (Comte) وكورنو (Cournot) لا يعدو أن يكون مجرد نظام اصطلاحي، ليس له من القوة في نظرنا ما يسمح له بنفي إيبستمولوجيا الجغرافيا... إن الجغرافيا ليست مجبرة على الانصياع لأي تصنيف من تصنيفات العلوم التي لا تمثل في غالب الأحيان سوى مخلفات للفكر الموسوعي للقرن الثامن عشر...»

Bailly et al, **Les concepts de la géographie humaine,** Masson, 1984. p. 15.

وهذه الغيرة على الجغرافيا والمنافحة عنها تتجليان أكثر عند أحد الجغرافيين العرب الذي يقول : «...فالبعض من ينكر على الجغرافيا صفة العلم، ويعتقد أنها موضوع معرفي، مهمته تزويد الناس بالثقافة العامة عن العالم وما يحوى من ظواهر عديدة كالبلدان والمدن والأنهار والجبال الهضاب والسهول ونحوه. وحتى ندرك مدى المغالطة في مثل هذا القول، ومقدرا التّجني على علمنا من قبل أناس يجهلون طبيعة الجغرافيا أوهدافها وغاياتها، وجدنا من الأنسب أن نبدأ هذا البحث بمقدمة عن ماهية العلم ومفهومه ومناهجه ومقاصده، ليتأكد منها كل من يريد التأكد بأن الجغرافيا علم طالما التزمت بالمنهج العلمي الذي تسير عليه كل فروع العلم العام...».

فرا (الـ) محمد علي، **علم الجغرافيا، دراسة تحليلية نقدية في المفاهيم والمدارس والأبحاث الحديثة في البحث الجغرافي،** نشرة دورية محكمة تعنى بالبحوث الجغرافية يصدرها قسم الجغرافيا بجامعة الكويتة والجمعية الجغرافية الكويتية، ذو القعدة 1400، أكتوبر 1980، ص 5.

على أصحابها أو نندد بهم، فهم ليسوا أكثر من مجرد مرايا تعكس ما تتلقاه من صور، وإنما الغاية أن نشعر نحن الجغرافيين بحالنا ولو بعيون الآخرين. فإذا كانت تلك هي الصورة المهزوزة للجغرافيا عند غير الجغرافيين، فهل يرضينا أصحاب الاختصاص برفع الابهام عن مادتنا وإجلاء الغموض الذي يكتنفها ؟

2.2.1 ـ جغرافيات « أهل الاختصاص »

من الجائز عقلا الاكتفاء بهذه الشهادات والاستغناء عن آراء المعنيين بالأمر بحكم « بضاعتنا ردت إلينا » كما لمحنا إلى ذلك قبل قليل. وحتى لا ينعتنا أحد بمصادرة الرأي وإصدار الأحكام القبلية سنسغي وبنفس الاهتمام والعناية إلى بعض أعلام الجغرافيا ذوي المشارب المتنوعة الذين كلفوا أنفسهم مشقة تعريف علمهم. لكن هناك إشكالا لابد من الحسم فيه قبل الشروع في هذا العمل، إذ من المفروض أولا الاطلاع على أكثر عدد ممكن من المحاولات في هذا الباب، ثم القيام بترتيبها وانتخالها للحصول على « العينات المعبرة » عن الاتجاهات الأساسية للفكر الجغرافي التي من شأنها أن تفصح لنا عن مدلول المادة. وهذان شرطان متلازمان بالطبع.

فبالنسبة للأول، فإنه ـ حسب ما نعلم ـ لا تتوفر لدينا حتى الآن دراسة لهذا الموضوع. وهذه المنقصة في حد ذاتها تدل صراحة على قصور معيب في الجغرافيا التي هي في مسيس الحاجة إلى عمل إبستمولوجي يُقوم حالها ويوجه مستقبلها. أما بالنسبة للشرط الآخر فهو بدوره يقتضي شروط أخرى أقلها المعرفة الدقيقة لتاريخ الفكر الجغرافي والاطلاع الواسع على الثقافة العامة والتحصن بمنهج علمي يلائم المقام، به تحدد معايير الاختيار ومقاييس الحكم.

لكن هيهات هيهات ! ففاقد الشيء لا يعطيه.

ومع ذلك فهل نستسلم للأمر الواقع ونتذرع بهذه الحجة ونستثقل الأمر لنحجم عن أية مبادرة ؟ فإلى متى سنظل نتخفى وراء ركام الكتابات المتعالمة وستار الخرائط المنقمة ؟ إلى متى سنظل نهرب من مواجهة أنفسنا

7

وهو موقف عبر عنه أنطوان بايي من جامعة بزانسون الفرنسية وزميله جان برنار راسين من جامعة لوزان السويسرية قائلين بصراحة نـاذرة وشجـاعة كبيـرة : « الجغرافيا مادة لا إبيستمولوجيا لها ولا إشكالية واضحة ولا نظرية ولا مسلمة وربما بدون مشروع... مادة ستفقد قريبا مستمعيها بعد أن فقدت قراءها. وليس بقريب ذلك اليوم الذي نتلقى فيه التهنئة على قدرة ترويجنا لكتاب الجغرافيا كما توفق في ذلك بعض المؤرخين أو كما يفعل اليوم (الفلاسفة المحدثون). فمتى تباع الجغرافيا في محطات القطار ؟ ألا يكون اهتمام الجغرافيين المفرط في الوصف قد صدهم عن العمل ؟ فلو تدبرت الأمر لوجدتهم لم يبتكروا شيئا غير علم لا ينفع وجهل لا يضر... فهل يساعدنا هذا الوعي بما أصابنا من وهن على الخروج من هذه العزلة والاندراج من جديد في الواقع الاجتماعي ؟ وهل يعثر بعد ذلك تلاميذنا على وظائف بسهولة ؟ »

Antoine S. Bailly et Jean Bernard Racine, **Les géographes ont-ils jamais trouvé le Nord ?** l'Espace Géographique, n° 1, 1978, pp 5 - 14.

8

André Lalande, **Vocabulaire technique et critique de la philosophie.** P.U.F, 9e édit, 1962.

9

Paul Foulquié, **Vocabulaire des sciences sociales,** P.U.F, 1er édition, 1978.

10

صحيح أن المقال يستمر بعد هذا التعريف بعرض يفصل بين الجغرافيا التقليدية والجغرافيا العصرية (وان كان

ومحاسبة أعمالنا والساحة الفكرية كلها هرج ومرج لن يكتب البقاء فيها إلا إلى الأصلح ؟ فليفتح باب الاجتهاد على مصراعية دون خجل أو وجل.

ولمحاولة الاحاطة بمدلول الجغرافيا من خلال علمائها فإننا سنعمد إلى توظيف طائفة من التعاريف الخاصة بها حسبناها شهادات يعتد بها لاثبات الغموض الذي ما زال يكتنف مفهوم الجغرافيا.

جاء في معجم الجغرافيا الذي قام بإنجازه نخبة من مشاهير الجغرافيين الفرنسيين بإشراف بييـر جورج[15] ما يلي : «... بخلاف الجيولوجيا فإن الجغرافيا علم بشري بعد أن كانت في بعض الأوقات علما رياضيا (تعريف وقياس أشكال الأرض وأبعادها). وهي تهدف إلى إبراز ومحاولة تدقيق طبيعة وكثافة العلاقات والروابط التي تطبع حياة المجتمعات البشرية وتكيفها. وتتحدد هذه العلاقات في نطاقات متدرجة أعلاها الكرة الأرضية (الجغرافيا العامة)، أوسطها القارات وأشباهها (الجغرافيا النطاقية والاقليمية) وأسفلها المجالات المكانية (الجغرافيا المحلية، الجغرافيا الاقليمية أو الحضرية). وتخلق هذه العلاقات بفعل صنفين من العوامل مختلفة كل الاختلاف، عوامل طبيعية (الجغرافيا الطبيعية) وأخرى ناجمة عن تراكم أفعال الإنسان المتنوعة حديثا وقديما (الجغرافيا البشرية). ومن الضروري أن يعالج كل صنف من هذه المعطيات باعتبار مكانتها ضمن مجموع العناصر المتصلة بالأرض وفق منظور جغرافي شامل، بحيث يعمل الجزء على فهم الكل. وتتبلور هذه المعطيات بأكملها في الجغرافيا الاقليمية التي تتخذ من الخريطة الاقليمية وسيلة لتجميع ومقارنة وتنسيق المعلومات المستقاة من الدراسات التحليلية لحالة وتطور الأوضاع والعلاقات الخاصة بمكان معين، قد يكون من الضروري تحديده مسبقا».

لا شك أن هذا التعريف الذي يحمل في طياته الكثير يستحق أن نتوقف عنده كي نتمحصه على مكث ونتدبره بإمعان، غير أننا لن نفعل ذلك الآن لأن ما يهمنا في هذا المقام بالدرجة الأولى هو إثبات صلاحية، إن لم نقل صحة الفرض الذي ذهبنا إليه للتوّ والقائل بغياب تصور واضح لـ «علم» الجغرافيا حتى عند المتخصصين أنفسهم. ولنا في التعريف الذي بين أيدينا على الأقل أربع ملاحظات، نسوقها على عجل، ونعتقدها كافية

هناك اعتراضات هامة حول ما جاء به المؤلف) ثم يفصّل الحديث عن الجغرافيا البشرية والجغرافيا السياسية والجغرافيا الانتخابية والجغرافيا التاريخية والمدرسة الجغرافية في الاجتماع. وهذا لا يمكنه إلا أن يزيد من حيرة القارىء واختلاط الأمر عليه، لا سيما إذا قابل التعريف العام للجغرافيا الذي طرح في البداية بما تلاه من أفكار مبعثرة.

11

Thinès (G) et Lempereur A. (Sous le direction), **Dictionnaire général des sciences humaines,** Editions Universitaires, Paris, 1975.

12

ويمكن ابداء نفس الملاحظة بالنسبة لمعاجم أخرى أغفلت أو تغافلت هي أيضا عن إعطاء تعريف للمادة. انظر مثلا أحمد زكي بدوي، **معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية**، انجليزي — فرنسي — عربي — بيروت، مكتبة لبنان، 1978.

13

حينما يقول هؤلاء «المعجّمون» : «... ويرى كثير من المتخصصين أن الجغرافيا الاقتصادية إحدى شعبها الهامة...». فمن هم هؤلاء المتخصصون الذين مالوا بالجغرافيا كل هذا الميل إلى الظواهر الاقتصادية فقط؟ فإن كان في هذا ما يدل على تعدد أوجه الجغرافيا وتنوع مهامها، ففيه أيضا دليل على غياب أي تقويم إبستمولوجي لا من جانب الجغرافيين المتخصصين ولا من جانب فلاسفة العلوم.

14

The New Encyclopædia Britannica, Encyclopœdia Britannica, Inc, 1974.

15

George (Pierre) **Dictionnaire de la Géographie,** P.U.F Paris, 2eme édit. 1974.

لتبرير الموقف الذي اتخذناه.

فبعد التأكيد على أن الجغرافيا هي علم بشري انصرف التعريف إلى توضيح هدفها ثم إلى التلميح إلى منهجها. وهذا في حد ذاته شيء مستحسن، لولا الإشكال العويص الذي يثيره الفصل بين جغرافيا طبيعية من جهة، وجغرافيا بشرية، لا تعرف حدودهما، من جهة أخرى. صحيح أن هناك محاولة لاستدراك الموقف وتجاوز العقبة عبر «المنظور الجغرافي الشامل». لكن ما هو هذا المنظور بالضبط وكيف يتحقق علميا وعمليا ؟ فالواضح من سياق التعريف أن ذلك يعني «الرؤية التأليفية» التي يرى فيها الجغرافيون إحدى سمات الفكر الجغرافي وأهم خاصية فيه؛ وهذا لعمري ادعاء أهون من بيت العنكبوت، إذ أن العلوم كلها، وكيفما كانت، هي بالضرورة علوم تأليفية[16].

ثم إن المزاوجة بين موضوع يتلخص في «دراسة العلاقات والروابط التي تطبع حياة المجتمعات وتكيفها» اعتمادا على مساهمة الجغرافيا الطبيعية من جهة والجغرافيا البشرية من جهة أخرى، ومنهج قائم على سلم من مقاييس يصعب التمييز بين درجاته السفلى (الجغرافيا المحلية، الجغرافيا الاقليمية أو الحضرية) يترتب عنها في النهاية تفكك الجغرافيا إلى جغرافيا طبيعية وجغرافيا بشرية وجغرافيا عامة وجغرافيا نطاقية وجغرافيا اقليمية وجغرافيا محلية وجغرافيا حضرية ! وهذا التصنيف الذي بني على أسس واهية، يشتت المادة ويعبث بجوهرها فيصبح الكلام عن الموضوع والمنهج ضربا من اللغو والهذيان، يَبْطُلُ معه التعريف من أساسه[17].

وأخيرا، وليس آخرا، كيف نستسيغ ضرورة وضع تحديد مسبق للأمكنة، الذي يمثل ميدان الدراسة، بيد أن التجربة تدل على الصعوبة الفائقة، إن لم نقل الاستحالة المطلقة لتحقيق هذا الشرط المنهجي (اللهم إذا ما تعلق الأمر بحالات ناذرة جدا كالأحواض النهرية أو الواحات مثلا؛ والشاذ لا حكم له) الذي هو في الحقيقة هدف من أهداف الدراسة وليس منطلقا لها، مع العلم بالطبع، أن الجغرافي لا يشرع في عمله اعتمادا على عناصر متناثرة، بل لابد له من ربطها بالمكان الذي يظل، إلى مرحلة معينة، حيزا جغرافيا مؤقتا قابلا للتغيير بحسب المعايير والمقاييس المستعملة

16

إن هذا الغموض الذي يكتنف مادة الجغرافيا يعود بالأساس إلى الامتناع أو عدم القدرة على التمييز بين الظواهر الطبيعية والظواهر الاجتماعية كما يبدو ذلك جليا عند بيير جورج الذي يعرف الجغرافيا في مؤلف آخر «كعلم تأليفي يتوسط مناهج علوم مختلفة». وهو تعريف من شأنه أن يزكي موقفا معاديا كموقف بياجي حيال الجغرافيا كما سبق ذكره.

Pierre George, **Les méthodes de la géographie,** P.U.F, Paris, 1970, Collection Que-suis-je ? n° 1398, p 6; id, **Les hommes sur la terre, la géographie en mouvements,** Seghers, Paris, 1989.

17

هنا ينكشف جانب من القصور الإبستمولوجي للجغرافيا الذي يقول بشأنها جورج : «إن الجغرافيا بطبيعتها إذن لا يمكن أن تقوم بالضرورة إلا على وجود عدد من المناهج المختلفة» **Les méthodes de la géographie** (ص1). وفي نفس المؤلف نقرأ الجملة التالية : «إن الجغرافيا، وهي علم يدرس العلاقات بين الإنسان والبيئة، تنطلق من الوصف لتصل إلى التفسير [...]، وهي ليست تكنولوجيا، بل هي ملاحظة [...] وهي فن أكثر مما هي علم» (ص 11).

في البحث. ويمكن أن نرد عكس الآية الوارد في التعريف إلى انتماء أصحابه إلى الجغرافيا التقليدية التي تنطلق من الظواهر البارزة وأشكالها اعتمادا على وصف أدبي تتوخى منه، واهمة، تفسير واقع جغرافي مبتور !

فلما كان هذا التعريف، رغم مكانة واضعيه، لا يعكس في النهاية سوى تصور معين للجغرافيا، وجب الاهتمام بمحاولات أخرى كتلك التي قام بها الجغرافي الفرنسي المعروف **فيليب بنشمل*** في المقال الذي كتبه للموسوعة الفرنسية العالمية والذي أفرد فيه فقرة عالج فيها بالذات «مشاكل التعريف»[18]. يقول بنشمل : «يتفق الجغرافيون على التمييز بين جغرافيا عامة وجغرافيا إقليمية. فالأولى تحلل المكان عموما على مقاييس صغرى أو عن طريق المقارنة. وهي تهدف إلى تعريف وترتيب الظاهرات وتركيباتها المختلفة التي تظهر في صورة ‹المشهد› (لاندسكيب بالانجليزية، لاند شفت بالألمانية). وهاتان الكلمتان، في الواقع، قد استعملتا استعمالا مخالفا حسب المقياس المعتمد وحسب اعتبار عمل الإنسان. لهذا هناك جغرافيتان عامتان، إحداهما طبيعية وأخرى بشرية».

وبعد الحديث عن الجغرافيا الطبيعية وفروعها «التقليدية» (الجيومرفولوجيا) وعلم المناخ والهدرولوجيا والجغرافيا الحيوية) ينتقل بنشمل إلى بسط مفهوم الجغرافيا بقوله : «الجغرافيا الاقتصادية والبشرية تشمل هي أيضا عدة فروع. وغالبا ما يستعمل تعبير الجغرافيا البشرية، وإن كان في النعتين في الحقيقة بيان أكبر، إذ من الأفضل التمييز جيدا بين جغرافيا الإنسان الذي يحتل المجال الأرضي ويُعده، جغرافيا السكان والتوزيع وحركة الديمغرافيا والهجرات المؤثرة فيها والبنيات الاجتماعية، جغرافيا استعمال المجال الزراعي (أو الريفي) والحضري، جغرافيا تاريخية وسياسية من جانب؛ وجغرافيا الأنشطة البشرية من جانب آخر، تلك التي تعنى بالإنسان منتجا ونقالا وتاجرا، أو بصفة عامة بالإنسان النشيط والمستهلك أيضا، ضمن أنظمة للإنتاج والمبادلات التي تحدد العلاقات الاجتماعية. ويبدو جليا أن هذين الاتجاهين للجغرافيا البشرية متلازمان كل التلازم ويقتضيان ربط أواصر متينة مع التاريخ والديمغرافيا والإثنولوجيا والاجتماع والاقتصاد والتعمير إلخ... ».

* **Philippe Pinchemel**

18 Pinchemel (Philippe), **Encyclopœdia Universalis** France, Volume 7, neuvième édition, février 1976, pp 617-625.

ويستطرد الكاتب فيقول : «أما بالنسبة للجغرافيا الاقليمية فهي تدرس نفس الأحداث لا لكي تحللها كأحداث على مقاييس مختلفة على سطح الأرض بغرض ترتيب أصنافها وعلاقاتها مع ضبط توزيعها، بل من أجل تدقيق وتفسير تراكيبها التي تعطي لرقعة معينة من سطح الأرض خاصية طبيعية وبشرية، وتشخص منطقة وهي مكان يتحقق فيه ‹الانسجام بين الطبيعة والمنجزات البشرية › **فِـدال دُلَـبْلاش***».

* Vidal de la Blache

وبعد هذا أشار بنشمل إلى الجدل القائم حول مفهوم الاقليم ليخلص إلى أن «تعاريف المنطقة تختلف بحسب المعايير والمقاييس المعتمدة بقدر ما تختلف بحسب أنماط هذه الأقاليم نفسها». وبعد استعراض مشاكل التعريف التي مر عليها صاحبنا مر الكرام، انصرف هذا الأخير إلى الحديث حول منهج الجغرافيا أو كما يقول هو نفسه «مناهج الجغرافيا». فلنستمع إليه : «... فمناهجها هي نفس مناهج العلوم القريبة، طبيعية أو بشرية، التي لا تدرس إلا جوانب معينة من المكان. لكن الجغرافيا كعلم يدرس الاختلافات المكانية، كما وكيفا وأنماط التنظيم والتجمعات الاقليمية من حيث تفاوتها وحركيتها، وعند الاقتضاء بتهيئتها، تختلف برؤيتها عن باقي العلوم. ويعتقد الجغرافي أن كل الذين يهتمون بتنظيم المكان وتهيئته لن يقدموا عملا نافعا ما لم يكونوا جغرافيين، وإن لم يشعر هؤلاء بذلك».

ثم يسترسل بنشمل في حديثه مُعلنا : «وهكذا فإن الجغرافيا ليست قطعا كما يتخيل البعض علما مكتبيا يلقن في المدارس والجامعات كعنصر من عناصر الثقافة العامة للشخص على أيدي أساتذة منسلخين على الحياة والنشاط [...] وهي لا تتحقق إلا بالاحتكاك الدائم بالعالم المتحرك دون الالتصاق بالظرف الراهن لأن العلم لا يكون إلا حينما تخضع الظاهرات المدروسة، في أوضاع قارة نسبيا، إلى قوانين بحيث لا يمكن فهم تلك الظاهرات في غياب علامات منطقية لا تمثل فيها الحالة الراهنة إلا صورة عابرة [...] إن الجغرافي الحقيقي هو الذي يعيش العالم الذي يدرسه [...] لكنه لا يحرص فقط على اكتساب المعلومات المتجددة مهما بلغت صعوبتها، بل يكتشف أن معرفته وتجربته تؤهلانه للعمل. وهذا العمل يمكن أن يتخذ عدة صور دون أن يدفع بالجغرافي إلى النهوض بوضع برامج

ومخططات مستقبلية بعيدة المدى. فربما كان ذلك من شأن الاقتصادي وعالم الاجتماع، وبكل تأكيد من شأن الاداري ورجل السياسة.»

مما لا شك فيه أن هذا التعريف أغنى بكثير من سابقه. ومع ذلك فهو يظل في جوهره متفقا معه بحيث يثير نفس القضايا ويطرح نفس المشاكل كوحدة الجغرافيا وماهية موضوعها وخصائص منهجها. وربما اعتقدا البعض أننا نهول من الأمر بسبب اعتمادنا على شهادات جغرافيين بعينهم، ينتمون إلى مدرسة معينة. أبدا، فهذه الهموم، وغيرها كثير، ليست وليدة اليوم، فهي بدأت تتراكم مع نشأة الجغرافيا الحديثة نفسها عند منتصف القرن الماضي، وباتت عبئاً ثيقلا على كاهل كافة الجغرافيين في كل مكان وكل زمان وكيفما كانت مشاربهم. ولنا في النشرة الإعلانية التي أصدرتها في شهر يناير 1990 اللجنة المنظمة للمؤتمر الجغرافي الدولي السابع والعشرين المزمع عقده في سنة 1992 بمدينة واشنطن ، خير دليل على ما نقول. فهذه النشرة يتصدرها تعريف للجغرفيا ارتأيت أن أنقله إلى القارىء نظرا لما له من وزن أكاديمي ودلالة إبستمولوجية : «الجغرافيا هي علم المجال والمكان. ويشمل موضوعها الظواهر الطبيعية والبشرية التي تشكل أمكنة العالم وبيئاته. ويصف الجغرافيون سبب تحول الأمكنة بواسطة النص والخريطة كما يفسرون نشأة هذا التحول محاولين في نفس الوقت الوقوف على دلالته. وتسعى الجغرافيا باستمرار إلى فهم الخصائص الطبيعية والثقافية للأمكنة ومواقعها الطبيعية على ظهر البسيطة».

فهذا التعريف الذي يعكس رأي أعلى هيئة للجغرافيا لا يختلف عن التعاريف الأخرى[19] ولا يبعد عنها ولو بقيد أُنملة. وهو أيضا يظل بطبيعة الحال حبيسا لنفس المشاكل المستعصية.

2 ـ العلم المستحيل ؟

إن المفترس في هذه التعاريف وفي غيرها يستشعر لا محالة وجود ركام هائل من القضايا الشائكة التي ما فتئت تترسب وتتحجر منذ تأسيس الجغرافيا الحديثة لقرابة قرن ونصف القرن من الزمن والتي ما زالت تستعصي على الجغرافيين حتى اليوم رغم إدراك بعضهم لها مبكرا. ألم يضع الجغرافي

19

راجع مثلا التعريف الوارد في الموسوعة البريطانية الجديدة المختصرة

The New Encyclopœdia Britannica Micropœdia, Volume 19.

ولتعميق الموضوع انظر النسخة المعمقة من نفس الموسوعة.

Encyclopœdia Britannica Macropœdia, Volume 19, 15th édition, pp. 917, 926.

الأمريكي **رِتشرد هَرتشورن**، في سنة 1930 كتابا سارت بذكره الركبان، خصص مبحثه الأول لطرح عدد من هذه القضايا بالذات ؟.[20] ألم يتساءل فيه عن الجغرافيا وعن موضوعها وأهدافها، كما تساءل أيضا هل بإمكانها أن تكون علما ؟ والحقيقة أن هذه التساؤلات سبق طرحها من قبل، وإن ضمنيا. ومع ذلك فما زلت ترانا نلوك نفس الأسئلة ونحمل نفس الهموم التي لا تزيد مع الأيام إلا ثقلا.

من المسلم به اليوم أن أي نشاط فكري لا يعتبر علما ما لم يستوف شروطا أربعة، لا ينظر غالبا إلا لإثنين منهما : فلكل علم موضوع أي مضمون ملموس صالح للدراسة؛ وله منهج، أي مجموعة من القواعد التي توصل إلى نتيجة معلومة. أما الشرطان الآخران فيتلخصان من جهة في الاستبطان الذي يجعل العلم يتأمل نفسه والعلماء يحددون هويتهم وميدان بحثهم اعتمادا على ممارساتهم الشخصية، بعيداً عن كل معيارية تجريدية؛ ومن جهة أخرى في تحليل العلاقة بين الذات والموضوع وارتباطها بالعلوم الأخرى. فهذه القضايا لا تغيب عن بعض الجغرافيين، فمنهم من نذر نفسه لمعالجتها أو على الأصح لمعالجة البعض منها. ومع ذلك تظل مسألة الموضوع في نظري محور الرحى من تلكم الرباعية.

20

Hartshorne (Richard), **The nature of Geography, A critical survey of current taught in the light of the past,** 1939 Lancaster.

راجع بالمناسبة المحاضرة التي ألقاها أحد أقطاب الجغرافيا المعاصرة في نهاية الأربعينات، الفرنسي هنري بولج.

Henri Baulig, **La Géographie est-elle une Science ?** Annales de Géographie, 1948 Vol. 57, pp. 1-11.

1 ـ ما هو الموضوع ؟

سواء كانت الجغرافيا «العلم الذي يدرس الأرض» أو «دراسة للعلاقالات بين الإنسان والبيئة الطبيعية» أو «علم التوزيعات» أو «علم التباين المكاني»[21] فهي تظل مادة تأليفية تتناول عدداً هائلا من العناصر المتفاعلة داخل تركيبات معقدة وغير ثابتة، زمانا ومكانا ومقياسا. وأمام هذا المأزق الحرج لم يجد الجغرافيون مخرجا غير الاستنجاد بالرمضاء من النار. ففي بداية الأمر، لما برزت الجغرافيا العصرية للوجود، عمد الرواد إلى تفادي المعضلة عن طريق اختزال المعادلة الصعبة بإغفال (أو بتغافل ؟) البعد «التاريخي» للإنسان، أي بإسقاط الإنسان «الفاعل»، فردا ومجتمعا؛ والابقاء فقط على إنسان «فلسفي» مطموس الوجه غائب عن الأحداث. لكن، علاوة على جانب الصعوبة الذي جعل من الجغرافيا في هذه المرحلة،

21

تلكم هي أهم الاتجاهات للبحث الجغرافي المعاصر التي سنتعرف عليها إن شاء الله عبر فصول هذا الكتاب

«علما طبيعيا» هناك اعتبارات أخرى دفعت بها نحو هذا الاتجاه نقتصر على ذكر اثنتين منها. الأولى ترجع إلى الدور الحاسم والمساهمة الفعالة التي كانت لكثير من علماء الطبيعة من جيولوجيين وعلماء النبات والأرصاد الجوية الخ... في إرساء قواعد الجغرافيا الفتية وتحديد مسارها. أما الثانية فتتلخص في الطموحات العِلموية التي كانت تراود الرعيل الأول من الجغرافيين الذين عملوا على بناء علم يحظى بالقبول والاحترام سيراً على هدْي العلوم الطبيعية[22].

ولما تسارعت عجلة التاريخ وأخذت المدنية الغربية تتطور في موكب صاخب من الثورات من كل نوع لم يعد بالامكان التمادي في تجاهل الإنسان التاريخي والتهرب من حل المعادلة. ولما حزب الجغرافيين الأمر لجأوا إلى حلين أحلا هما مرّ : فمنهم من وجد ضالته في تقسيم الجغرافيا إلى تخصص طبيعي ضرب الصفح عن الإنسان وقضى الحاجة بتركها؛ وآخر بشري، حائر، ضائع بين علوم إنسانية تسير بخطى حثيثة وتحقق الإنتصارات الباهرة؛ ومنهم من وجدها في «الجغرافيا الاقليمية» التي تمثل في نظرهم مَلاك الجغرافيا وقوتها الموحدة. صحيح أن الجغرافيا الاقليمية تظهر لأول وهلة كاتجاه يساعد على إبراز خصوصية الجغرافيا بالنسبة للعلوم الأخرى، لكن الحل لا يصمد للأسف عند التحليل لأن الجغرافيا الاقليمية في صيغتها التقليدية تظل تطرح على الدارس نفس المعادلة بكل عناصرها المتشعبة والمتفاعلة، زيادة على صعوبة تحديد مفهوم الاقليم نفسه الذي أصبح محط اهتمام علوم أخرى ومثار نقاش حاد ومنافسة ضارية.

وإذا كانت الجغرافيا الاقليمية قد استطاعت، بفضل لقاحات الاقتصاد والرياضيات أساسا، وذلك ابتداء من الخمسينات، أن تقوم من مرقدها وتستيقظ من سباتها لتنفض عنها غبار نصف قرن من الزمن (1900 ـــ 1950) وتعطي للجغرافيا ولو بصيصا من الأمل حتى ولو بقي الهدف بعيداً، فإن الازدواجية تعني بكل تأكيد الحكم بالاعدام على الفكر الجغرافي لأنها تسبب فيه شرخا مديدا يتسع ويتعمق يوما بعد يوم تحت تأثير العلوم «المساندة» التي تتفرع باستمرار والتقنيات التي تتطور بسرعة مذهلة، الشيء الذي يجعل التخصصات الجغرافية في هذا المنظور تذوب

22

هناك من يرد أصل هذا التقسيم الذي تعرضت له الجغرافيا إلى الفيلسوف كانط ككلود رفستان (Claude Raffestin) وأنجيلو توركو (Angelo Turco) اللذين يعتقدان أنه «ربما يكون من اللازم علينا الرجوع إلى **كانط** (Kant. E. Logik, Physiche Geographie, Pedagogik)، الذي عبرت أفكاره المذهب الوضعي **لأوجست كونت** Auguste Comte وفكر **كورنو** Cournot ثم **لُفسور** Levasseur، الذي استقى منها الثنائي الطبيعة ـــ الثقافة، لتصل بعد ذلك في حلة كانطية جديدة إلى **فدال دُلبلاش** Vidal de la Blache.

Les concepts de la géographie humaine, A. Bailly et al, Masson 1954, p. 16.

شيئاً فشيئاً وتفقد نسبها الجغرافي كالجيومرفولوجيا التقليدية مثلا حينما جذبتها بعض العلوم فراحت تنشغل بتعبير الأشكال[23] وقياس الحبيبات[24] والجيوكيمياء[25] في مخابر رفيعة التجهيز تشع علما وتبعث الارتياح والفخار في النفوس. شيء رائع، لكن ماذا نقول مثلا في جغرافيين واحد متخصص في الكارست[26] بالمناطق شبه الجافة وآخر في الجغرافيا التاريخية للمدن الفينيقية ؟ فهل بقي بعد هذا ما يجمع الاثنين ؟ نعم شيء واحد : الجغرافيا. فهي ما تزال حية ترزق والجغرافيون اليوم من أنشط الباحثين، يؤلفون الكتب وينشرون المقالات ويعقدون الندوات[27]!..

وفي الوقت الذي يتجرع فيه الجغرافيون، غافلين أو متغافلين، مرارة الانقسام والتشتت، وبعد خيبة الأمل العريض الذي عقد على الجغرافيا الاقليمية، أيقن الجميع بضرورة التحرك العاجل لانقاذ المادة من الموت المحقق. فكانت «الثورة المنهجية» التي جاءت تعلن في الخمسينات ميلاد «الجغرافيا الجديدة». وإن تعجب فعجب أن تقوم الثورة على غير عقيدة. فعوض أن يولي الإصلاحيون عنايتهم أولا وقبل كل شيء للقضية الجوهرية، أي لتأسيس المقومات العلمية للفكر الجغرافي لاخراجه من المأزق الذي بات يترنح فيه السنين الطوال، انصرفوا يستوردون المفاهيم ويجلبون المناهج ليغرسوها غرسا في جسم الجغرافيا النحيل عساها أن تسترجع العافية.

وبصرف النظر عن فئة قليلة فإن جمهور الجغرافيين اليوم يعتزون بما حققته الجغرافيا الجديدة من نتائج طيبة ويعتبرونها من المكتسبات الهامة. وبالفعل فلا أحد يستطيع أن ينكر الخطوة الهائلة التي خطاها البحث الجغرافي لما توفرت له أدوات جديدة وفعالة كالتكميم مثلا. لكن الجغرافيا الجديدة التي يحلو للبعض أن يسميها بالجغرافية النظرية لم تحسم للأسف في القضية الأساس لأنها ركزت فقط على المنهج وغفلت تماما الموضوع؛ اللهم إلا إذا كان الجغرافيون الجدد يكتفون بالقول بأن الجغرافيا هي «علم تنظيم المكان» وأن نظرية الموقع التي ترفد هذا التعريف تحدد ضمنيا هذا الموضوع. لكن هذا التعريف يطرح هو الآخر إشكالات شتى بعضها متعلق بالمنهجية وبعضها الآخر بالمفاهيم، وإن من الصعب التمييز بين الصنفين بحكم تداخلهما. وهذا بالذات ما غاب عن المحدثين، الشيء

23

تعبير الأشكال (Morphoscopie) تعبير يستعمل في الرِّسابة (أي العلم الذي يحلل الرواسب ويدرس العلاقات التي تربطها بالوسط الذي تكونت فيه) ويعني دراسة العناصر المكونة للصخور التحاتية (من جلاميد وحصى وحبات الرمل) من حيث شكلها وسطحها.

24

قياس الحبيبات (Granulométrie) هذا أيضا تعبير يستخدم في نفس العلم ويقصد به معرفة أهمية وتوزيع العناصر المكونة للصخور الرسوبية حسب قياسها.

25

الجيوكيمياء (Géochimie) هي العلم الذي يهتم بالعناصر الكيماوية التي تكون الأرض ويدرس توزيعها وتحلحلها.

26

يقصد الجيومرفولوجيون بكلمة «كارست» (المأخوذة عن إسم إحدى المناطق بيوغسلافيا التي يكثر فيها الجير) أشكال السطح الناجمة عن فعل المياه بوجه خاص على الصخور الكلسية (الجيرية) التي تقوم فيها الإذابة بدور رئيسي.

27

لا شك أن المرء يعجب لصمود الجغرافيا رغم ما يعتريها من علل. لكن إذا ظهر السبب بطل العجب. ومرد هذه الحالة إلى أسباب شتى منها أنظمة التعليم والتقاليد المتأصلة التي تعتبر المادة عنصرا هاما في تكوين المواطن. ويتصل بهذا أيضاً الوزن الاجتماعي والسياسي المتزايد الذي أخذت تكتسبه الأوساط الجامعية والهيئات العلمية حتى في الأنظمة السياسية المتسلطة، الأمر

الذي جعلهم يتهاونون في تكييف مستورداتهم وصياغتها صياغة جغرافية أصيلة. وبالطبع فإننا لن نتمكن في هذا الحيز الضيق التوسع في قضية المناهج الجغرافية والخوض في المفاهيم المستعملة التي نرجو، إن شاء الله، أن نعود إليها بتفصيل في الجزء الثاني من هذه الدراسة.

حسبنا في هذا المقام أن نشير إشارة خاطفة إلى مسألتين اثنتين فقط تكفيان لإقامة الدليل على ما يشين الفكر الجغرافي من قصور إبستمولوجي ويعوق تطوره العلمي. فهل يكون المنهج الجغرافي منهجا فرديا، أي أحاديا،* يعمل بمقتضاه الجغرافي على وصف وتفسير ظواهر فريدة غير قابلة للتكرار أم هو منهج تعميمي* يهدف إلى صياغة قوانين علمية أو بصفة عامة إلى إيجاد سبيل وإجراءات لتعميم المفاهيم ؟ سؤال قديم، قدم الجغرافيا الحديثة، ومع ذلك فلا أحد يستطيع حتى الآن الرد عليه ردا شافيا ويحسم فيه نهائية. وكيفما كانت شرعية السؤال فإنه يحمل في طياته تساؤلات أخرى قد تخرج عن نطاق الجغرافيا. هذه واحدة.

أما الثانية فهي تكمن في تعويض كلمة «الأرض» الفضفاضة المتداولة قبل الثورة المنهجية بمفهوم «المكان»[28]، الذي صار خبز الجغرافيين المحدثين رغم أنه ما يزال مفهوما غامضا يحتاج إلى الصقل والتدقيق[29] بحيث لا نجد إلا قلة قليلة من الجغرافيين الذين حاولوا القيام بهذا العمل[30]. زد على ذلك أن المفهوم هذا، الذي يجعل منه كل الجغرافيين اليوم، عن بينة أو غير بينة وبدون تبرير في الحالتين، موضوع بحثهم، مفهوم تتجاذبه علوم كثيرة كعلم النفس والاجتماع والاقتصاد... إلخ.

فكيف تقوم القائمة إذن للجغرافيا وهي لا موضوع لها ؟ نعم فالمسألة ليست بالشيء الهين، لكن ذلك سيظل شرطا واجبا وإلا فلتمت الجغرافيا جوعا أو لتعش عيشة المتسول. وللأسف الشديد فالجغرافيون الذين لم يعتادوا التأمل في تخصصهم ولا يتوفرون على رصيد فلسفي في هذا المجال يجنحون في غالب الأحيان إلى تجنب العقبات ومغالبة الصعاب ليركبوا مطايا طيعة يروضها لهم غيرهم، وإن كان هؤلاء أنفسهم لا يعرفون الوجهة التي يقصدونها. فذاك شأن كثير من الجغرافيين المنظرين الذين اختزلوا كل

الذي يصعب معه تهديم هذه القلع واتخاذ قرار إلغاء مادة معينة من المقررات حتى ولو ثبت قلة مردوديتها العلمية والاجتماعية. وفوق ذا وذاك ليست الجغرافيا وحدها التي تشكو.

28

إن كلمة «مكان»، التي تقابل المفردتين **Space** الانجليزية و **Espace** الفرنسية، لها في العربية عدة مرادفات كالمجال والحيز. وفي غياب توحيد المصطلحات العلمية على صعيد العالم العربي دأب الشرقيون على استعمال كلمة مكان، بينما يستعمل المغاربة عادة كلمة مجال.

*** Idiographique**

*** Monothétique**

29

انظر على سبيل المثال التعريف الذي وضعه بول كلفال في موسوعة لاروس **Paul Claval, Espace géographique,** La Grande Encyclopédie, Librairie Larousse, 1973, pp 4481-4484.

ومن الملفت للنظر بهذا الصدد أنك لا تجد في معجم الجغرافيا الذي أشرف عليه بيير جورج (سابق) مصطلح «المجال الجغرافي» بينما هناك «المجال الاقتصادي» ص 161.

30

من بين هؤلاء نجد الجغرافي البرازيلي المعروف **ملتن سنطوس** Milton santos، الذي تعرض للقضية في كتابه :

Pour une nouvelle géographie - de la critique de la géographie à la géographie critique, Office des Publications Universitaires, Alger Publisud, Paris, 1984, Chapitre X, pp 89-95.

القضايا الجغرافية في معادلات ريضاية ونماذج إحصائية معلنين إنهاء الأزمة وتوحيد أقطار الجغرافيا.

لكن البعض قد ثار على هذا الاتجاه وأخذ يطعن فيه ويوجه إليه النقد. لكن بدل أن يعمل هؤلاء على تقويم مسار البحث الجغرافي، الذي أضحى يخوض في التصورات الجوفاء أكثر مما يُعنى بالوقائع الملموسة، وتوجيهه إلى قضاياه الحيوية ظنوا أنهم يحسنون صنعا عندما ينبهون أصحاب النظريات إلى إغفالهم الأبعاد الثقافية والنفسانية في «المُرَكَّب الجغرافي». وفي غياب أي تحديد واضح لموضوع المادة كان حتما أن يبقى الجرافيون أهل بيت فَتٍّ، خصوصا بعد ما اكتسحت الأيديولوجيات والفلسفيات ميدان الجغرافيا.

2.2 ـ تفكير أبتر

إن علاقة الجغرافيا الحديثة بالفلسفة ليست ظاهرة طارئة. فالجغرافيا أصلا فلسفة كما هو واضح عند كَنْط. وحتى عندما تأسست الجغرافيا كعلم مستقل ظلت العلاقة قائمة كما تشهد على ذلك أعمال الرواد. لكن التطلع إلى بناء علم جغرافي سرعان ما جعل الأجيال اللاحقة تنفر من «التفلسف» لتتفرغ إلى التحليل العلمي الموضوعي على غرار الطبيعيات التي ترفدها الفلسفة الوضعية؛ الأمر الذي سيجعل البحث الجغرافي لقرابة قرن من الزمن، ينفعل بها أكثر مما يفعل فيها. لكن بعد الحرب العالمية الثانية وما ترتب عنها من تطورات عميقة وسريعة في كل المجتمعات البشرية، أخذ بعض الدارسين، إحتذاءاً بما يجرى في العلوم الاجتماعية، يعمل على تعديل الميزان ورد الاعتبار للإنسان. غير أن هذه المبادرة المحمودة صارت تواجه إشكالات لا قبل للجغرافيين بها من قبل. وهي إشكالات تتلخص في إمكانية التوفيق بين المنهج العلمي والفلسفيات والأيديولوجيات التي أصبحت لصيقة به، ملازمة له، رغم أنف الغافلين وعنت المنكرين. وعليه بات الافصاح عن الخلفية الفلسفية للدارس شرطا من شروط البحث في الجغرافيا كما في باقي العلوم الإنسانية. فباستثناء الماركسيين الذين يتحركون ضمن نظرية معلومة، لا يكلف أحد نفسه شرح مرجعه الفلسفي وتبريره.

فهل يجوز مع هذا الهيلمان من المشاكل المعقدة التمادي في الغي والأسرار على التعامي ونكران الحق ولو كان مراً ؟ ألا يكون الصواب أولا في التحلي بالشجاعة والاقرار على رؤوس الأشهاد بأن ما في جعبتنا لا يعدو مجرد شتات من المعارف الهشة مازلنا جميعا نسعى في ترويجها في أسواق مختلفة، نبيعها، دراهم معدودة، لتلاميذ المدرسة وطلاب الجامعة وبعض بيوت الخبرة ؟ ولا شك أن هذه الميادين الثلاثة تمثل مخابر مناسبة لتقويم أنشطة الجغرافيا، ومن ثم وضع منهج نقدي مثمر. وبكل تأكيد فإن الناقد سيضع يده هنا على مشاكل أخرى لا تقل خطورة وخطرا واستعجالا على سابقاتها. فما هو التسلسل الذي يربط هذه الحلقات فيما بينها إذا كان هناك تسلسل ؟ هل ما يتلقاه التلميذ في الثانويات يساعده على متابعة الدراسة الجامعية ؟ وهل المتخرج من الجامعة يكون مؤهلا لاقتحام ميدان البحث العلمي وسوق الشغل ؟

3 ـ كلنا في الهم سواء

إن هذه الملاحظات رغم تعددها وتنوعها ليست في الحقيقة سوى غيض من فيض. لذلك فإننا لن نطيل الحبال في هذا الموضوع لأن الحلال بين والحرام بين والشبهات غير موجودة. لقد قررنا قبل قليل بأن لا مخرج لنا من ورطتنا هذه إلا بالاقدام على وضع تقويم علمي لعلمنا. لكن، لما لم تكن الجغرافيا جزيرة منفردة تعوم في محيط مقفر، وجب وضعها في بيئتها العلمية وتحديد موقعها على خريطة العلوم، لأن المتخصص الذي يقنع بذاته وينحصر في أفق مادته قد ينتهي به الأمر إلى جهل ذلك التخصص نفسه.

1.3 ـ ساعة بين العلوم

لكن تحقيق هذه الرغبة العلمية والضرورة الإبستمولوجية قد يتعذر من ناحيتين : من ناحية الجغرافيا أولا بسبب ازدواجيتها وانقسامها إلى جغرافيا طبيعية وجغرافيا بشرية. فمادامت دار لقمان على حالها فسيكون من باب اللغو والعبث إبداء الرغبة في التعامل مع العلوم الأخرى والإفادة منها، وإن كنت إخَالُ المسألة الآن عند منعطف هام لو أحسنا التصرف

فيه لأمكن وضع تصور جديد للجغرافيا لأن الازدواجية ليست قضاء وقدراً. وهناك من البوادر الطيبة ما يجعلنا نستبشر بإمكانية بناء علم أصيل يخدم قضايا الناس أفراداً وجماعات. ثم إن الرغبة قد تتعذر من ناحية العلوم الأخرى، خاصة الإنسانية منها، التي لا تسلم هي أيضا من نقائص وعيوب قد تبلغ من الهول درجة تجعلنا بمثابة الغريق المتشبث بالغريق.

فـ «وضعية العلوم الإنسانية، بكل تأكيد ولاعتبارات شتى، أكثر ريبة. ومن الصعب القول هل يدرك عامة الناس هذا، من جهة لأن ‹ الأزمة › هي حالتها المزمنة منذ البداية؛ ومن جهة أخرى لأننا نسمع بين الفينة والأخرى، في أعقاب ما يحققه البعض منها من تقدم حقيقي أو مزعوم، أصواتاً تعلن مفرطة عن العثور أخيراً على مفتاح جميع المشكلات البشرية (حدث هذا بالنسبة للاقتصاد ثم لعلم النفس ثم للسنيات)»[31].

«إن تطور المعرفة في اتجاه التخصص الدقيق من شأنه أن يجعل من حقل العلوم الإنسانية أدغالا تختفي فيها الغابة وراء الشجرة. والعالم الذي ينزوي في ميدان، ينكمش يوما بعد يوم ويهب له حياته يفتقد الوحدة الأصلية للإنسان، ويصبح علم الإنسان علما بلا إنسان [...] وتاريخ العلوم الإنسانية يبدو في مناحي كثيرة وكأنه دفع مستمر إلى الأمام، مع أن هذه العلوم تترتب عنها تطبيقات ذات تأثير مباشر على الحياة اليومية للبشر. والقصور الابستمولوجي للعلوم الإنسانية سبب من الأسباب الرئيسية في أزمة الحضارة المعاصرة. وأصحاب الاختصاص حينما يعملون لمصلحتهم الشخصية لا يدركون أنهم يسهمون في الاخلال بتوازن حياة الفرد والجماعة. »[32]

إذا كان الجميع يسلم بأن الظواهر الطبيعية تحكمها قوانين وبأن هذه القوانين يمكن معرفتها، أمكن القول بأن العلم هو مجموع معرفة تلك القوانين. «و يؤخذ من هذا أن الإنسان كما هو في الفلسفات المعاصرة السائدة اليوم عنصر من عناصر الطبيعة. وبالتالي فإن سلوكه ونشاطه فردا وجماعة يخضعان هما أيضا لقوانين».[33] وما دامت القوانين «الطبيعية» شرطا واجبا للمعرفة العلمية لكل من الطبيعة والإنسان فلماذا وكيف إذن نميز بين العلوم ونصنفها ؟ أما إذا قلنا بوجود قوانين خصوصية منها ما هو

31

Castoriadis (Corneille), **Science moderne et interrogation philosophique**, Encyclopœdia Universalis, sixième publication, oct. 1975, Vol. 17, p. 60.

32

Gusdorf (Gustav) **Sciences humaines,** Idem Vol. 14, p. 771.

33

عينــه، ص 752.

للطبيعة ومنها ما هو للإنسان فما هي هذه القوانين التي تحكم البشر ؟ هذه واحدة. والثانية كيف نوفق بين العلوم الطبيعية والبشرية. أما الثالثة فهي كيف نؤسس العلوم «المخضرمة» التي تجمع بين الطرفين كالجغرافيا بالذات ؟

وبمعنى آخر هل تجتمع مختلف العلوم التي نزاولها اليوم على أساس معين يوحدها ويلم شتاتها ويوجه مسارها ؟ هل يكون ذلك الأساس المنشود كما يعتقد البعض هو التجانس الحثيث للمناهج مهما تنوعت ميادين البحث ومهما تباعدت الأشياء التي نرغب في التحكم فيها شريطة معرفة كيفية المزاوجة بين الصَّورنة (أو تقعيد الاستنباط أي وضع القواعد المتبعة في تكون القضايا والاستنباطات في العمليات العقلية) والقيام بالتجربة التي قد تكون مجرد عمليات ذهنية كما هو في الرياضيات ؟. فمن يقول بهذا يكون كمن يبني صروحا في الهواء لأنه لا يمكن بأي حال من الأحوال أن نجعل من المنهج وحده أساس العلم، لا سيما وأن منهجية العلوم الإنسانية يخيم عليها في الوقت الراهن جو من الالتباس والإرتباك الناجم عن تضارب الأنساق المقترحة المتنافسة عليها. فهي تاريخ (ماركس) وعلم أحياء (**فرويد**) وجبر (**ليفي ستروس**)*.

* Lévy- Strauss

ومع ذلك، ورغم كل المحاولات السابقة، فما زال هناك من «سجناء المغارة العلمية» من يرى الحل إما في توحيد المناهج الأساسية المتبعة في ميادين مختلفة أو في اختصارها في نموذج مبسط، والحلان في الواقع متقاربان جدا. فالمحاولة التي قامت بها دائرة فيينا التي كانت تطمح علانية إلى «توحيد العلوم» وتحقيق وحدتها الابستمولوجية لم تفلح بسبب نزعتها الفيزياوية[34] التي كانت تريد أن تجعل منها فلسفة قائمة الذات.

«إن مثل هذه الوحدة [...] المنهجية تبدو أمرا غير وارد اليوم وربما للأبد. ولا يمكن التفكير فيها حتى داخل المجال البشري. ففي هذه الحالة ظهرت محاولة الترييض لمدة طويلة بمظهر ساذج وهي تبحث عن قوانين كمية تمنح العلوم البشرية دقة الفيزياء الرياضية، التي تتشوف إليها بتلهف. فجاءت النتيجة تافهة أو لا قيمة لها [...] ومؤخرا هناك من حاول أن يوجه هذا التوحيد توجيها جديدا [...] بنيوياً[35] من شأنه أن يسمح بترييض

34

الفيزياوية (Physicalisme) نظرية حديثة تنزع إلى جعل لغة الفيزياء اللغة الشاملة المناسبة لجميع العلوم. جبور عبد النور — سهيل إدريس، **المنهل قاموس فرنسي — عربي**، دار العلم للملايين — بيروت، الطبعة الأولى 1970.

35

انظر تعريف البنيوية في الهامش رقم 30 من الفصل الرابع من هذا الكتاب.

معين مستقل عن فكرة القياس [...] وهكذا يحاول البعض تطبيق صورنة زائفة نقلا وتقليداً لأنماط من الصورنة التي أتت أكلها في ميادين أخرى دون التساؤل عن مشروعية هذا النقل، وأكثر من ذلك دون الشعور بأن هذه الصورنات تثير مشاكل لا حد لها في عقر دارها.»[36].

ونتيجة لهذا الاسراف في توظيف عقليات جزئية ومتضاربة أصبحت «العلوم الإنسانية تمثل الشكل العصري للوحشية» فهي تطمس وجه الإنسان الذي يبدو أنها افتقدته لدرجة أن غالبية المتخصصين قد يعجزون عن إعطاء تعريف لتخصصهم[37] وتحديد مدى قدرته [...] وتنحية الإنسان تنحية لوجود لعائق كان يحول دون الوصول إلى المعرفة. وهكذا لم تعد هناك علوم إنسانية بالمفهوم الصحيح، فالسلوكات والأفكار أُخضعَت إخضاعا لمنطق الرياضيات فأصبحت شبكة هائلة ترسم معالم عالم يسوده الخطاب الاستبدادي. وفي هذا الاستيهام الجبري أصبحت الدائرة في كل مكان والمركز مفقود. ورغم افتقارها للذات والموضوع وخلطها بين النظرية والتطبيق وبين المعرفة والمهارة فإن علوم الإنسان ما تزال مصرة على المشي لاثبات وجودها، وإن كنا لا نعرف إلى أين تذهب وماذا تحب أن تثبت »[38].

وقد لا يستبعد أن يكون هذا الاسرار على هذا النهج، الذي ما فتئت الأغلبية من الباحثين والدارسين ينهجونه منذ تأسيس العلوم الحديثة لثلاثة قرون خلت على يد الغرب، يخفي قضية من أكبر القضايا الفلسفية، إن لم نقل أهمها على الاطلاق، حيث أرجح أن يكون السبب الرئيسي في وجود هذا الحائل الابستمولوجي : ألا وهي قضية الوجود الإنساني التي ضاعت في متاهات الفلسفة وضلال الأيديولوجيات. «إن تأسيس العلوم الإنسانية بالمفهوم الدقيق في الغرب اقتضى في البداية إعادة شاملة وترتيبا لحقل المعرفة. فكان من الضروري تخليص الواقع البشري من عُقاله الميتافيزيقي الذي حال دون أن يجد ذلك الواقع في نفسه البداية والنهاية. ولهذا فإن العلوم الإنسانية تطالب بالكائن البشري كملك خاص بها مجرد عن العلم الإلهي» وهكذا أصبح الكائن البشري ملتقى لعدد من التخصصات التي صارت تعمل بمقتضى خطة مشتركة تطبعها العقلية الوضعية، لكن في

36

Corneille Castoriadis, **Science moderne et interrogation philosophique,** op. cit, p 73.

37

هذا حكم من الصعب رده. وحسبك أن تستعرض التعاريف المبثوثة في المعاجم ومؤلفات المتخصصين لتتيقن من تضاربها وغموضها. ويخطر ببالنا هنا المزحة الشهيرة التي قالها عالم الاقتصاد فينـنج (**Vining**) بصدد الاقتصاد : «الاقتصاد هو ما يفعله الاقتصاديون !».

38

G. Gusdorg ، سابق، بتصرف.

غياب وجود أساس موحد، فراح كل علم لحاله مدعيا لنفسه كلية الظاهرة البشرية؛ الأمر الذي تمخض عنه التنافر والتناقض والتعارض، وهي صفات أصبحت ملازمة للعلوم الإنسانية برمتها.

إن الجغرافي حينما يطلع على أحوال جيرانه، قريبهم وبعيدهم، قد يلمس حقيقة أمرهم وما هم عليه أيضا من فرقة ومحنة ومعاناة، لاشك أنه سيتنفس الصعداء ويسكن روعه بعد أن عاش مهموما مغموما وهو يشعر بالدونية بين أقران لامعين كان يحسب ثرثرتهم العالية وفرقعاتهم المتوالية إنتصارا ساحقا وفصلا للخطاب.

والآن ما العمل ؟ فهذه سفينتنا سفينة واحدة تهيم في بحر لُجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب، ربانها غائب ووجهتها مجهولة. وليست الندوات «العلمية» ولا المؤتمرات «الناجحة»، مهما تعددت، ومهما تنوعت، بقادرة على تدارك الموقف وتصحيح المسار. فليتكلم العلماء المحترمون ما طاب لهم الكلام، وليحلل من شاء ما شاء وكيفما شاء، لكن ليعلم الجميع إنما هي صيحات نطلقها في واد غير ذي زرع.

2.3 ـ الفلسفة تحاور العلوم

لعل من أهم أسباب التخلف الإبستمولوجي للعلوم الإنسانية ترفع المتخصصين عن التدبر في المسلمات الأساسية التي ينبني عليها بحثهم، ظناً منهم أن اللبنات التي يأتون بها فرادى تسهم في نهاية الأمر في إقامة البناء المنشود. فالعالم يكتفي بطرح المشاكل التي يواجهها علمه دون الانتباه إلى وجود «مشكل المشكلات» الذي به تتحقق الغاية العلمية. فوحدة العلوم الإنسانية ليست هي ذلك الركام الهائل من النتائج المحصل عليها في ميادين التاريخ القديم لإفريقيا وعلم الاجتماع الصناعي والحفريات الفرعونية واللسنيات الأمازيغية والسلالات الميلانيزية وعلم النفس التقني وتاريخ الساسانيين. فمجموع كل هذه العلوم لن يمكننا أبدا من الواقع البشري ما لم نتوفر على تصور كامل ومتكامل للإنسان في كل أبعاده المادية والروحية والأخلاقية. ولا ضير بعد ذلك أن يكون لكل متخصص إبستمولوجيا خاصة به وإجراءات تعنيه، على أن تلتقي في النهاية كل هذه

الروافد لتصب في إبستمولوجيا عامة تغطي مجموع الحقل البشري.

3 . 2 . 1 ـ «من نظرية المعرفة إلى الإبستمولوجيا»

لا أحد يستطيع اليوم أن يخفي ما بات يعاني منه المتخصصون، وفي كل الميادين، من ضيق وحرج نتيجة للفصل المفرط الذي أصاب حقل المعرفة خلال القرون الثلاثة الماضية : فصل بين تخصصات الميدان الواحد، فصل بين الميادين، وفصل بين العلم والفلسفة. لذلك «فنحن مطالبون بالتدبر في النمط الحالي للعلاقات الموجودة بين التخصصات العلمية وصلتها بالفلسفة؛ نحن مطالبون بمراجعة هذا الفصل القائم والجاري به العمل، وإذن بالتشكيك في طريقة تقسيم العمل التي تهيمن عليه. نحن مطالبون في النهاية بالتفكير في إدماج العلم في المجتمع والتساؤل عن كيفيته»[39].

خلافا لما ذهب إليه البعض فإننا نتشكك في أن يكون «هذا الخطاب قد استنفد أهدافه» وأنه أصبح من «الوهم» التطلع إلى نظرية للمعرفة بدعوى إنهيار النظرية الكلاسيكية التي كانت تحمل بالفعل في طياتها أسباب فشلها، وبالتالي أن تجعل من «الإبستمولوجيا [...] البديل الذي يحدد لذاته مهام جديدة تتلاءم والصورة الجديدة للعلاقة بين الفلسفة والعلم [بعد] التقدم الكبير الذي حصل عليه العلم منذ بداية عصر النهضة الأوروبية الحديثة» والذي أصبحت معه بالتدريج نظرية المعرفة الكلاسيكية ووظائفها «في تناقض متزايد مع التطور العلمي»[40].

فهذا قول سليم ورأي صائب تماماً طالما تعلق الأمر بالغرب ومنظومته الفكرية. وقبل المضي في مناقشة هذه المسألة الهامة جدا يحسن بنا أن ندقق المفاهيم.

أ ـ ما هي نظرية المعرفة ؟*

«نظرية المعرفة هي البحث في طبيعة المعرفة وأصلها وقيمتها ووسائلها وحدودها. وهي غير السيكولوجيا التي تقتصر على وصف العمليات العقلية، وتمييزها بعضها من بعض، دون الفحص عن صحتها أو فسادها. وغير المنطق الذي يقتصر على صياغة القواعد المتعلقة بتطبيق المبادىء العامة دون البحث في أصولها وقيمتها. وقيل إن نظرية المعرفة قسم

39 Corneille Castoriadis, **Science moderne et interrogation philosophique,** op. cit, p. 66.

40 وقيدي (محمد) **ما هي الابستمولوجيا ؟** مكتبة المعارف، الرباط 1987، الطبعة الثانية، ص 86.

* **Théorie de la connaissance, Gnoséologie**

من علم النفس النظري الذي يصعب فيه الاستغناء عن علم ما بعد الطبيعة لأن غرضه البحث عن المبادىء التي يفترضها الفكر متقدمة عن الفكر نفسه».

«ومعنى ذلك أن نظرية المعرفة هي البحث في المشكلات الفلسفية الناشئة عن العلاقة بين الذات المدركة والموضوع المدرك، أو بين العارف والمعروف. وأقدم صورة هذه النظرية بحث الفلاسفة عن درجة التشابه بين التصور الذهني والشيء الخارجي لمعرفة حقيقة المطابقة بينهما، وأحد صورها تلك التي تبحث في طبيعة الذات المدركة لمعرفة الأثر الذي تتركه هذه الذات في تصور الشيء الخارجي، ولكن هذه الصورة الحديثة ترجع كالصورة القديمة إلى البحث في قيمة العلم، أي في قيمة التصور والتصديق، لذلك قال A. Rey (إن نظرية المعرفة هي البحث في قيمة المعرفة وحدودها والأولى أن يسمى هذا البحث نقد المعرفة لا نظرية المعرفة)»[41]. فنظرية المعرفة إذن بحث، من خلال تصور معين، في قضية المعرفة ومحاولة لوضع حلول لها.

ب ـ ما هي الإبستمولوجيا ؟

أما الإبستمولوجيا فيقصد بها التخصص الفلسفي الذي يبحث في أسس علم معين بحثا نقديا. «وبصفة أدق فهي ليست دراسة مناهج العلم التي هي موضوع علم المناهج الذي يمثل جزءا من المنطق، كما أنها ليست أيضا تركيبا أو توقعا حدسيا للقوانين العلمية (على شاكلة المذهبين الوضعي والتطوري)، فهي بالأساس بحث نقدي في مبادىء وفرضيات ونتائج العلوم المختلفة يهدف إلى ضبط أصلها المنطقي (لا النفسي) وقيمتها وحدودها. وعليه يجب التمييز بين الإبستمولوجيا ونظرية المعرفة وإن كانت هذه مدخلها وساعدها الذي لا تستغني عنه، إذ تعرض الإبستمولوجيا للمعرفة عرضا مفصلا وبعديا ضمن تنوع العلوم والموضوعات بدلا عن وحدة الفكر»[42].

فالإبستمولوجيا «لا تتمثل في صورة الفلسفات الكلاسيكية» بل «... تهدف إلى تحقيق غايات خارجية عن العلم، تقوم من أجل تحقيقها

41

صليبا (جميل) **المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية والفرنسية والانكليزية واللاتينية**، بيروت، دار الكتاب اللبناني، الطبعة الأولى، 1973، الجزء الثاني، ص 478 — 479.

42

Lalande (André), **Vocabulaire technique et critique de la philosophie,** P.U.F, 9e éditi. 1962.

يثير هذا التعريف جملة من التساؤلات ويطرح العديد من القضايا التي لا تهمنا مباشرة، كما أنها ليست من اختصاصنا. لذلك نحيل القارىء المهتم إلى كتاب : «ما هي الابستمولوجيا» (سابق، الصفحات 8 والتي تليها).

بتأويل النتائج العلمية بالصورة التي تندرج بها هذه النتائج ضمن الغايات الفلسفية، لأي نسق فلسفي [...] فالإبستمولوجيا ليست نظرية في المعرفة لأنها تحاول ألا ترتبط بمثل نظرية المعرفة بالأهداف العامة لنسق فلسفي ما. ومن جهة أخرى فإن الإبستمولوجيا ليست جزءاً من نظرية المعرفة خاصا بالبحث في المعرفة العلمية. ذلك لأن الاختلاف الأساسي بين نظرية المعرفة والإبستمولوجيا أنه لا هدف للإبستمولوجي في بناء نظرية عامة في المعرفة، فبالأولى أن يكون لهذه النظرية اعتبار الاجابة النهائية والحاسمة بصدد مسألة المعرفة. يتناول الخطاب الإبستمولوجي التفكير العلمي في مرحلة تاريخية من مراحل تطوره، ويريد هذا الخطاب أن يظل على وعي بتاريخيته ونسبيته، وألا يقع في خطإ التعميم الواهم للنتائج المحصلة من هذا التحليل التاريخي والنسبي. إن الخطاب الإبستمولوجي إذ يتعلق بالقيم المعرفية لفترة تاريخية معينة من نمو المعارف الإنسانية لا يريد أن يقع في خطإ إضفاء صبغة الإطلاق على هذه القيم المعرفية »[43].

لكن في السنوات الأخيرة طرح تصور آخر للإبستمولوجيا. وهذا التصور الجديد الذي أخذ يفرض نفسه لم يعد ينظر إلى الإبستمولوجيا كتخصص «خارجي» بل يعتبرها «كمحور قائم بذاته ضمن البحث العلمي وجزءاً هاما من عمل كل باحثٍ في ميدانه». بمعنى أن الإبستمولوجيا كما يقول بياجي أصبحت «باطنية» تباشر دور الناقد المتيقظ في ميدان البحث. وتقوم فكرة بياجي على ربط الدراسة الابستمولوجية بعلم النفس التكويني الذي يعد أحد فروع علم النفس، لا لتكون تحليلا فلسفيا ترفده العلوم الإنسانية الموجودة، «بل علما إنسانيا آخر قائم الذات ينضاف إلى بقية العلوم الإنسانية.».

وهذه «الإبستمولوجيا التكوينية» تمثل في رأي مؤسسها نظرية نقدية للمعرفة المتطورة للأفراد والجماعات معا. وهي نظرية تعتمد من ناحية على المنطق أي على التحليل الصوراني للمعرفة، ومن ناحية أخرى على التكوين النفسي للسلوك المعرفي ونقد العلوم (تاريخ العلوم والتقنيات والمجتمعات، إبستمولوجيا العلوم الوضعية والإنسانية). وبفضل التحليل النقدي للترابط المتواصل بين الذات والموضوع تعطي الإبستمولوجيا

43
محمد وقيدي ـــ **ما هي الابستمولوجيا ؟** سابق، ص 63 و86.

التكوينية تقديرا معينا للحقائق التي تأتي بها تأويلات المعرفة البشرية. ويتعرف بياجي على أربعة أصناف إبستمولوجية تكوينية :

1 – الإبستمولوجيا بالمعنى الضيق، وهي كل بحث يهتم بأنماط تراكم المعرفة وتحليلها من حيث التكوين النفسي، أي من وجهة نظر تاريخية نقدية.

2 – الإبستمولوجيا العامة وهي التي تبحث في تاريخية، أي في نسبية، الأنظمة المرجعية للمعرفة.

3 – الإبستمولوجيا الخاصة وهي تدرس الحالات المتعاقبة لكل تخصص علمي ضمن تطوره العام.

4 – الإبستمولوجيا العامة، ويقصد بها بياجي دراسة الآليات التي تعمل في بناء المعارف.

وهكذا يبدو أن الفلاسفة يتخذون من المعرفة موقفين بارزين : فـ «الإبستمولوجيون الفلاسفة» يرون في الغالب «أن علاقة الإبستمولوجيا بنظرية المعرفة هي من حيث المبدإ علاقة نوع بجنس، لأن الإبستمولوجيا تقف عند البحث في صورة خاصة من المعرفة هي المعرفة العلمية، بينما نظرية المعرفة تدرس حالة المعرفة بصفة عامة. وهناك من يعبر بصورة أخرى عن هذا الموقف مثلما يفعل بياجي الذي يرى أن المعرفة في تطور لن تصل فيه إلى تمامها، وإن كل إبستمولوجيا تبحث في هذا التطور ستغدو وبالتالي نظرية للمعرفة»[44]. أما الفرق الثاني فـ «هو الذي يفصل بين المفهومين ولا يرى بالتالي أن من مهمة الإبستمولوجي تقديم نظرية في المعرفة»[45].

44 عينه، ص 14، عن Jean Piaget, **Introdution à l'éistemologie génétique,** P.U.F, 1970.

45 عينه، ص 13.

2.2.3 ـ من الإبستمولوجيا إلى «فقه المعرفة»

إن هذا الاختلاف ليس مجرد قضية تعني الفلاسفة وحدهم، بل هي قضية على أعلى درجة من الخطورة يشترك فيها العالم والفيلسوف على حد سواء. وإننا لا نتصور قطعا أن يوجد طالب علم واحد يماري في شأن الإبستمولوجيا فيجادل في مشروعيتها ويشك في مشروعها. لقد بلغت منا

الفوضى العلمية المنظمة والتسيب الفكري السافر مبلغاً لا يسع المرء معه إلا أن يهلل ويبارك المولود الجديد الذي كلم الناس في المهد صبياً. صحيح أن إبستمولوجيا العلوم الإنسانية لم يشتد عودها بعد، حيث لا تزال هي بدورها تفكر في موضوعها ومناهجها. ومع ذلك فهي، كتفكير محايث للعلم قمين بأن يخلق القضايا القصوى، تبدو علما مرغوبا فيه لما يعقد عليه من أمل لكبح جماح الباحثين وترشيد الحركة العلمية.

فالإبستمولوجيا التي تطمح أن تصبح علما متكاملا ستكون لا محالة عملا مفيدا، إذ أنها تتوق لأن تكون ذلك الجسر المفقود الذي يربط بين جزر المعرفة. لكن هذا الطموح قد يبقى مجرد حلم جميل يراود الإبستمولوجيين ما لم يحسموا في قضيتي الموضوع والمنهج، لأن ما نتوفر عليه حتى الساعة في هذين البابين لا يتجاوز قيمة الاجتهادات الفردية، لها ما لها وعليها ما عليها. ثم إن الإبستمولوجيا يعترضها عائق آخر لا نستبعد أن يكون العائق الأساسي وهو الذي يتمثل في حجم المشكلة الإبستمولوجية التي ما تزال محط اهتمام وفحص من لدن الفلاسفة من **أوجست كونت** (1798 ــ 1857) إلى **بياجي** (1896 ــ 1972) مروراً **بـجستون بشلار** * (1884 ــ 1962). وحتى لو افترضنا وجود منهج فعال فربما تثار مسألة أخرى تتعلق بالموضوعية التي سيعالج بها الإبستمولوجي «الخامات» التي يجمعها (أو ينتقيها ؟). فهل هناك إذن ذاتية في البحث الإبستمولوجي ؟ وإذا كانت كيف يمكن التعامل معها كي تحتفظ الإبستمولوجيا بمصداقيتها العلمية ؟ زيادة على هذا وذاك فإن العمل الإبستمولوجي سيواجه في المستقبل المنظور مشكلة جديدة لابد من العناية بها، وهي كيفية الإفادة مما يسميه بياجي بالإبستمولوجيا الخاصة، أي من إنتاج المتخصصين أنفسهم.

* **Gaston Bachelard (1884-1962)**

ومادام الإبستمولوجي والعالم ضليعين كليهما في القضية فلا مفر إذن لهذا الأخير من مواجهة نفس التحديات، وإن كنا في الحقيقة لا نعي منها جميعا إلا البعض. فما هي مقومات الإبستمولوجيا الخاصة ؟ وما هو منهجها ؟ أيكون الوضع على ما عليه الإبستمولوجيا العامة، أم هل يجب

إبتكار وسائل ملائمة ؟ ثم كيف يتعامل الإبستمولوجي المتخصص مع حجم المسألة ويحقق الموضوعية العلمية ؟

إنني على قناعة تامة من أن هذه الأسئلة، وغيرها كثير، لن يستطيع أحد الطرفين بمفرده، مهما علا شأنه، أن يجد لها الحلول المناسبة، لأن العمل الإبستمولوجي بطبعه عمل جماعي ينبغي أن تتجند له الهمم وتحشد له كل الطاقات من أجل أن تصبح الإبستمولوجيا بحق «علم العلوم» الذي يقوى على كشف «مشكلة المشكلات». فالخير كل الخير في فتح باب التعاون بين الجانبين وتوثيق الصلة بينهما، وإن كانا معا للأسف الشديد لا يعرفان كيف. ولا شك أن ذلك يرجع إلى حد ما إلى التقاليد الجامعية في جل البلدان وغياب الوعي الإبستمولوجي عند الكثير من المتخصصين. فكم هي المؤسسات التي تنظم فيها دروس أو على الأقل تعقد فيها حلقات دراسية أو ندوات حول الموضوع ؟ ومع ذلك فإن التفاؤل أصبح يلوح في الأفق مع التباشير التي أخذت تحملها بعض المقالات والمؤلفات.

لكن هذا التفاؤل لا يعني بالنسبة للمتخصص إمكانية حل كل المشاكل التي يتخبط فيها، دفعة واحدة، لأن الإبستمولوجيا ليست خاتم سليمان أو عصا موسى. نعم، فهي قد تستطيع بالفعل أن تقدم له خدمة جليلة فتجعله قادرا على محاورة علمه وإدراك محيطه ومراجعة نفسه، لكنها لن تعطيه المفتاح الذي يحل به ألغاز البحث ويفهم به تشابك الظاهرات الإنسانية التي ينكب على دراستها. ومعنى ذلك أن المتخصص في العلوم الإنسانية مهما تحصن بالفكر الإبستمولوجي فهو لن يستطيع أبدا الإستغناء عن مرجع فلسفي معين. فإذا كان الإبستمولوجي يقوم بعمل رصد «محايد» للظاهرة العلمية، فإن الباحث يعنى بحل المشاكل ويتشوف إلى «الحقيقة». والمغزى من ذلك أن البحث في ما يسمى بالعلوم الإنسانية، رغم محاولات متكررة لعل آخرها وأبرزها النظرية البنيوية، لا يمكنه بتاتا الانسلاخ عن نظرية في المعرفة. وإننا لا نستبعد، أو على الأقل نأمل، أن تساعد الإبستمولوجيا، لا على حل المشكلة برمتها، بل على تطويقها وتحديد حجمها بعد تنخل النظريات السائدة وإزالة الشوائب

العالقة بها، عسى أن تضيق الفجوة بينها ويختفي الجفاء بين أدعيائها وينطلق النقاش من جديد حتى يحيا من حَيِيَّ على بينة ويموت من يموت على بينة.

إن الحكم بالموت على نظرية المعرفة الغربية حكم نافذ لا معقب له، قتلت العلماء فاقتص منها العلم؛ ثم بعثت فراحت تخلط بين العلم والمعرفة، فضلت وأضلت. وها هم اليوم فلاسفة هذه الأمم وحكماؤها يشيعون جنازتها ثانية وهم يتساءلون : وما البديل ؟ فهل ننتظر نحن إلى يوم يبعثون ؟ أم نقول ذرهم في غيهم يعمهون. هل أصبحنا حقا كأعجاز النخل الخاوية أو كالخشب المسندة تنحتها فلسفات الغرب وأيديولوجياته كما تهوى ؟ أليس في كياننا طاقة روحية ومقومات فكرية تجعلنا أحراراً نقوى على الأخذ والعطاء ؟ إن البديل الذي نرتصنيه هو ذلك الذي لا تتعارض فلسفته مع العلم إطلاقا ولا ينفصم فيه العلم عن العمل أبداً. وهذا النسق الفكري الذي يطمح إلى تطابق المعرفة والعلم وتحقيق الانسجام بينهما هو ما نسميه «فقه العرفان» (أو المعرفة).

ويقوم هذا الفقه في تصوري على أثافي ثلاث : أولا على الإبستمولوجيا بشقيها الخاص والعام للأسباب التي سبق ذكرها مع الاعتناء بشكل خاص بقضيتين هامتين تتعلق إحداهما بالمناهج والأخرى بالمشكلات التي يخوض فيها الباحثون، أي بالموضوع. ثانيا : على نظرية واضحة تستوفي الشرطين المنصوص عليهما أعلاه، أي نظرية شاملة حول الإنسان، روحا وجسما، فردا وجماعة. ثالثا : على الاختبار والتطبيق، أي إشراك الباحث إشراكا حقيقيا في المشاريع الإجتماعية من التخطيط إلى التنفيذ، الأمر الذي سيجعلنا نحقق أعلى درجات المردودية لأننا سنضرب عصفورين بحجر واحد، إذ، فضلا عن استفادة المجتمع، نعطي الفرصة للعالم بتحقيق علمه. طبعا كلنا يعلم ما ينطوي عليه هذا الشرط من حساسية بالغة وما يمكن أن يعترضه من عقبات كأداء قد تحول بين الباحث ورغبته الملحة في تحقيق ذاته وتحول الأمنية إلى مجرد طوبيا. لكن علينا أن نعي جيدا أننا بين اختيارين لا ثالث لهما : فإما أن نسلم أو نستسلم للأمر الواع ونترك الحبل على الغارب فنخادع أنفسنا والناس أجمعين. وإما أن نتجلد بالصبر ونتسلح بالجرأة لنعيد النظر، وبصفة جذرية،

في النظام الحالي الذي يحكم العلاقة بين البحث العلمي من جانب والمجتمع وصناعة القرار من جانب آخر، ونفسح المجال بالتالي لإعادة بناء العلوم على أساس مشروع إجتماعي محكم.

فهل نحن فاعلون ؟

4 ـ نحو مشروع جغرافي أصيل

في اعتقادي وملتي أن فقه المعرفة الذي أقترحه كمحاولة للخروج من النفق الذي تسير فيه العلوم الإنسانية نسق فكري لا يتحقق إلا في المذهبية الإسلامية لأنها تتجنب الخطأ القاتل الذي وقع فيه الفكر الغربي حينما خلط بين العلم كمضمون مطلق وبين العلوم كنتاج نسبي للعقل العلمي، أي كنتاج لمنهج فقط. وبعبارة أخرى لأنها تقدم مشروعا حضاريا متكاملا عُني بقضية العلم أيما عناية، مشروعا صار في هذه الأيام الكالحة والسنين الحالكة موضوع جدل ساخن بين المتحمسين له والرافضين له بدل أن يكون موضوع نقاش هادىء وبحث علمي رصين. أما ما نسمعه اليوم أو نقرأه فأغلبه أقرب إلى التدابر منه إلى المناظرة. ولذلك لن يعقل أبدا أن نضرب صفحا عما بين أيدينا من علوم ونظريات ومناهج ثم نلقي بها في اليم. فخذ الحكمة ولا يضرك من أي وعاء خرجت، فالحكمة كما قال رسول الإسلام، صلوات الله عليه، ضالة المؤمن أنَّى وجدها فهو أحق بها.

فنظراً لهذه الاعتبارات العلمية الصرفة من جهة، وحتى يتمكن القارىء من جهة ثانية من مناقشة فكرة المشروع الجغرافي وهو على بينة من أكثر ما يمكن من الوقائع والحقائق استحسنت التريث والقيام بهذه الدراسة على مرحلتين، أفرد لكل واحدة كتابا خاصا. فالكتاب الأول وعنوانه الفرعي «البحث عن الهوية»، وإن بدا كتاريخ للفكر الجغرافي الحديث والمعاصر، فهو في الحقيقة يطمح إلى هدفين إثنين : الأول هو بالفعل عرض تاريخي لهذا الفكر الذي لم يتنبه الجغرافيون إلى أهميته الإبستمولوجية القصوى إلا في السنوات الأخيرة[46]. ولا يستبعد أن يكون عدد كبير من الجغرافيين اليوم، خاصة بين المبتدئين، من لا يزال يجهل الكثير عن هذا التاريخ.

46 والدليل على ذلك تأخر الاتحاد الدولي للجغرافيا في خلق «لجنة تاريخ الفكر الجغرافي».

والهدف الثاني يكمن في توظيف القراءة التاريخية كمدخل عام لإبستمولوجيا الجغرافيا. أما الكتاب الثاني فسيكون بإذن الله تحليلا نقديا مبنيا على درس الإبستمولوجيا يبتغي تأصيل الفكر الجغرافي.

1.4 ـ تاريخ الفكر الجغرافي كمدخل لإبستمولوجيا الجغرافيا

إن النقض الإبستمولوجي الذي ما يزال يطبع الجغرافيا والمشاكل العويصة التي ما فتئت تتحدى الجغرافيين، خاصة في هذا الربع الأخير من القرن، يستدعيان بكل إلحاح التعجيل في وضع تشخيص شامل للحالة الراهنة للمادة. وهذا التشخيص منطقيا لا يمكنه الاستغناء بتاتا عن الكتابة التاريخية التي تجعلنا نستحضر العوامل والمؤثرات التي كانت وراء نشأة الجغرافيا وتطورها. لكن كيف نحقق هذا الشرط الإبستمولوجي وكتابة تاريخ الفكر لم تنضج بعد ولم تتأسس كتخصص محكم ؟ فأغلبية الجغرافيين الذي تناولوا الموضوع لم يكن هدفهم كتابة التاريخ بقدر ما كان هدفهم توظيف خطاب علمي يبررون به مواقفهم ويدعمون به مشاريعهم. لذلك وجب أن نعي بأهمية الموضوع وأن نعطيه في المستقبل ما يستحق من عناية بحثا ودراسة وتدريسا؛ حتى لو كنا نستشعر ما قد يحف هذه الكتابة من مخاطر.

لكن هذا لا يعني أنني سأقدم للتو على هذا العمل لأن طبيعة الدراسة التي نحن بصددها لا يهمها التأريخ للفكر الجغرافي بقدر ما يهمها قراءة، أو على الأصح، إعادة قراءة هذا التاريخ بغية الخروج باستنتاجات أساسية من شأنها أن تكشف عن سياق ذلك الفكر وأن تفصح عن منطقه الخاص، وبالتالي أن تسمح بالتشخيص وفتح آفاق التجاوز. وهذه الاستنتاجات الكبرى في رأيي يمكن إجمالها في ثلاث ملاحظات :

أ ـ الفكر الجغرافي المعاصر نتاج محض للمدنية الغربية

إنني لا أستبعد أن يثير هذا الاستنتاج العجب والدهشة لدى الكثيرين لاقتناعهم، عن وعي أو غير وعي، بعالمية هذا الفكر. فهذه فكرة ترسخت بفعل السبق الذي أحرزته علوم الغرب ووطدتها المحافل والهيئات

العلمية العالمية المتخصصة. لكن الحقيقة، وهي من البداهة بمكان، غير ذلك وهي لا تحتاج إلى بيان أو برهان. فهل ننسى أن الجغرافيا بنت من بنات الفلسفة الغربية، ولدتها التأملات الميتافيزيقية ليتبناها مباشرة الفكر الوضعي الذي ظل يحتضنها ردحا من الزمن أخذت بعده تعاشر أصنافا شتى من «الحداثيين» ؟ وعليه فلا يجوز التمادي في إغفال أهمية الفلسفات والأيديولوجيات في تكوين الفكر الجغرافي المعاصر وتحديد مساره كما هو الحال بالنسبة لكافة العلوم.

ب ـ استكمال عناصر الموضوع والبحث عن إشكالية جديدة

يتجلى من خلال قراءة تاريخ الجغرافيا الحديثة، والمعاصرة أنها عرفت ثلاثة أطوار أساسية : الميلاد الذي تم خلال الكشوف الكبرى، لا سيما في النصف الثاني من القرن الثامن عشر؛ النشأة وهي مرحلة وجيزة إمتدت على العقود الثلاثة الأخيرة من القرن الماضي، لكنها مرحلة هامة شهدت تأسيس المادة كعلم؛ وأخيرا النمو الذي انطلق مع بداية القرن والذي أظنه قد اكتمل في السبعينات من قرننا هذا. فبمجرد أن انسلخت الجغرافيا مبكرا عن الفلسفة الغائية[47] أخذ الجغرافيون يركزون اهتمامهم بالخصوص على الطبيعة لأن الغرب بفضل الانتصارات العلمية والتطورات التقنية التي حققها صار يسعى إلى تسخير تلك الطبيعة واستغلالها على شكل أوسع. صحيح أن العنصر البشري لم يغب في هذه الاهتمامات لكن الإنسان يظل فيها مجرد عنصر «طبيعي» صالح هو أيضا للاستغلال. وكان من الحتم أن تفرز هذه المدنية، التي أقيمت أركانها على الماديات، في مرحلة معينة من مراحل تطورها، مشكلات جديدة من شأنها أن تعدل من نظرة الساسة والمفكرين والعلماء إلى الحياة وتجعلهم بالتالي يولون عناية أكبر بالإنسان مجتمعا ثم فردا. والجغرافيا كغيرها من علوم الإنسان لم تتعطل عن الركب بل ركبت هي أيضا نفس الموجة وأصبحت، خصوصا بُعَيد انتهاء الحرب العالمية الثانية، تجعل من المسألة الاجتماعية أحد مواضيعها المفضلة. إلا أن الإفلاس الذي منيت به التجارب الغربية، شرقا وغربا، على إثر فشل المشروع السياسي ـــ الاجتماعي جعل الاهتمام مع السبعينات يتجه أكثر فأكثر نحو الفرد ويجنح إلى التخلي تدريجيا عن الفلسفات والأيديولوجيات

47 عن الغائية في الجغرافيا، انظر الفقرة 2.4.1 ـــ من الفصل الأول.

التقليدية لفائدة أيديولوجيات «ناعمة» توكل إليها مهمة بناء مشروع «إنسي» لم تتحدد معالمه بعد. فهل نقول إذن أن الحلقة قد اكتملت ولم يبق للجغرافيين إلا إدماج العناصر الثلاثة : الطبيعة والمجتمع والفرد في معادلة واحدة والبحث عن إشكالية[48] جديدة ؟

ج – تعدد التيارات الفكرية

إن المعادلة الثلاثية التي سبقت الإشارة إليها لم يسع الجغرافيون إلى صياغتها رغم ما يدعونه من القدرة على التأليف والتركيب. وعلينا ألا نخلط في هذه النقطة بالذات بين ضرورة وضع مشروع عام للبحث والحاجة إلى التخصص. فالغرضان يتكاملان ولا يتنافيان. وبعبارة أخرى فإن تشتت الموضوع من جانب وتعدد التأثيرات الفلسفية والأيديولوجية من جانب آخر يجعلان من هذا الاستنتاج الأخير أمرا لا مفر منه. ولا شك أن الأيام ستعمل عملها فتغربل الأفكار والنظريات ليصبح الوضع أقل تعقدا مما هو عليه الحال الآن. لكن علينا أن نبادر بعمل إبستمولوجي خاص يسمح برصد كل التيارات ثم يحللها عسى أن نهتدي إلى سبيل التجاوز. أما اليوم فنحن تائهون جميعا في دغيلة لفاء تتداخل فيها المواضيع والمناهج والفلسفات والأيديولوجيات، لكل منا شجرته تخفيه وتخفي عنه الغابة.

2.4 ـ المشروع الجغرافي : طموح مشروع

إن أي مشروع علمي كان لا يمكن تخطيطه في معزل عن بيئته الفكرية ومحيطه المادي. كما أنني لا أتخيل مشروعا جاداً يتخطى المشاريع السابقة في استعلاء دون البحث عما يمكن أن يجد فيها من منافع. فكيف نفيد إذن من ذلكم الميراث الجغرافي الهائل الذي تراكم لأزيد من قرن ونصف، ثم كيف نستثمره على الوجه الصحيح ؟ إن الجغرافيين لم يعتادوا طرح مثل هذه التساؤلات. فهم إما مقلد قانع أو مجدد مغالٍ. وما دمنا لم نقم بتقويم إبستمولوجي شامل فلا يسعنا إلا التأني في الرد على هذه التساؤلات. ومع ذلك فلا مانع من فتح باب الاجتهاد على مصراعيه لكل مجتهد وصاحب رأي شريطة أن يكون ذا تجربة واطلاع على تاريخ المادة.

48

كلمة إشكالية مصدر صناعي وترجمة للكلمة الفرنسية Problématique وهي كلمة غالبا ما يساء استعمالها فيخلط بينها وبين «مشكلة» (Problème) والاشكالية «هي منظومة من العلاقات التي تنتجها داخل فكر معين مشاكل عديدة مترابطة لا تتوفر إمكانات حلها منفردة ولا تقبل الحل من الناحية النظرية إلا في إطار عام يشملها جميعا، وبعبارة أخرى إن الإشكالية هي النظرية التي لم تتوفر إمكانية صياغتها، فهي توتر ونزوع نحو النظرية، أي نحو الاستقراء الفكري» محمد عابد الجابري، **نحن والتراث، قراءة معاصرة من تراثنا الفلسفي**، دار الطليعة، بيروت، الطبقة الأولى، ص 29.

لعل الحقبة الراهنة التي تعيشها العلوم الإنسانية عموما والجغرافيا خاصة، وهي جميعا تتساءل عن نفسها، تمثل مرحلة بالغة الأهمية يمكن أن تصبح نقطة تحول حاسمة وانطلاقة جديدة للبحث. والمشروع الذي يراودني هو مشروع يطمح إلى تأصيل الجغرافيا. وهو ينبني على فرضين مترابطين : الأول مفاده أن الجرافيا لم تحقق ذاتها بعد لا كعلم ولا كتفكير. أما الثاني فيقول إن التأصيل المنشود لا يمكن تحقيقه إلا في مشروع حضاري. ومعنى الفرضين أن أي مشروع جديد في العلوم الإنسانية يبحث بالضرورة في قضية واحدة ذات شقين متلاحمين كالبذرة، أحدهما منهجي صرف والآخر فلسفي.

أ ــ المقومات العلمية الثلاثة للمشروع

هناك في تقديري ثلاثة أشراط لتقوم الجغرافيا كعلم : أن تحدد أولا موضوعها، أن تضبط ثانيا مناهجها، وأن تتساءل ثالثا عن مردوديتها الاجتماعية. لا شك أن هذه العناصر مترابطة فيما بينها، لكن قضية الموضوع تنزل منها منزلة الرأس من الجسد ولذلك لزم البدار إلى مناقشتها أولا. وما بقيت هذه المسألة عالقة أو مبهمة فلن نبلغ الهدف أبداً. فكيف يكون ذلك ونحن لا ندري حتى من أين نبتدىء ؟ فهذه في اعتقادي عقدة المشكلة برمتها. فلو حلت هذه المسألة الصعبة، التي يقوم حولها الآن جدل كبير، لاستطعنا أن نحل تلقائيا مشاكل أخرى كمشكل المنهج الذي ما يزال أغلبية الجغرافيين يخلطون بينه وبين الموضوع. ومن المحتمل أن يعود ذلك الاستعصاء، زيادة على غياب الوعي الإبستمولوجي، إلى تفاعل قضية الموضوع بـ «الفلسفات العفوية»[49] للباحثين التي من شأنها أيضا أن تجعل من الشرط الثالث المتعلق بقابلية تطبيق نتائج البحث الجغرافي ومدى مساهمتها في حل قضايا المجتمع شرطا صعب التحقيق.

ب ــ الوعاء الفلسفي والأيديولوجي : من المشروع السياسي إلى المشروع الحضاري

رغم العِلمويات[50] المتجددة لن يستطيع أي علم من علوم الإنسان أن يحصر موضوعه في صيغة معقولة جامعة. فليس هناك من أصل في أن

49 هذا التعبير لـلُوي ألتوسر وهو ضمن عنوان كتابه
Philosophie et philosophie spontanée des savants, édit. Maspero, pp 90, 100.

50 [illegible] 1 من [illegible]

يستغني العلم، بما لديه من طرق ووسائل، عن عقيدة ميتافيزيقية للوجود الإنساني تكون منطلقا للمشاريع والمقاصد ووعاءاً يحوي الدلالات والقيم. فلو سلمنا بهذا الرأي، أي بوجوب تحديد قبلي للأساس الفلسفي الذي ينبني عليه البحث العلمي، لأصبح لزاما على كل باحث أن يفصح عن عقيدته تلك؛ ثم أن يربط بينها وبين موضوعه كي نعلم من أي باب أتى البيت. وعلى كل حال، فإن العلوم الإنسانية، التي تربت وترعرعت في أحضان مدينة الغرب والتي ما تزال تهيمن على الساحة الفكرية، تغذيها عقائد صريحة وضمنية ليس من الممكن أن تحظى بموافقة الجميع إذ نعتبرها عقائد فاسدة صنعتها أهواء البشر، إما انحرافا عن الحقيقة وإما غروراً. ومعنى ذلك أنه لا يمكن الأخذ بهذه العلوم بجذافيرها كما أسسها الغرب؛ بل من حقنا أن نعيد النظر فيها لنصهرها من جديد ونفرغها في القالب العقيدي الذي نرضاه. أما أن نتمادى في محاكاة الغرب واستيراد بضاعته الفكرية وتبني قضاياه وتقمص مشاكله الخاصة به وأن نمشي وراءه، الحافر على الحافر، وهو لا يدري أين يسير، فهذا ما لا يقره عقل ولا تقبله حتى الفطرة.

إنني لا أستبعد الآن إمكانية بناء مشروع جغرافي بديل ما دمنا نتوفر على عناصره الأساسية من طبيعة ومجتمع وفرد، وما دمنا نشعر بضرورة الإرتقاء من الفلسفة العفوية إلى العقيدة الراسخة. ولعل القارىء يرى إستحالة التفكير في هذا المشروع بالنظر إلى التنافر بين موضوع ما يزال مبهما واختلاف حتمي في العقائد. فهل يعنى ذلك أننا دخلنا من حيث لا نشعر في مأزق فكري لا سبيل للخروج منه ؟ إن الجواب عن هذا السؤال المحير حقا يقتضي في نظري التخلص من الإعتقاد السائد الذي يجعل من العلوم الإنسانية، على غرار العلوم الأخرى، فكراً إنسانياً عاماً تشترك فيه كل المجتمعات على تنوعها واختلافها. وهذه الفكرة التي ترسخت بقوة الهيمنة الثقافية للغرب ووهن المتخلفين تعد من أعتى الأوهام التي ظلت تحرك العلوم الإنسانية إلى أن تعالت أصوات الصحوة الإسلامية مطالبة بمراجعة الموقف و «أسلمة» العلوم انطلاقا من مبدإ إسلامي أصيل مفاده أن إختلاف الرأي لا يفسد للود قضية. فسواء تفهم المعارضون هذا المطلب أم أعرضوا عنه جهلا أو قصدا، فلا مندوحة للجميع من التأمل في

مسألة التوفيق بين المنهجية العلمية والمقومات الروحية (أو الثقافية بالنسبة لغير المسلمين) للأنظمة الاجتماعية، لأن العنصرين معا هما السداة واللحمة التي تنسج بهما العلوم الإنسانية مشروعها.

فإذا كان من غير الممكن إسقاط الفلسفة والأيديولوجيا من المعادلة وإبعادهما عن العلم حتى لا «يشوشان» عليه كما يعتقد الكثير، فكيف نسوغ المشروع إذن ؟ حتى الآن ليس هناك إلا منوال واحد تنسج عليه كل المشاريع بمختلف ألوانها، وهو منوال السياسة. وبعبارة أخرى فإننا لا نتوفر حتى الساعة إلا على النمط الذي صنعه تاريخ الغرب، هذا الغرب الذي جعلته الكنيسة بعقيدتها المنحرفة يستبدل العلم بالدين ويرفع راية العلمانية، التي كيفما كانت صبغتها لا يمكن أن تطرح وتعالج مشاكل الوجود الإنساني إلا في نطاق مشروع سياسي، وإن كانت الماركسية في الحقيقة هي وحدها التي تفصح عن هذا ا لمشروع. فهذا أقصى ما يمكن أن يبلغه الفكر الغربي الذي سيظل كالثعبان الذي يعض ذنبه ويفتش عن بدائل في رقعة أيديولوجية لا تزيد مع الأيام إلا انكماشا وبهَتاً.

إن انهيار الفلسفات وفشل الأيديولوجيات في عالم اليوم لا يعنى أبدا وجوب التخلي عن المشروع السياسي الذي لابد أن يدعم العلوم الإنسانية، بل يعنى فقط أن المشروع العلماني الذي أفرزته المدنية المعاصرة مشروع قاصر لا يستطيع تلبية جميع الحاجيات المادية والروحية للإنسان فردا وجماعة، ولا يعطى بالتالي للعلوم الإنسانية بعدها الحقيقي وشحنتها البشرية الكاملة، أي ما يجعل منها علوما فعالة. بعبارة أخرى فإن النمط الفكري الذي يهيمن على الساحة هو قلب للآية واختلال في الموازين صارت معه السياسة — بعد أن أصبحت وسيلة وغاية في نفس الوقت — هي التي تقود «الحضارة» عوض أن يكون العكس. ولا أعتقد أن إعادة الترتيب ستكون وحدها كافية ما لم ترق المدنية المادية إلى حضارة شاملة تصبح فيها السياسة خادمة لا مخدومة، أي منظومة فكرية تعطي لكل ذي حق حقه، من علم وعقل ومادة وروح؛ والمعيارية الإسلامية، التي تؤمن بالغيب وتأخذ بالأسباب، هي وحدها القادرة على ذلك.

وهكذا فإن مشروع العلوم الإنسانية كما أتصوره من خلال رؤية

إسلامية، والله أعلم، ينحصر في مثلث رحب قمته الأولى عقيدة التوحيد والثانية مقاصد الشريعة والثالثة المصالح المرسحلة[51] التي هي بالذات الموضع الطبيعي للفكر السياسي وباب الاجتهاد، متى توفرت الشروط اللازمة. فوضعي للمسألة في هذا الموقع سيجعلني أدقق المشروع أكثر، وربما يقودنا ذلك بالتدريج إلى موضوع العلوم الإنسانية. وهو الموضوع الذي لن يخرج على أية حالة في تقديري عن قضية **الاستخلاف** التي هي سر وجود الإنسان. ومع ذلك فإنني لا أريد الخوض في مسألة الموضوع الآن وذلك لسببين على الأقل : أولا لأنه ليس من المؤكد، لو سلمنا بهذا الطرح، أن تكون كل تلك العلوم صالحة للبقاء، كما أنه ليس من المحتمل أن تظهر الحاجة إلى تهذيب بعضها وربما إلى ابتكار علوم جديدة، وبالتالي أن نصنف العلوم تصنيفا جديدا قد يخالف ما جاءت به الإبستمولوجيا المعاصرة؛ ثانيا : لأن تحديد الموضوع الشامل يحتاج إلى نقاش معمق تغذيه التخصصات، وهذا لا يتوفر الآن كما هو معلوم.

لكن هذا لا يمنع، إنطلاقا من قناعتي بصلاحية الجغرافيا كعلم يستطيع المساهمة في خدمة قضية الإستخلاف من تدقيق المشروع الجغرافي وحصره بالضبط في **مسؤولية عمارة الأرض.** فإذا كانت العلوم التجريبية تنكب على اكتشاف قوانين المادة والأجسام ومعرفة طبيعة المسخرات والإستزاد من الأرزاق بغية تلبية حاجيات الجنس البشري واستمرار الحياة، فإن المصلحة تقتضي إيجاد صنفين مكملين ومتكاملين من العلوم الإنسانية : صنف يهتم بتنظيم العلاقة بين الإنسان المستخلَف والأرض المستخلف فيها، عن طريق التشريع والتخطيط، وصنف يضطلع بدور المتابعة ومهمة المراقبة والتقويم استناداً إلى المعيارية الإسلامية والقاعدة الشرعية التي تجعل درء المفاسد مقدم على جلب المصالح. فإلى هذا الصنف الأخير بالذات تنتمي الجغرافيا.

ولعل القارىء يستخلص من هذا أنه ليس بالامكان معالجة قضايا علم من العلوم أو تخصص بعينه دون وضعهما في محيطهما الطبيعي لأن العلوم كالبنيات يجب أن يشد بعضه بعضا، أي أنه من العبث مزاولة البحث ــ خاصة في الميدان الإنساني ــ في غياب تصور علمي متكامل.

---

51 ستكون لنا بحول الله عودة مفصلة لهذه المواضيع في الجزء الثاني من الدراسة. ولكن لا بأس بالمناسبة أن نشير إلى بعض المؤلفات التي تجعل القارىء يستأنس بهذه المفاهيم «الطارئة» على الفكر الجغرافي المعاصر :

ــ أبو اسحاق الشاطبي، **الاعتصام**، مكتبة الرياض الحديثة.

ــ محمد سعيد رمضان البوطي، **ضوابط المصلحة في الشريعة الإسلامية**، مؤسسة الرسالة، بيروت.

ــ حسين حامد، **نظرية المصلحة في الفقه الإسلامي**.

ــ أحمد الريسوني، نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي، المعهد العالمي للفكر الإسلامية، توزيع المكتبة السلفية، الطبعة الأولى 1411 ــ 1990.

وفي نظري فإن التصور الإسلامي هو وحده الكفيل بصيغة هذا المشروع الذي تتساند فيه التخصصات ولا تتعاند وتعمل في انسجام وفق مشروع حضاري يخدم البشرية جمعاء.

فلا غرابة إذن أن تصبح الجغرافيا في النسق الفكري الإسلامي مطلبا شرعيا.

التأسيس والطموحات العلموية

1. التأسيس والطموحات العِلموية[1]

1
المذهب الذي «يقدر الاكتفاء بالعلم من حيث قدرته على الذهاب إلى المسائل القصوى الدائرة على المعرفة البشرية» بدوي (أحمد زكي)، **معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية**، انجليزي — فرنسي — عربي، بيروت مكتبة لبنان، 1978، ص 368.

ظلت الجغرافيا، إلى غاية منتهى القرن الثامن عشر، تهتم بموضوعين رئيسيين متكاملين، وإن كانا مختلفين. فهي من جهة كانت تسعى إلى ضبط المواقع وتمثيل الكرة الأرضية؛ ومن جهة أخرى كانت تُعنى بوصف السطح بحراً وبرّاً، شعوباً وقبائل.

- **الخريطة : ضبط الأبعاد المكانية**

إذا كانت قضية تمثيل الأرض مسألة حيوية عَرضت للإنسان منذ فجر التاريخ فهي ستبقى مطروحة ردَحاً من الزمن على الرغم من الجهود المضنية التي بذلت لحلها، وذلك حتى الثلث الأخير من القرن الثامن عشر بعد أن صمَّم الساعاتي الانجليزي **جون هَرِّسَن*** سنة 1765 مؤقتة بحرية تساعد على تحديد الطول. أما بالنسبة لقضية العرض فقد بدأ التغلب عليها مبكراً، ربما قبل الإغريق؛ بحيث ما فتئت النتائج تتحسن تدريجيا عن طريق قياس الزوايا.

* John Harrisson

لكن التفدين، كطريقة مسح تعيِّن الارتفاع النسبي لمختلف أجزاء الأرض ومواقعها، استعانة بحساب المثلثات، من شأنها أن تخطو بالموضوع خطوة هائلة، خاصة بعد ما أمكن تعميمه على تراب دولة بأكملها كما حدث في فرنسا على يد أسرة **كَسِّني** الشهيرة. فإذا كان الجدّ الأكبر لهذه الأسرة **جان دُمِنيك كَسّني*** فلكياً معروفاً اقترن إسمه بمَرقب باريس الذي أنشأه، فآبنه **جاك*** اهتم بالمسبح وهو أبو **سِزارْ فَرنْسوا كسّيني دي توري*** الذي يرجع إليه الفضل في وضع خريطة لفرنسا من مقياس 1/ 86000، والمعروفة بآسمه. وهذا عمل جليل عكف على متابعته

* Jean Dominique Cassini 1625--1712

* Jacques Cassini 1677-1756

* Cesar François Cassini de Thury 1714-1784

وتطويره وتحسينه ابنه **دُمنيك دوق كسّيني***، الذي ساهم أيضـاً مساهمة فعالة في رسم الخريـطة الإدارية للبـلاد.

وهكذا في نهاية القرن الثامن عشر لم تعد مسألة الإحداثيات وتحديد المواقع واردة بالمرة، بل أصبحت مجرد إجراء تقني يقوم به متخصصون في المسـح ووضع الخرائط، بمعزل عن الجغرافيين الذين سيضطلعون بمهام علمية أخرى.

• الـوصـف : الوظيفـة الإخبـاريـة

إن اطلاع الشعوب على أحوال بعضها البعـض وأخبارها لا يقل قدراً وأهميـة عن مسألة تحديد المواقع وضبـط المسافات وتدقيـق المساحات، لذا عرف القدماء الرحلة وهي فنّ طَوَّره العرب ثم الأوروبيـون بعدهـم، خاصـة خلال عصر النهضـة في أعقـاب رحلـة **ماركو بولو*** المثيـرة التي دونها في «كتاب العجائب»، وهو مرجع نفيـس يمكن اعتباره دائرة معارف جغرافية حقيقية. وهكـذا شغِف الناس بهذه الرحلات أيّما شغف، لكن دون أن يرقى هذا الفــن إلى مراتب العلـم.

غير أن الجمعية اليسوعية تنبهت إلى قيمة المراسلات التي كانت تتلاقاها من البعثات التنصيرية العاملة في القارات البعيدة، وفطِنت إلى ما يمكن أن تفيده منها لتطـوير برامجها التعليمية والتثقيفية والتربوية. وهذا ما جعل التعاليم القديمة الأرسطوطاليسية تحتجب شيئاً فشيئاً[2].

لكن الأمر سيذهب أبعد من هذا في ألمانيا بحيث أخذ «**برْنارْ فرنيـوس**»* يعمل لمشروع في الجغرافيا العامة ويضع وصفـاً منظمـاً لبلدان العـالم. وكنموذج لهذا العمل جمع فرِنْيوس كل ما له صلة باليابان إلا أن هذا الانجاز لم يحفز غيره من الباحثين فباتت التجربة يتيمة.

إن فنّ الرحلة الذي ظل شائعاً إلى أواخر القرن الثامن عشر لا يفي بالمتطلبـات العلمية للجغـرافيا. فالرحلة تفيـض في الحديث عن العادات والتقاليد مع شـيء من المبالغة أو التشويه، ناهيك عن عـدم اهتمامها بالأرض ونباتها ووحيشـها، إلا ما تذر[3]. وربما يعـود هذا القصور إلى سببيـــن اثنيــن : أولهما اختلاف الأجناس وألسنتـهم وطبائعهم، وثانيهما افتقار اللغـة إلى

---

* Dominique Comte de Cassini 1748-1845

* Marco Polo 1254-1324

* Bernard Varenius

2

العالم عند أرسطو «قسمان كبيران متفاوتان مقدار وكالا : ما فوق فلك القمر، وما تحته. ومن رأيه أيضا أن العالم متناهٍ لأنه جسم، والجسم يحده سطح بالضرورة. كذلك يعتقد «أرسطو» أن العالم كروي الشكل، لأن الدائرة أكمل الأشكال ولأنها أيضا الشكل الوحيد الذي يمكن معه للمجموع أن يتحرك حركة أزلية أبدية، ومن غير خلاء خارجه. كذلك فإن الحركة الدائرية هي وحدها التي يمكن أن تكون واحدة متصلة لا متناهية، إذ أن الحركة اللامتناهية لا تتم على خط مستقيم، ولا على خط منحن مفتوح لأن لكل منهما طرفين يحدان الحركة».

«ومن رأي ’أرسطو» أيضا أن دوام الأجرام السماوية، ودوام حركتها دليل على أن مادتها تختلف عن مادة الأجسام الأرضية المتغيرة تغيرا متصلا. ويرى أن مادتها هي الأثير» [...].

ويرى «أرسطو» كذلك أن الكواكب كلها ثابتة لا تتحرك حتى على نفسها، إنما الذي يدور هو الفلك الحامل للكوكب. ولما كانت حركة الأفلاك سريعة جدا فإنها تسخن بالحرارة وتصير مضيئة. على أن الفلك المحيط أو السماء الأولى هو المتحرك الأول عن المحرك الأول، وهو «غلاف العالم» مواز لخط الاستواء، باق دائما على مسافة واحدة من الأرض. وهو دائم الدوران إذ يدور من المشرق إلى المغرب فوق الأرض، ومن المغرب إلى المشرق تحتها في كل يوم وليلـة دورة واحـدة [...]

المصطلحات العلميـة القادرة على وصف المظاهر وصفاً دقيقاً. فإذا كانت الرحلة، على عـلاتها، هي المدخل الطبيعي للجغرافيا، فإن تطور العلـوم الطبيعية عامة، وقيـام الصِّـنافـة[4] خاصة بعد سنة 1760، هما اللذان ينبئان بمولدها الحقيقي.

1ـ اللبـنـات الأولـى

1.1 ـ محيــط علـمي منــشــط

تميـزت العقود الأخيرة من القرن الثامن عشر بمكتسبات علمية حاسمة كان لها أطيب الأثـر في تطوير الجغرافيا. فها هو ذا **كَرْل فُن لِنّي***، عالم الطبيعيات السويدي، يقدم تصنيفاً للنباتات اعتماداً على عدد أسديتها وموضعها؛ ثم يثنيه بدراسة شبيـهـة للمملكـة الحيوانية. هذا في الوقت الذي أخذت فيه الجيولوجيا تـخطو أولى خطواتها إذ أمكـن التمييز بين الصخور الرسوبية والصخور النارية. وما المساجلات بين الجيولوجيين آنذاك إلا دليل على الاهتمـام الكبير والمتزايد بدارسة القشرة الأرضيـة.

لكن على عكس الظواهر الطبيعية التي أصبحت تعالج بأسلوب علمي صرف، فإن الجوانب البشرية ـ اللهم ما كان من دراسة الآثار التي كانت تستعير اصطلاحات الهندسة المعمارية ـ ما تزال تفتـقد اللغة الدقيقـة والطريقة السليمة. ولن تتحـسن هذه الأوضـاع إلا في أواخر القرن التاسع عشر مع انطـلاق البحث في ميدان التراث والتنقيب في التقاليد والفنـون الشعبية. غير أنـه لابد من الاشـارة إلى دور الفِزيُقراطيّيـن[5] الذيـن تحمسوا للاكتشافات العلميـة التي أخذت تتحـقق، فساهموا مساهمة فعالة في تطـوير واستعـمال المصطلحـات التقنية الخاصة بالنشـاط الفلاحي كالتناوب الزراعي وظاهرة السياج وتنـظيـم الدَّبر... ففي هذا السياق بالذات ظهر الاهتمام بحركات الانتجاع الجبلي منذ أوائل القرن التاسع عشر، خاصة في فرنسا[6].

وهكذا عند نهاية القـرن الثامن عشر، وخـلال خمسين عاماً، يتحـقق الشرط الأول لمولد الجغرافيا العصرية، إذ توفـرت أدوات تدقـيق

ويعتقـد «أرسطـو» أيضاً أن الفلك المحيـط هو علة دوران الشمس حول الأرض. وبناء على ذلك فهو علة تعاقب الليـل والنهار، وعلة الظواهر الحيوية المتصلة بهذا التعاقب على وجه الأرض، وهو علة حركتها السنـوية على فلك البروج، وعلة ما ينشأ عن هذا التعاقب من كون وفساد بحسب اقتراب الشمس من الأرض وابتعادها، فإن ميل فلك البروج سبب الاختلاف في تولد الحرارة والضوء على فصول السنة في مختلف مناطق الأرض [...] شريف (شريف محمد)، **تطور الفكر الجغرافي**، القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية، 1969، جـ 1، ص 178 ـ 180.

*** Carl Von Linné 1707-1778**

3

كما هو الشأن مثلا بالنسبة للرحلة التي قام بها البحار الفرنسي المشهور لُوي أَنْطوان دِبُجَنْفيـــــل (Louis-Antoine de Bougainville). فهـو في معرض حديثه عن إحدى جزر أرخبيل سليـمان (Iles Salomon) نجده عاجزاً عن إبراز معالم الجزيـرة من جبال ومناخ وساكنة... إذ تخونه اللغة للتعبير عن تنوع مناخها وعجيب نباتها، وغرائب ناسها. ر : **Bougainville (Louis-Antoine de), Voyage autour du monde par la frégate La Boudeuse et par la flûte L'Etoile,** suivi du **supplément de Diderot,** Paris, 1771-1774, Réédition récente : Paris, 10-18-1966

4

الصنافة علم تصنيف الكائنات الحية (Systématique, taxonomie)

5

هم اتباع المذهب الفزيوقراطي «وهو

المعرفة الجغرافية : جزء منها يتعلق بوضع الخرائط، وجزء آخر يهم المصطلحات وبعض المفاهيم العلمية التي تعددت في شتى مناحي المعرفة كالاقتصاد حيث تألقت أسماء لامعة **كآدم سمث***[7] و **طومَس مالثُس***[8] و **ليونَرْد سِسْمُنْدي***[9]؛ وعلم النبات بفضل المساهمة القيمة **لألِكْسَندرفُنْ هَمْبُلت***[10]، **وأُجسْتان برام دي كَندول***[11]؛ وعلم الزراعة حيث برز **أرْثُر يَنْج***[12]. ومن المعلوم أن هذه الطفرة العلمية التي تلاقحت فيها الأفكار مهدت السبيل لبناء نظريات كبرى من شأنها أن توجه البحث العلمي في كل الميادين كنظرية التطور لـ**شارل داروِن*** مثلا.

غير أن هذه الأدوات المتنوعة التي أبدعتها علوم مختلفة غير خليقة بخلق الجغرافيا كفكر متميز، مادام مفهوم التوزيع المكاني للظواهر الطبيعية والبشرية غائباً. فبينما لا تشكل تلك الأدوات سوى تربة خصبة، يمثل هذا المفهوم، مفهوم التوزيع، الأصيل البذرة الحقيقية التي تنبت شجرة الجغرافيا. والآن وقد توفرت التربة، فأين البذرة ؟ وبعبارة أخرى هل هناك في هذه الحقبة التاريخية ما يبرر قيام الجغرافيا ويساعد على ازدهارها ؟

1.2 ـ الحدث السياسي هل يفرز البذرة ؟

إن أوروبا التي أخذت، منذ نهاية القرن السابع عشر، تسير سيراً حثيثاً نحو التقدم العلمي والتفوق الصناعي كان ولا بد أن تعيد النظر، وفي المقام الأول، في هياكلها السياسية لتشرع في حركات إصلاحية من شأنها، بصفة مباشرة أو غير مباشرة، أن تزيد في أهمية التراب الوطني. فهل يساعد هذا المناخ العام على خلق الجغرافيا ؟

مما لا شك فيه أن أوساط«المستنيرين» ومحافل المثقفين آنذاك كانت لها اهتمامات كبرى بميادين السياسة والاقتصاد والمجتمع؛ وهي اهتمامات قمينة، بطرحها للمشاكل، وسعيها الدؤوب لتصور الحلول، أن تهتدي، بشكل أو آخر، إلى التصور الجغرافي الذي يربط الحدث بالمكان ربط تفاعل وليس مجرد تقابل عرَضي أو علاقة سببية. لكن هيهات هيهات لما نزال نطلبه حتى يومنا هذا ! فكيف يتأتى هذا والشروط الأساسية لم تتوفر كلها بعد ! ألم يكن جديراً بهؤلاء، في المقام الأول، ضبط المعرفة

فريق من الاقتصاديين الفرنسيين في القرن الثامن عشر. وكانوا أول [في أوروبا] من بحث في الظواهر الاجتماعية واعتنقوا بعض الآراء حول القوانين الطبيعية التي تحكم الظواهر الاقتصادية وطبيعة النقود، وضرورة حرية التجارة. ولكنهم توصلوا إلى بعض النتائج الخاطئة عن طبيعة الثروة وتوزيعها، إذ اعتقدوا أن الأرض هي المصدر الوحيد للثروة لأنها هي وحدها التي تنتج فائضاً

*** Charles Darwin 1809-1882**

صافيا. وهذا الفائض هو وحده الذي يخضع للضرائب، أما الصناع فهم فئة غير منتجة إذ أنها لا تنتج الثروة، ولكنها تحور في شكلها». بدوي أحمد زكي) **معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية**، سابق، ص 315.

6

Broc (Numa), **Les montanges vues par les géographes et les naturalistes français au XVIII^e siècle,** Paris, Bibliothéque nationale, 1969.

7

*** Adam Smith 1723-1790**

اقتصادي، اسكتلندي الأصل، مؤلِّف كتاب «أبحاث حول الطبيعة وأسباب ثراء الأمم» (1776)

8

*** Thomas Malthus 1766-1834**

اقتصادي انجليزي، صاحب الرسالة المشهورة حول التناسل والساكنة (1798).

9

*** Leonard Sismonde de Sismondi 1773-1834**

مؤرخ واقتصادي سويسري. وهو يعتبر من أكبر منظري الاشتراكية. من أشهر مؤلفاته : «المبادىء الجديدة للاقتصاد السياسي» (1819).

وتدوينها ؟ هذا ما حدث بالفعل، إذا أخذت المراجع تتعدد، وهي مراجع متخصصة يغلب عليها طابع تقني. صحيح أن بعض هذه المؤلفات ينطوي على إشارات جغرافية[13]، لكنها إشارات أقرب إلى التلميح منها إلى التحليل أو حتى مجرد الوصف المنظم.

إن الظروف التي كانت تعيشها أوروبا في هذه الحقبة الحُبلى بالأحداث الخطيرة من جهة، ورغبتها الأكيدة في تقوية بِنائها السياسي من جهة أخرى، جعلت الدول العصرية تهتم أكثر فأكثر بتقدير مواردها وتعزيز مكتسباتها. كما أنه لابد من معرفة عدد السكان وأهمية اليد العاملة حتى تُعد القوة الدفاعية (أو الهجومية) ويتوفر القوت للجميع. وهكذا برز اهتمام بالغ بالجوانب الاقتصادية، جعل الباحثين يهتمون بالانتاج الزراعي والموارد المعدنية وطرق المواصلات والموانىء. وتولد عن تزاوج الاعتبار السياسي والضرورة الاقتصادية صنف خاص من الدراسات، يعتمد على الوصف ويستعمل الأرقام لمعرفة طاقات الدولة وتحديد مواطن القوة والضعف فيها[14]. وهو ما عرف بالـ«إحصاء» بفرنسا[15].

إذا أصبح استعمال هذه «الإحصاءات» أمراً شائعاً في جل دول أوروبا، فإن استعماله في الأنظمة السياسية المستبدة عامة، والامارات الألمانية خاصة، صار أداة لا يمكن الاستغناء عنها لتزويد بيت المال من جهة، وتجهيز العساكر من جهة أخرى. ثم ها هو **بونابرت** يطلب، بمجرد تعيينه قنصلاً ممتازاً، من كل ولاة المقاطعات الفرنسية إيفاده بكشف شامل لمقاطعاتهم بغية إعادة تنظيم البلاد. وهكذا يتأصل في فرنسا تقليد محمود، توفرت بفضله حوليات غنية وإحصائيات مفصلة كانت النواة لما سيسمى فيما بعد بالجغرافيا الإقتصادية. غير أن هذه «الإحصائيات»، بسبب استعمالاتها الادارية، وغايتها النفعية والعملية، لم تحظ باهتمام الباحثين الأكاديميين المنهمكين في قضايا «الفكر والسياسة».

وبجانب هذه الاهتمامات الاقتصادية التي فرضها الوضع السياسي العام بأوروبا، هناك حاجة أكيدة لإحكام التقسيم الاداري للتراب كما هو الحال بالذات في فرنسا حيث يرجع التقسيم الموروث إلى الإصلاح الذي قام الامبراطور الروماني **ديوكليسيان*** في القرن الثالث الميلادي ! فهذا

10

* **Alexandre Von Humboldt 1769-1859**

رحالة وباحث ساهم في تطوير علم المناخ والجيولوجيا والجغرافيا الحيوية وجغرافيا المحيطات. وهو كما سنرى أحد المؤسسين لعلم الجغرافيا.

11

* **Angustin Pyrame de Condole 1778-1841.**

عالم نباتي ولد بجنيف.

12

* **Arthur Young 1741-1820**

عالم زراعي أنجليزي، صاحب «رحلة إلى فرنسا» المشهورة (1792).

13

Broc (Numa), **La géographie de la Renaissance (1420-1620),** Paris, Bibliothéque nationale, 1980; ld, **La géographie des philosophes. Géographes et voyageurs français au XVIII^{e} siècle,** Paris, Orphys, 1974; ld, **Peut-on parler d'une géographie humaine au XVIII^{e} siècle,** Annales de Géographie, Vol. 78, 1969 p. 57-76.

14

من المعلوم أن شعوباً قديمة قد عرفت مثل هذا كمصر بإمرة نبي الله يوسف عليه السلام.

15

Dockès (Pierre), **L'espace dans La pensée économique du XVI^{e} au XVII^{e} siècle,** Paris, Flammarion, 1969; Lazarsfeld (Paul), **Notes sur l'histoire de la quantification en sciences sociales, La période**

* **Dioclétien**

التقسيم، علاوة على ما فيه من جَور الأمراء، وعَسْف النبلاء، واضطهاد الكنيسة، الأمر الذي ألهب أقلام فلاسفة الأنوار نقـداً، تقسيم يعاكس قيام دولـة عصرية، مركزية، قوية، قادرة على الصمود والثبـات في محيـط سياسي هائج مائج. ولإضفاء طابع الحياد على سياسـة الإصلاح، رسمت الخريطـة الادارية الجديدة اعتماداً على «الخريطة الطبيعية» للبلاد بمراعاة التضاريس والمـناخ والأنهار. أما في ألمانيا، حيث نجد تشابها في القضايا، فإن حركة الإصلاح على اتصال مستمر بالأوساط الأكاديمية، الأمـر الذي يدعو إلى الاعتقاد بأن هذا التقارب هو الذي ربما مهد الطريق للجغرافيا، وإن ظلت هذه الأخيـرة محتجـبة.

فإذا كان الحدث السياسي، في تفاعله مع الوضع الاقتصادي المشحون بحركية اجتماعية كامنة، قـد استطـاع في بعض الحالات، كما هو الشأن في ألمانيا، أن يـفرز البذرة، فهو لم يقدر على ذلك في حالات أخرى كما فـي انجلتـرا مثـلا، رغم الاهتمام الكبير بشـؤون الفلاحة، بدافع من الحروب الطاحنة مع **نابـليـون**، ورغم قيام باحثيـن مرموقيـن في هذا الميدان بدراسات شاملـة لعدة أقاليم، وتقديم اقتراحات عملية بشـأنها كما فعـل أرثـرْ يَـنْـچ و **وِلْيَم مَـرشَـل***.

إن هذا العرض الوجيز للحالات الثلاث يوحي بتخمين أساسي يجعل قيام الجغرافيا ليس رهينا بتوفر الشروط التقنية (ضبط المكان) وتفاعل السياسة والاقتصاد والمجتمع (حركات الإصلاح) فحسب، بل لابد كذلك من حـركة فكرية، أو قـل فلسفة تطرح قضايا الإنسان في بُعدها المكاني. فهل يحقـق عصر الأنوار هذا الرجاء ؟

3 . 1 ــ زمـان الأنوار، غياب المكان

إذا كان المحيط العلمي من جهة، وضرورة إصلاح المجتمع من جهة ثانية لم يكفيان لبنـاء الجغرافيا العصرية فالسبب في ذلك راجع، بالأساس، إلـى تساؤلات الفلاسفة. وهي تساؤلات سبق طرح أغلبها في بداية القرن الثامن عشر، باستثناء ألمانيا. إن العقلانية[16] التي هي إحدى السمات الأساسية لـ«عصر الأنوار»، إن لم نقل سمتها الكبرى، واجهت في بدايتها

préparatoire, in Paul Lazarsfeld, **Philosophie des sciences sociales,** Paris, Gallimard, 1970.

* **William Marshall**

16 «العقلانية هي القول بأهمية العـقل، وتـطلق على عدة معان». ويهمنا منها هنا «الايمان بالعقل، وبقدرته على إدراك الحقيقة. وسبب ذلك في نـظر العقلانييـن أو قوانيـن العقل مطابقة لقوانين الأشيـاء الخارجية، وأن كل موجود معقول، وكل معقـول موجود» [...] ولهذا فإن «العقل قادر على الإحاطة بكل شيء، دون عون خارجي يأتيه من القلب أو العزيزة أو الديـن.» صليبا (جميـل)، **المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية والفرنسية والانكليزية واللاتينية**، بيروت، دار الكتاب اللبناني، الطبعة الأولى، 1973، المجلد الثاني، ص 90.

مشكلة استعصت عليها كثيراً. وهي مسألة تفاوت الحضارات : فلماذا استطاعت أمم أن ترقى إلى أعلى درجات المدنية، بينما ظلت أخرى تعيش عيشة الهمج ؟[17] فالجواب العقلاني جاء مطابقاً لنموذج المجتمع والإنسان كما صورهما «**الكوجيتو**»[18]، الذي يقدم الإنسان على المجتمع نظراً لاستقلاليته التي منحه إياها العقلي. وعليه، وباعتبار أن لبني الإنسان كلهم نفس المؤهلات بحكم تساويهم في الرشاد وسلامة العقل، فلا يبقى إذاً إلا البحث عن المعوقات التي حالت دون تطور تلك الشعوب وحولت مسيرتها الطبيعية، أي البحث عن سبب تعطيل العقل. ويعني هذا أن الكوجيتو يضع الإنسان على خط زمني مستقيم، لا حدث فيه؛ داخل سطح متجانس، لا عمق له.

فلا يبقى إذاً إلا مخرج واحد يرد الاختلاف الحاصل إلى الطبيعة التي تتفاعل ظروفها المتنوعة مع مقتضيات العقل فتأتي حتماً بنتائج مختلفة. فهذه «العقلانية اللاتاريخية» تدعو إذاً إلى نوع من التفكير الجغرافي؛ وهو ما سبق إليه **جان بودان*** في أواخر القرن السادس عشر، ثم عرض له **مُنتِسْكِيو*** في كتابه المعروف «روح القوانين»*، وإن كان على وعي تام بما يثيره هذا التأويل الحتمي من مشاكل لأن البلاد كما يقول هو نفسه :

«لا تزرع على قدر خصبها، بل على مقدار حريتها»[19].

إن مسألة التفاوت الحضاري التي شغلت بال الفلاسفة في بداية القرن الثامن عشر، والتي كانت قد اقتربت من الرؤية الجغرافية، حتى لو لم تقدم لها تفسيراً شافياً، لم تُعتبر عند منتصف القرن لغزاً مستغلقاً، إذ عُثر على المفتاح في فكرة التطور كما عبر عنها منظرها **تُرجو***[20]، الذي لا يرى في هذا الاختلاف ما يدعو إلى التضجر أو الاستنكار ماذامت القضية في رأيه ترجع بكل بساطة إلى درجة التقدم والتطور الذي حققه كل مجتمع[21]. فهو إذن يخالف مونتسكيو الذي يرى، انطلاقا من حرصه الشديد على فكرة الحرية، أن لكل مجتمع منطقاً خاصاً وواقعاً معيناً ينجم عنهما حتماً وضع خاص. وهكذا نجد **كُندُرسي***[22] ومعاصريه يستغنون تماماً عن الجغرافيا في فهم تنوع الدنيا، غير أنهم يعيدون الاعتبار، عند تحليل

17

إن مسألة التفاوت الحضاري قضية شغلت كثيراً من المفكرين من قبل مثل **مُنطِني** (**Montaigne** 1592 — 1533)و **پسكال** (1662 — **Pascal** 1623).

18

«كوجيتو لفظ لاتيني معناه «**أفكر**» يشار به إلى قول «**ديكارت**»، أنا أفكر، وإذن أنا موجود (**Cogito ergo sum**). ومعنى هذا القول إثبات وجود النفس من حيث موجود مفكر، والاستدلال على وجودها بفعلها الذي هو المفكر. وليس ديكارت أول من استدل على وجود النفس بالفكر، فقد سبقه إلى ذلك القديس «أوغسطين» و «ابن سيناء». صليبا (د. جميل)، المعجم الفلسفي، مرجع سابق، الجزء الثاني، ص 249.

*** Jean Bodin**
*** Moutesquieu 1689-1755**
*** L'esprit des lois 1748**

19

Broc (Numa) **La géographie des philosophes,** op cit.

20

*** Anne Robert Turgot 1727-1781**

العالم الاقتصادي الفرنسي ومراقب المالية الذي اشتهر بإصلاحاته في فرنسا على عهد الملك «لويس XVI».

21

Turgot (Anne-Robert), **Tableau philosophique des progrès successifs de l'esprit humain,** Oeuvres de Turgot, t I, Paris. Alcan, 1913.

الأحداث البشرية، لمفهوم نمط العيش، هذا المفهوم الذي ينتظره مستقبل زاهر[23].

وعليه فإن دواعي بناء معرفة جغرافية والحث عليها تخفت وتحتجب مع تطور فلسفة الأنوار والأخذ بفكرة التقدم التي كان يجدر بأنصارها معرفة الأسباب الحقيقية في تعثر الشعوب دون إغفال لدور البيئة. لكن هذه القضية لم تعتبر قضية ملحة، بدليل، كما كان يُعتقد، أن هذه الشعوب لا مندوحة لها على كل حال، من اجتياز نفس المراحل، فالاهتمام بالتطلعات والمستقبل أهم وأوكد.

وهكذا نفهم المفارقة العجيبة في نشأة الجغرافيا خارج فرنسا وانجلترا حيث كان يتوقع أن تنشأ بالنظر إلى المناخ العلمي الداعي لها، وبحكم الضرورة الاجتماعية. هذا في الوقت الذي ما يزال فيه الاهتمام بالمجاهل متواصلاً دون فتور، بعيداً كل البعد عن أي محاولة لتحليل المكان تحليلا منظماً.

4.1 ـ لقاح الفلسفة الألمانية

تختلف الأوضاع في ألمانيا اختلافاً كبيراً بالمقارنة مع فرنسا وأنجلترا. فالأمة الألمانية لم تتغلب بعد على المحن التي كابدتها خلال القرن السابع عشر، ولم تمح مخلفات حرب الثلاثين سنة وما ترتب عنها من تقهقر سياسي ودمار اقتصادي وخلل اجتماعي. وهكذا أصبح الأمراء والأرسطقراطية مشدودين إلى فرنسا التي بهرت «أنوارها» أوروبا قاطبة، فها هو ذات الفيلسوف لَيبنتز* يختار الفرنسية كلغة يكتب بها، بينما يفرض «**فريديريك الثاني**»* نفس اللغة فرضاً على أكاديمية العلوم الفتية ببرلين، وهو القرار الذي قوبل باستنكار ومعارضة أغلبية المثقفين الذين أخذوا يهاجمون النخبة «المفرنسة» ويتحاملون بقوة على فلسفة الأنوار التي كانت تروجها تلك النخبة.

22

*** Condorcet 1743-1793**

إحدى الشخصيات البارزة التي خاضت أحداث الثورة الفرنسية. وهو عالم في الرياضيات والفلسفة والاقتصاد.

23

Claval (Paul), Les mythes fondateurs des sciences sociales, Paris, P.U.F, 1980, p. 48.

*** Leibniz 1646-1716**

*** Frederic Guillaume II 1744-1797**

1.4.1 ــ الأب الروحي للجغرافيا العصرية : كَنْط أم هِرْدَر ؟

جرت العادة، تأسياً بـهرتشورن، الجغرافي الأمريكي المعاصر الذائع الصيت، على اعتبار كَنْط، الفيلسوف المعروف (1724 ــ 1804)، المؤسس الحقيقي للجغرافيا العصرية[24]، نظراً لاهتمامه الكبير بالموضوع واعتنائه البالغ بدروس «الجغرافيا الطبيعية» التي كان يلقيها، ذلك أن كَنْط كان يؤكد على ضرورة الرفع من قدر علمي الزمان والمكان باعتبار هذين البعدين مقدمتين من المقدمات الأساسية في عملية إدراك الأشياء وفهمها؛ لأن الأشياء متجاورة في المكان، متسلسلة في الزمان. فإذا كنا نسعى عادة لتصنيف الظواهر لمعرفة درجة انتظامها وكشف قوانينها، فهذا يقتضي استجلاء منطق توزيع هذه الأشياء، مكانا وزماناً؛ سواء كان التوزيع منتظماً أم لا. ولعل من شأن هذا أن يوجه التاريخ والجغرافيا معاً توجيها جديداً يخالف ما هو معمول به في تصنيف العلوم.

فهل تساعد اهتمامات كنط بتباين القشرة الأرضية وتأكيده على التوزيع المكاني للظواهر على انطلاق البحث الجغرافي ؟ هذا ما ذهب إليه هرتشورن كما أسلفنا، غير أنه يبدو من الصعب الأخذ بهذا الرأي دون تحفظ لأن أُلِكسَندر فُنِ هَمْبُلْت و **كارل ريتَر***، المؤسسين الفعليين للجغرافيا، لم يتأثرا فقط بكنط دون غيره من الفلاسفة. ولعل **يوهَن چتْفريد هِردر*** أبرز هؤلاء. صحيح أن هِردر تتلمذ على كنط، لكن لم تكن له نفس المشاغل. فهو وإن أخذ بفكرة التقدم التي ينادي بها فلاسفة الأنوار، كان ينظر إلى القضية من زاوية أخرى، بحيث يرى أن معاينة اختلاف سطح الأرض ليست مجرد ملاحظة تثبت واقعاً معيناً، بل أيضاً وسيلة فعالة تكشف عن أسلوب تحديد الأمم لمصيرها لأن عبقرية كل شعب، على حد قول هِردر تكمن أساساً في قدرته على تسخير البيئة التي يعيش فيها بانيا بذلك حضارة أصيلة. أما مسألة التقدم، وإن كانت أمراً وارداً، فلا يجوز طرحها كما فعل فلاسفة الأنوار لأن البشرية في اعتقاد هردر لا تسير حتما نحو مصير واحد؛ فحركة التاريخ ليست حركة أفراد منسلخين عن محيطهم الاجتماعي والثقافي، بل حركة تنشطها أقوام وشعوب

24 Hartshorne (Richard), **The nature of geography,** Lancaster (Pa), Association of American Georaphers, 1939.

* **Karl Ritter 1779-1858**

* **Johann Gottefried Herder 1744-1803**

لكل منها عبقريته القائمة على إرث معين ولغة موحدة ومصير مشترك تنسجم كلها في وعاء بيئي معين.

إن العلوم الاجتماعية بألمانيا عموما، والجغرافيا مدينة لهذا الفيلسوف بالشيء الكثير. فهو الذي جعلها، من خلال مؤلفين أساسيين[25]، عوض أن تركز فقط على الفرد وحوافزه وقدراته، تشدِّد على السلالات واللغة وما يترتب عنها. وبهذا يكون هردر قد أعدّ للجغرافيا برنامجاً طموحاً للغاية، القصد منه في النهاية فهم تاريخ البشرية.

25 Herder (J.G), **Une autre philosophie de l'histoire,** traduction, notes et introduction de Max Rouché, Paris, Aubier Montaigne, 1962; Id Herder (J.G). **Idées pour la philosophie de l'histoire,** traduction, notes et introduction de Max Rouché, Paris, Aubier Montaigne, 1962.

1 .4 .2 ـ هَمْبُلْت و رِيتَرْ : البحث عن مفاتيح الحضارة

إن شخصية هِرْدَر وأهمية أعماله لا يجب أن تحجب عنا المؤسسين الحقيقيين للجغرافيا كعلم : همبلت و ريتر اللذين لا يجوز اعتبارهما مجرد تلميذين لفيلسوفنا. فلولا أصالة في التفكير وابتكار في طرق الموضوع ما تأسست الجغرافيا العصرية وأرسيت قواعدها.

فـهمبلت هو ذلكم العالم الفذّ، الواسع الثقافة الذي ساهم، بفضل تكوينه العلمي، في تطوير العلوم الطبيعية والفزيائية خلال منعطف القرنين السابع عشر والثامن عشر. فلقد كان على اتصال وثيق بالفزيائي والفلكي الفرنسي المعروف **فرَنْسْوَ أرَجو*** وأخيه **جاك**، الكاتب والرحالة، صاحب «رحلة حول العالم» التي لقيت إقبالًا كبيراً. كما كانت لهمبلت أيضا علاقة بزمرة من الكيميائيين المرموقين. ولما كان طالباً بجامعة **إرْلِنْجِن*** بإقليم «بافاريا» الغربية، تلقى دروساً في مادة «الاقتصاد السياسي» وهي تقابل مادة «الاحصاء» كما في فرنسا وانجلترا. لذا تراه في رحلاته يذكر ذلك ويعمل به. ثم زد على هذا وذاك شغفه الكبير بالتاريخ واعتناءه الخاص بالفلسفة. فهل ننسى أن له أخاً، **فِلْهَلم فن همبلت***يُعدُّ من أقطاب الفلسفة واللغة معاً ؟ وحتى تكتمل صورة هذا الجغرافي الرائد، الموسوعي، الذي بدأ حياته العملية كمفتش للمعادن، فلا بد من الإشارة إلى ميولاته السياسية الإصلاحية، إن لم نقل الثورية.

* **François Arago 1786-1853**

* **Erlangen**

* **Wilhelm Von Humboldt**

وهكذا فإن همبلت، ينتمي قلباً وقالباً إلى «فلاسفة الطبيعة»*، أولئك الذين يستنطقون الكون لفهم البشرية. فهو حينما يعرض لنا صورة

* **Naturphilosopher**

دقيقة ومفصلة لأمريكا الاستوائية[26] فهو يرمي من وراء ذلك استشفاف مصير شعوبها واستقصاء تاريخ حضاراتها المتعاقبة. أما عندما يعرض للكون فهو يحدد فيه فلكاً حرارياً، وهو عبارة عن شريط يبلغ اتساعه 35 درجة تقريباً، يخترق النصف الشمالي للكرة الأرضية على هيئة متموجة بحيث ينتقل محوره شمال وجنوب خط عرض 40 د حسب تغير المناخ بفعل المحيطات. ويرى همبلت في هذا الفلك الحراري الفيصل بين الأمم المتقدمة ناحية الغرب والشعوب الأخرى ناحية الشرق. وهو يقصد من هذا رسم إطار عام للتاريخ يسمح بلمس التفاعلات بين الشعوب وبيئتهم وبالتالي تصور مستقبلهم وفق رؤية «هردرية» حاول توضيحها أكثر في كتابه الشهير «الكون»*، الذي أنجزه في آخر حياته. وهذا المؤلف الذي صدر منه أربعة أجزاء ما بين 1845 و 1858، والذي لم يستطع صاحبه إتمامه، يمكن اعتباره موسوعة جغرافية لا تكتفي بسرد الأحداث وعرضها، بل تسوقها في علاقتها المتنوعة، مع اعتبار خصائص توزيعها، وبهذا يكون همبلت قد أرسى مبدأ من المبادىء الأساسية لعلم الجغرافيا.

إن همبلت الذي كان يقرر بأن المعرفة التجريبية تنبني على المشاهدة للظاهرة التي تكشفها الحواس، بحيث تكون «الجغرافيا علماً تجريبياً أكثر من كونها مستمدة من المناقشات العقلية الفلسفية، أو معتمدة على النظريات المسبقة...»[27] كان أيضاً مهتماً بالعلاقات المكانية ويشعر بضرورة تفسيرها بردها إلى محتواها الاقليمي. ويتجلى المنهج الجغرافي عند همبلت من خلال ما جاء في مقدمة كتابه «الكون» حيث يقول : «إن الهدف الأهم لجميع العلوم الطبيعية هو معرفة الوحدة في محتواها المتباين. أو الوحدة في التباين... إن هدف الفصل المدخلي من الكتاب الاشارة إلى الأسلوب الذي من خلاله تنكشف جميع الظواهر والطاقات كوحدة واحدة لها شخصيتها المميزة، والتي تنبض في داخلها بالحياة...»[28]

وكانت آراء همبلت في الجغرافيا البشرية متأثرة بأحد اتجاهات فلسفة الجمال المأخوذ بعضها عن **جوته*** وعن علماء آخرين مختلفين ممن عاصروه كما ذكرنا، حتى لو أن همبلت اهتم أساساً بالموضوعات الطبيعية

26

Minguet (Charles), **Alexandre de Humboldt, historien et géographe de l'Amérique espagnole,** Paris, Maspero, 1968.

* **Cosmos**

27

Hartshorne (R) **Perspective on the Nature of Geography,** John Murray London, 1960.

عن محمد علي عمر الفرا **اتجاهات الفكر الجغرافي الحديث والمعاصر،** الكويت، نشرة دورية محكّمة تعنى بالبحوث الجغرافية يصدرها قسم الجغرافيا بجامعة الكويت والجمعية الجغرافية الكويتية، العدد 49، يناير 1983، ربيع الأول 1403 هـ، ص 49.

28

Dickinson, R.E, **The Makers of Moderne Geograpy,** Routledge and Kegan Paul, London, 1969

عن المرجع السابق ص 12.

* **Goethe**

بسبب دراساته الميدانية، خاصة في أمريكا المدارية التي بلغ فيها مجاهل يختفي منها الانسان، أي «قلب الطبيعة الجبارة». لكنه مع ذلك يصف في كتاباته الانسان وثقافته وأعماله كجزء من وصفه وشرحه العام للطبيعة.

أما كَارْل رِيتَر فهو لم يكن على نفس الدرجة من المعرفة المتعددة والاطلاع الواسع. فهو صاحب ثقافة «كلاسكية» مشبعة بأفكار بعض علماء التربية السويسريين من تلاميذ رسو*، وعلى رأسهم بستالوزي*، وتعاليم فلاسفة الطبيعة. كما لا يستبعد، كما يعتقد البعض، أن يكون قد تأثر أيضاً بالفيلسوف الألماني شيلنج*، الذي ربما أخذ عنه فكرة الشمولية والوحدة والتوافق*. ومع ذلك فإن اتجاهه العام اتجاه هرديري كما يدل على ذلك جليا كتابه «الجغرافيا العامة المقارنة»، الذي أراده مدخلاً عاماً لدراسة الأوطان والشعوب، وهو طموح تبديه بكل وضوح إحدى فقرات الكتاب المذكور التي جاء فيها ما يلي :

«قد يأتي زمان يسطيع فيه عدد من الدارسين، ممن تحذوهم نفس الرغبة، وتحركهم نفس القوة، أن يدركوا الكون والانسان معاً، وأن يجمعوا شتات التاريخ من أجل نظرة بعيدة، ماضياً ومستقبلاً، فيستطيعون من خلالها التنبؤ بالمراحل التي لا مناص لشعب معين، في موطن معين، أن يقطعها؛ وهي مراحل يجب عليه وعيها وفهمها إن كان يصبو إلى الرفاهية، تلك الرفاهية التي يمنحها القدر بعدل تام لكل شعب تمسك بهويته[29].

«ويعتبر ريتر الجغرافيا بأنها علم الأرض الذي يصف الكرة الأرضية، من حيث أنها مهد الإنسان، وهي كائن صنعت حتى في أدق تفاصيلها لغرض مقدس كي تلائم حاجيات الإنسان، تماما شأنها شأن الجسد الذي خلق ليلائم الروح، ولذلك فإن الأرض صنعت للإنسان، وهذه قمة الفلسفة الغائية»[30]. أما منهجه فكان منهجاً مقارنا يرمي إلى ربط التاريخ بالطبيعة. والجغرافيا المقارنة كما يعرفها هو نفسه هي : «ذلك الفرع من العلوم الذي يتناول الأرض بجميع مظاهرها وظواهرها وروابطها كوحدة مستقلة، وهي تبين ارتباط هذا الكل الموحد مع الانسان ومع خالقه»*[31] وتلك قمة العلم. وقد كانت طريقته، فيما يظهر، متأثرة بآراء بستالوزي. التعليمية التي تتضمن ثلاث مراحل : الأولى هي الحصول على المعلومات،

* Rousseau

* Johann Heinrich Pestalozzi 1746-1827

* Shelling 1775-1854

* Enklang

29 نقلا عن : Claval (Paul), **Geographie humaine et économique contemporaine,** Paris, P.U.G, 1984, p. 26-27.

30 فرا (الـ) محمد علي عمر، **اتجاهات الفكر الجغرافي الحديث والمعاصر**، سابق، ص 13.

* Weltanschaung

31 عينه، ص 13

والثانية هي ربط المعلومات الخاصة بالمكان في كل الأزمنة، والثالثة وضع نظام عام كما هو موجود في الطبيعة؛ وهي المرحلة التي ثبت أن تحقيقها بعيد المنال تماماً، رغم ما حاول أن يقوم به ريتــر.

ومن المبادىء التي يشدد عليها ريتر أن تكون الجغرافيا علماً تجريبيا أكثر مما تكون علماً استدلاليا يعتمد على التصورات العقلية ويستند إلى النظريات المسبقة. فهو يرى أنه على الجغرافي « أن يباشر و ينتقل من ملاحظة إلى أخرى، وليس من رأي أو فرضية ثـم إلى ملاحظـة. ولهذا طالب بالكف عن كل المعالجات الجغرافية النظرية»[32] وهو مـع ذلـك لا ينـفي وجود قوانين تحـكم علاقات الظاهرات البشرية بغيرها من الظاهرات على سطح الأرض، وهـي قوانيـن يمكن الكشف عنها بالتدريج من خلال تجميـع الحقائق وإدراك ما بينها من روابط. لذلك فهو يقـول : «علينا أن نسأل الأرض نفسها عن قوانينــها»[33]

ولا شك أن هذه القناعة هي التي جعلت رِيتَر أول من عارض ما كان يسمى بالجغرافيا النظرية التي كان يصوغها أصحابها داخل المكتبات وبين المراجع، عوض الخـروج إلى الميدان، وملاحظة الظاهرات وهي تنبض بالحياة وتعج بالنشـاط[34]. وهذا لا يعني في رأي رِيتَر أن الجغرافيا هي تجميع للبيانات وتصنيف للحقائق. وفي هذا يقـول : «ليس هدفي مجـرد تجـميع أكبر قـدر من الحقائق وتصنيفها كي أتفـوق بها على من سبقني، ولكننــي أبغي تتبـع القوانين التي تخفي أسرار تباين الطبيعة، ولأبين ارتباطها مع كل حقيـقة تُعالج بشكل منفرد، ولأوضح على مسـرح تاريخي صرف الوحدة الصحيحة، والانسجـام القائم في التباين الواضح، والتقلب الذي يسود الكرة الأرضية، والذي يـظهر مميزاً في العلاقات المتبادلة بين الطبيعة والانسان»[35].

إذا كان هَمبْلت في دراسته المندرجة تحت موضوع الجغرافيا العامة يركز على الجوانب الطبيعية، ويكاد يحـصر نفسه فيها، فإن رِيتَر يميل إلى التحليل الإقليمي الذي كان يبرره بقولـه : « كما أن التسلسل الزمني هو الإطار الذي ترتب فيه الحقائق التاريخية الوفيرة، فإن الجغرافيا لها كذلك إطارها الذي يمثله الإقليم. فكلا المادتين تتعلقان بأنواع مختلفـة من

32 عيـنـه، ص 12

33 عينه، ص 12.

34 «يبدو أن المؤسس الذي حاول أن يوضح الطريق وأن يأمر تلاميذه بالتقدم من مشاهدة إلى مشاهدة لم يكن هو شخصياً كثير المشاهدة، وكان يستخدم عينيه. وعلى أي حال فإنه عاش في وقت كان العلم قد بدأ فيه يجد لنفسه عيونا خاصة به» كـريمَـر، ف. ل F.L. Kramer عن فريمان ت.و **الجغرافيا في مائة عام**، مشروع النشر المشترك، دار الشؤون الثقافية العامة (آفاق عربية) بغداد ــ الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ص 33 [ترجمة عبد العزيز طريح شريف].

إن ريتر مثلا وإن لم ير فلسطين قط كتب عنها الكثير جداً، ويذكر «جويو» أنه علق على ذلك بقوله : «ما هي المعلومات الجديدة التي كان يمكنني أن أحصل عليها من زيارة فلسطين ؟ إنني أعرف كل ركن من أركانها». سابـق، ص 33ـــ34.

35 فرا (الـ) محمد علي عمر. **اتجاهات الفكر الجغرافي الحديث والمعاصر**، سابق، ص 23.

الظاهرات التي يكمل بعضها البعض، ولكن في إطاره الخاص»[36]. غير أن رِيتَر يوظف البحث الإقليمي لطرح القضايا البشرية التي تمثل محور الرحى بالنسبة له.

وربما يكون هذا الفصل بين الجغرافيا العامة أو المقارنة والجغرافيا الاقليمية أو الخاصة هو أصل الازدواجية التي تكرست فيما بعد، فأعطت الجغرافيا الطبيعية والجغرافيا البشرية. وهي الازدواجية التي ما نزال نعاني منها حتى يومنا هذا. وهذه الازدواجية الأولى حاول الجغرافيون التصدي لها والتغلب عليها عن طريق اختيار أحد الاتجاهين.

فرِيتَر الذي لم يولِ إلا قليلا من الاهتمام إلى الجغرافيا العامة، كان يميل كما نعلم إلى الجغرافيا الاقليمية لقناعته «بأن الدراسات العامة التي قام بها من سبقه من الجغرافيين والتي تقوم على الفصل الذاتي للظاهرات الطبيعية المترابطة، وتقسيمها إلى رتب منفصلة ودراستها عالميا وعلى نحو مستقل ومنفصل بمثابة تدمير وتشويه للترابط الواقعي للطبيعة وقد لاحظ بأنه عند دراسة كل نوع من أنواع هذه الظارهات من حيث الشكل والاجراء... يصبح الأمر من اختصاص علوم أخرى أو جزءاً منها وليس ذلك من الجغرافيا في شيء»[37].

ومجمل القول أن تصور الجغرافيا عند رِيتَر يقوم على فكرتين : الأولى تتحدد في الهدف الذي يجعل من البحث تفسيراً للاختلافات المكانية، الطبيعية والبشرية معاً، لسطح الأرض. وهذا يعني أن الدراسة لا تتناول الظاهرات مجزأة ومنعزلة عن بعضها، بل ينظر إليها في ارتباطها مع التوزيعات المكانية الأخرى لترسم التركيب الحاصل فتشرحه ثم تفسره. أما الفكرة الثانية فتهم الانسان باعتباره الموضوع الأسمى للجغرافيا الغائية التي كان يؤومن بها.

أما اهتمامات هَمْبُلت بالجغرافيا العامة فهي، على ما يظهر، ترجع إلى «إيمانه بوحدة الطبيعة»، وهي الوحدة التي تتجلى من خلال التركيب العضوي لجميع ظاهرات سطح الأرض. «والجغرافي لا يدرس الظاهرة منفردة ومستقلة عن غيرها كما تفعل العلوم الأخرى، وإنما يتناولها ككل يتفاعل مع غيره من الظاهرات ويبحثها كأثر ومؤثر، أي سبب ومسبب.

36 فريمان (ت.و) **الجغرافيا في مائة عام**. سابق، ص 31.

37 فرا (الـ) محمد علي عمر. **اتجاهات الفكر الجغرافي الحديث والمعاصر**، سابق، ص 14.

وبذلك يكون هَمبُلت قد أدخل السببيـة في الجغرافيا والتي أنجبت الحتمية فيما بعد»[38].

لابد من الإشارة، ونحن نقارن فكري الرجليـن، إلى أن رِيتَر لم يكن يعارض فكرة وحدة الطبيعة، بل على العكس كان يؤيدها، ويؤمن بترابـط الـظواهر كـما نعلم، لكن ضمن نطاق مكاني معلوم ومقدمات فلسفيـة مخالفـة. فبينما يرى رِيتَر «أن الحياة ما هي إلا تعبير عن غرض إلــهي، كان هَمبُلت يعتقد أن البشرية كلها بغض النظـر عن الدين والقومية واللون عبارة عن جنس واحد كبير تجمعـه روابـط وثيقة، وأنها عبارة عن شـيء كلي واحـد موجود لتحقيـق غرض واحد هو التطور الحرّ للقوى الذاتيـة[39]»، فالأول إذن يمارس جغرافيا غائية بينما ينـزع الثاني إلى جغرافيا وضعية.

ثم إن رِيتَر كان يرى في ربط الظواهر الأصل في خلق مناطق العالم وإبراز شخصيتها وبلورة فرديتها. وهي النظرة التي كانت سببا في إثارة مشكلـة ستعاني منها الجغرافيا أيّما عناء : ألا وهي مسألة التفرد. وعليـه فـ «إن منهج هَمبُلت تحليلي بنائي، أي يركز على تحليـل الروابـط بين مختلف الظاهرات، في حيـن اختط رِيتَر لنفسـه منهجاً بنائياً تحليلياً يتمثل في البدء بوصف مكونات الاقليم وعناصره وينتهـي بتحليل روابط ظاهراته»[40].

إن الموازنـة بين هَمبُلت ورِيتَر، وإن كانت لا تجـوز، فهي كثيراً ما عقدت، ومن أحسـن ما يذكر بهـذا الصدد ما جاء في تعليـق **لكَرَيْمَر** الذي قال : «لقد أعطـانا همبلت مشاهدات وقياسات جديدة، وأعـطانا ريتر آراء منهجيـة»[41]. وعلـى الرغم من أن العمـل الذي قام به رِيتَـر إقليمي في صميمه، فـإنه يدين بحـظ وافر من أهميـته للأفكار الأصوليـة التي بنيت عليه؛ كما أن العمل الذي أنجزه هَمْبُلت، وإن كان أشـدَّ ميـلاً إلى الأصوليـة في تصميمـه، فهو يستمـد كثيراً من قـوتـه من النهج الإقليـمـي.

إن النهـج «الاقليمي» الذي سارت عليه الجغرافيا في هذا القـرن ليس هو النهج الذي ستبتكره المدرسة الفرنسية هي مطلع القرن المقبل،

38 نفســه، ص 15.

39 فريـمان ت.و. **الجغرافيا في مائة عام**، سابق، ص 31.

40 فرا (الـ) محمد علي عمر، **اتجاهات الفكر الجغرافي والمعاصر**، سابق ص 15.

41 فريمان ت.و. **الجغرافيا في مائة عام**،سابق، ص 33

فهو أساساً محاولة للرد على سؤال فلسفي جوهري يتعلق بمصير الشعوب. لذا تجد هذه الجغرافيا نفسها في حاجة دائمة لعقد المقارنة بين الأوساط البيئية وتاريخ الأمم، وبالتالي مضطظرة باستمرار إلى تعديل المقاييس المكانية وتوظيف «جدلية» تربط الجزء بالكل، كما فعل ريتَر حتى يتسنى إبراز الخصائص المحلية والتشكيلات الكبرى على حد سواء.

إن الجغرافيا العصرية مدينة بالكثير لهذين العالمين اللذين أعطياها «منهجا علمياً واضحاً» ظل قائماً طيلة القرن التاسع عشر. لقد تعرض كل من هَمْبُلت وريتَر لكتابات من سبقهما، فانتقداها لأنها مجرد تجميع لمعلومات جغرافية غير منسقة ووصف غير منظم. فهما يعتبران المعرفة مشروطة بأمرين اثنين يتمان على مرحلتين : مرحلة التجميع الدقيق ثم مرحلة تنسيق المعلومات تنسيقا منطقياً يُيَسِّر فهمها ويصنفها على أساس من القوانين التي تبرز العلاقة السببية بين الظواهر بشكل مختصر ومستساغ. ولقد اعتبر كلاهما المرحلة الثانية من أهم خصائص البحث الجغرافي لأن الجغرافيا، كما يعتقد ذلك راتزل أحد الجغرافيين اللاحقين، إذا كانت تستحق أن تتبوأ الدرجة العلمية الرفيعة، فعليها أن تهتم بوضع القوانين، طبقاً لمنهج نيوتن السببي[42].

42

Wrigley (E.A), **Changes in the philosophie of geography,** in Chorley R.J, Hagget P. «**Frontiers in géographical teaching**», Methuen, London, 1070.

5.1 ـ من يحمل المشعل ؟

بفضل هَمْبُلت وريتَر أصبحت الجغرافيا الألمانية، في مستهل القرن التاسع عشر، نجماً ساطعاً متألقاً في عالم الفكر. لكن للأسف سرعان ما أفل هذا النجم بسبب ا لتحجر الذي أصاب أفكار الجغرافيين الرائدين إصابة في مقتل. فإلى غاية سنة 1859، وهي سنة وفاة الرجلين كليهما، ظلت المواضيع المطروقة هي هي، دون أدنى محاولة في التجديد. فكل ما حدث هو تعدد الدراسات مع الحرص الدائم على فهم حركة التاريخ. ولعل انحباس التفكير في فلسفة معينة كان السبب في الاجترار الذي سقطت فيها الجغرافيا والذي حجب عنها قضية المنهج الكفيل بتطوير المادة وتقعيدها ورفعها إلى العلم.

إضافة إلى هذا لم يكن للعالمين تلاميذ داخل بلدهما، وإن كان لهما

جمهور واسع من القراء تحمس لأفكارهم وتبنى آراءهم التي انتشرت أيما انتشار. ولعل السبب في ذلك يرجع إلى الظروف التي لم تسمح وقتئذ بخلق كراسي علمية بجانب تلك التي كانت في برلين. أما الذين تتلمذوا عليهما أو الذين تأثروا بهما من الجغرافيين فكانوا من الأجانب. وهذا أمر في غاية الأهمية إذ نجد من بينهم أعلام مرموقين لعبوا دوراً حاسماً في نشر الجغرافيا خارج ألمانيا. ونخص بالذكر منهم الجغرافي الفرنسي الكبير **إلِزي رُوكْلي***، الذي تتملذ على رِيتَرْ بعد التحاقه بجامعة **كُبْلَنْس*** سنة 1851، والسويسريين **أَرْنُلْد جُويّو***و **لُوي أجَسّيز***، اللذين تابعا دراستهما العليا بجامعة برلين، الأول كطالب لاهوت والثاني كطالب جيوليوجيا. إلا أن جُويو أصبح يميل إلى العلوم الطبيعية بعد احتكاكه بصديقه أَجَاسّيز. وبعد أن اشتغل لعدة سنوات كمدرس خصوصي في فرنسا أصبح جُويو مدرسا للتاريخ والجغرافيا في آكاديمية **نوشاتل*** من 1889 إلى 1848. ثم سافر بصحبة أَجَسّيز إلى أمريكا حيث ألف كتابه «الانسان والأرض». وفي سنة 1854 التحق جُويو **بپرنسْتن*** كمدرس يشغل أول كرسي للجغرافيا هناك.

إن الفراغ المفاجىء الذي أحدثه موت هَمْبُلت ورِيتَر والذي زاد من هوله غياب مؤسسة جامعية ترعى الجغرافيا والجغرافيين، سرعان ما ملأه باحثون لا ينتسبون إلى المادة، بل كان أغلبهم من الجيولوجيين[43]. هذا في الوقت الذي أصبحت فيه المحافل العلمية تعزف عن الفلْسفة الرومانتيسية*[44]. فلا غرابة إذن أن يتطور الفكر الجغرافي. وهذا التطور يتجلى بكل وضوح في أعمال كل من **أوسْكار پشل***و **فَرْدِيند رِخْتوفن***.

فانطلاقاً من سنة 1866 دشن پِشَل حملة التطور هاته بسلسلة من المقالات، في الوقت الذي أخذ يوجه فيه طلبة الجغرافيا نحو البحث في ميدان المورفولوجيا؛ وهو الميدان الذي اهتم به أكثر من غيره طيلة حياته القصيرة نسبياً، إذ توفي وهو دون الخمسين. غير أنه حاول أن يدرس أثر السطح على تاريخ الإنسان[45]. وظل پِشَل، لما يقرب من عشرين سنة، يتزعم الجغرافيا في ألمانيا؛ يعمل على تنمية الفكر الجغرافي وتطويره، يعارض أفكار هَمْبُلت «لأنه يعطي الانطباع بأن الجغرافيا الغامة تعادل العلم الطبيعي كله»، وينتقد رِيتَر «بسبب منهجه الغائي ولإخضاعه الجغرافيا للتاريخ».

* Elisée Reclus 1830-1905

* Coblence

* Arnold Guyot

* Louis Agassiz

* Neuchâtel

* Princeton

43

نجم (الـ) حسن طه، **دراسة في الفكر الجغرافي**، عالم الفكر، المجلد الثاني، العدد الثاني، يوليوز أغسطس سبتمبر، 1971، ص 126.

44

«الرومانتيسية من وجهة النظر الفلسفية اطلاق الموقف الفردي وإثارة الشعور في أغمض صور. والاعتقاد بلا نهائية الوجود ولا نهائية التقدم في التاريخ. بدوي (أحمد زكي). سابق، ص 361.

* Romantisime

* Oskar Peschel

* Ferdinand Richtofen 1833-1905

45

James. (P.E.), **All possible worlds : A History of Geographical Ideas,**
The Bobbs - Merril Company, New York, 1972, p. 216

عن محمد علي عمر الفرا، سابق، ص 16 — 17.

وپشَل هو آخر كبار الجغرافيين لعصر ما قبل الفلسفة الدارونية، ولو أنه أصلًا رجل قانون وصحفي. ويرجع إليه الفضل في محاولة إرساء القواعد الأساسية للجغرافيا الطبيعية العصرية وإن كان يسير على منهج المقارنة الذي خطه من قبل رِيتَر، مع الاعتناء بتفسير ملامح سطح الأرض وتصنيف ظاهراته[46].

«وربما كان پشَل أول من اعترف صراحة بازدواجية الجغرافيا لأنه استبعد دراسة الإنسان منها على الرغم من أنه خصص طاقته العلمية وأفكاره التدريسية لكل من الطبيعة والإنسان. ففي الميدان الطبيعي كانت له مساهمات بارزة في دراسة الملامح الطبيعية لسطح الأرض. وفي المجال البشري قام بعمل الكثير من المنجزات الجادة عن أجناس البشر وثقافتهم. وقبل ذلك كانت له تحليلاته العلمانية التي تبحث في تاريخ الأفكار الجغرافية حتى منتصف القرن التاسع عشر»[47].

وبخصوص المنهج يرى پشَل، بعد انتقاده لرِيتَر الذي يفلح في رأيه في تطبيق منهجه في الجغرافيا الطبيعية «بأن الجغرافيا المقارنة يجب أن يكون لها منهج محدد وغرض واضح مثل المورفولوجيا المقارنة، وعلى الجغرافي أن يبحث - مستعينا بالخرائط ذات المقياس الكبير - عن الملامح الطبيعية المتشابهة في أجزاء الأرض المختلفة ويقارن خصائصها ويحلل أصلها ويحاول فهمها من الزاوية التطورية على نحو ما هو متبع في علم التشريح المقارن. وقد انتقد أيضاً معالجة رِيتَر الغائية وآدعى بأنها خارج ميدان الجغرافيا المقارنة، واستبدلها بالدراسة المقارنة لأشكال الأرض»[48].

وبهذا يكون پشَل قد أسس الجغرافيا الطبيعية بألمانيا وجعل منها تخصصا قائم الذات. فإذا كان همبُلت ورِيتَر قد بحث كلاهما في الأرض، فالأول لم يقدم تضيفاً لأشكالها، بينما اقتصرت تصنيفات الثاني على السطح فقط، في حين حاول پشَل أن يعرض لهذه الأشكال عرضاً أشمل يُعني بتوزيعها وتصنيفها وتفسير أصلها. وقد يوعز فشل پشَل في تطبيق منهج التشابه في رأي دِيكَنسن لعدم توفره على المعلومات عن عوامل التعرية[49].

ولقد كان لپشَل تلاميذه الذين حملوا أفكاره بعد وفاته. ولا شك

46 Dickinson (R.E.), **The Makers of Modern Geography**, op. cit. عن محمد علي عمر الفرا، سابق ص 17

47 محمد علي عمر الفرا، سابق، ص 17

48 نفسه، ص 18

49 Dickinson (R.E), op, cit, p 58

أن أبرزهم هو **ريختوفن** الذي تتلمذ عليه جيل من الجغرافيين المجددين الذي ذاع صيتهم في العالم أمثال **بِنْك** في ألمانيا و **دَيْفِس** في الولايات المتحدة الأمريكية، البلدين اللذين ظلت فيهما الجيومرفولوجيا الميدان الرئيسي للجغرافيا. وهذا ما جعل رقعة الجغرافيا تتسع شيئا فشيئا لتحتوي مواضيع جديدة ظلت تطرقها حتى الآن علوم أخرى. وهكذا أخذت الجغرافيا تشمل عدداً كبيراً من علوم الطبيعة التي لها علاقة بالأرض.

أما الجغرافيا البشرية فهي لم تغب مع طلوع شمس الجغرافيا الطبيعية. فهي تدرس الأجناس البشرية واستعمال الأراضي الزراعية والأنشطة التجارية وحركات السكان. وهذه المواضيع التي غالبا ما كانت تدرس من خلال علاقتها بأشكال سطح الأرض كما هو عند ريخْتوفَن في أعمال مشهورة حول الصين وكاليفورنيا هي التي شكلت وقتئذ مضمون الدراسات الجغرافية الاقليمية.

ويحتمل أن يكون هذا الاتجاه الجديد قد زاد في التباس الجغرافيا وكرس ازدواجيتها التي أصبحت مركبة : جغرافيا عامة مقابل جغرافيا إقليمية؛ وجغرافيا طبيعية مقابل جغرافية بشرية. وكان طبيعياً جداً أن يفضي هذا الانقسام إلى خلق تيارين متناظرين لم يفلح الفكر الجغرافي حتى الآن في التوفيق بينهما.

إن اللبنة الألمانية لبنة أساسية في تشييد صرح الجغرافيا المعاصرة، لكن الفلسفة التي كانت تنهل من معينها سرعان ما صدت عنها الجيل الجديد من الجغرافيين الذين استهوتهم أهداف ومُثُل علمية أخرى. وهكذا فإن الازدهار الذي ستشهده الجغرافيا في العقود المقبلة بين 1870 و 1900، يرجع أساساً إلى تقويم المادة على أسس أقرب إلى البحث العلمي والتجربة، حتى وإن بقيت الطموحات الموسوعية والتأمل الفلسفي في مصير البشرية تلاحق عدداً من الجغرافيين في بداية هذا القرن؛ الأمر الذي بدونه لا يمكن فهم آثار بعض مشاهير الجغرافيين كـ**فرِدْرِش راتْزل*** **إلزي روكلي** أو **فِدال دُلَبْلاش*** نفسه.

* **Friedrich Ratzel 1844-1904**

* **Paul Vidal de La Blache 1845-1918**

2 ـ البنـاء الهـشّ

1.2 ـ في خدمـة القوميـة والاستعمـار

تعد سنـة 1871 سنـة بارزة في تاريـخ الجغرافيا. ففي هذه السنة انعقد، بمدينة أَنْفير* أول مؤتمر جغرافي دولي كاد يقتصـر على رجال الدبلوماسية وقواد الجيش وأمراء البحر، دون الجامعيين الذين لم يحضر منهم إلا نفر قليـل. فالجغرافيا، حتى الساعة، لا تمثـل في نظر النخبـة المثقفـة أكثر من طُرَف ومتعَة فكرية؛ وإن كانت في نفس الوقت تحظى بعناية الخرائطيين واهتمام الساسة والسياسيين المشغولين بالقضايا الاستراتيجية. لكن بعد ثلاثين سنة فقـط تنقلب الأوضاع رأساً على عقب لتصبـح الجغرافيا مادة تعلَّم في المدارس الابتدائية والثانونية، في الوقت الذي تتعدد فيه الكراسي الجامعيـة بألمانيا ثم فرنسا وباقي بلدان أوروبا، وبعدها انجـلترا والولايات المتحدة حوالي 1900.

* Anvers

إن هذه التطورات السريعة التي سيكون لها. لا محاولة، آثار بليغة في الجغرافيا، لا يجب أن تحجب عنا الدور الحاسم الذي اضطلعت به الجمعيات الجغرافية منذ نشأتها المبكرة في العشرينات من القرن الثامن عشر بباريس (1821) وبرليـن (1828)، ثم في العقد الموالي بلنـدن (1830) ومكسيـكو (1833) وفرانكفورت (1836) بإيـعاز من هَمْبُلت نفسه أو تأثراً بأفكاره وأنجازاته العلمية الرائعة. وبعد نصف قرن من الزمن أصبحت هذه الجمعيات مؤسسات أكاديمية ناضجـة، وان احتجبت بعض الشيء في أبراجها العاجية. لكنها سرعان ما تعددت فتطورت لتخرج من عزلتها وتصبح أداةً تطبيقية شديدة الفعالية كما في فرنسا.

فمنذ تأسـيس أول جمعية جغرافية بفرنسا، وخاصة بعد احتلال الجزائر سنة 1830، أخذ الكتاب يهتمون بشمال إفريقيا لا كسوق جديدة فحسب، بل أيضاً كمستوطنات مفتوحة في وجه المعمرين، خاصة منهم سكان إقليم ألزاص بعد خضوعه لحكم الألمان. وفي سنة 1876 تأسست في باريس جمعية الجغرافيا التجارية التي ظلت تعمل خلال السنوات الثلاث السابقـة كلجنة من لجان الجمعية الجغرافية، هدفها النهوض بالتجارة

الفرنسية في العالم بتحسين المعرفة الخاصة بالجغرافيا التجارية وتشجيع الرحلات التي تمهد السبل أمام تجارة البلاد وصناعتها ودراسة الموارد الطبيعية والهجرات الاستعمارية والحركات التنصيرية، وقد بدأت تنشر مجلتها في سنـة 1879.

وفي نفس الفترة تأسست، سنـة 1873، في مدينة لِيـون جمعية شبيهـة وقوية، تتوخى نفس الأهداف؛ زيادة على دور تعليمي يعكف على تدريس الجغرافيا التجارية بالمدارس. وفي السـنـة الموالية قامت جماعة من التجار وأرباب السفـن في مدينة بُـورْدو بتأسيس جمعية مشابهة سرعان ما أصبحت مركز استقطاب لعدد من الجمعيات بالجنوب الغربي من فرنسا، حتى أن عدد أعضائها بلـغ 1300 سنـة 1881.

وهكذا أصبحت الجمعيات الفرنسية، بما تحظى به من دعم رسمي، تتمتع بشهرة عالمية ومكانـة مرموقـة داخل المجتمع الفرنسي. ولا شك أن وزنها العلمي هو الذي رشحهـا لعضويه «اللجنة الدولية لكشف القارة الإفريقية» وهي اللجنة التي نظمها الملك ليوبولد الثاني، ملك بـلجيكا، سنة 1876. وهي السنة التي ظهرت فيها جمعية مَرْسِيـليا ودراسة المستعمرات. وبعد تأسيسها أصدرت مجلتها ربـع السنـويـة وأرسلت بعثة علمية لاستـكـشاف منابع نهر النيـجـر. «وكانت مجلة الرفيـو الجغرافية « Revue de Geographie »، تدعو صراحة إلى الاستعمار، حتى أن احتلال فرنسا لتونس سنة 1881 كان في الحقيقة بتحـريض منها»[50].

لم تقتصـر الجمعيات بفرنسا على الحواضر الكبرى والموانىء التجارية، بل تعددت في كل أرجاء البلاد وحتى في المستعمرات. ففي سنـة 1878 تأسست ثلاث جمعيات في مَنْبُولْيِي و رُشْـفُور و وهـران بالجزائر. فبينما كانت جمعية منبوليي تهتم أساساً بالجغرافيا المحلية، كانت جمعية روشفور، التي ضمت نخبة من رجال البحر وموظفي المستعمرات، توجه عنايتها إلى الهند الصينية. وبعد سنة فقط تكونت جمعيتان أخريان بنَانْـسي ورُوان. وبحـكم موقع مدينة نَانْسي على مقربة من الحدود الجديدة جمعت «جمعية الشرق الجغرافية في نَانْسي» بين دراسة المستعرات والاهتمام بالقضايا المحلية. بعد ذلك تشكـل، سنـة 1880، «الاتحاد الجغرافي الشمالي» الذي

50 **الجغرافيا في مائة عام**، و. فريمان، سابق، ص 53.

اتخذ من مدينة دُوي مــركزاً له وهو الاتحاد الذي ضم ثلاث عشرة جمعية إقليمية.

وفي هذا الوقت الذي ازدهرت فيه الجمعيات الجغرافية أيّمَا ازدهار، برزت جمعيات مماثلة في كل أنحاء المعمور. ففي أمريكا الجنوبية أصدرت جمعية پِرْنَمْبُك بالبرازيل أول منشوراتها سنة 1863، ثم ظهرت مجلتان أخريان في بُوينُسْ أيْرِسْ سنتي 1879 و 1881. وفي مصر نشرت الجمعية الجغرافية أول أعمالها في القاهرة سنة 1875. وتلاحقت بعد ذلك الجمعيات خلال العقد الموالي حتى وصل عددها في العالم سنة 1885 أربعاً وتسعين جمعيةً، ثمانون منها في أوروبا، وسبعاً وستين داخل فرنسا وحدها التي بلغ عدد المجلات الجغرافية فيها أربعاً وثلاثين والمنخرطين ألفاً وخمسمائة، مقابل ثماني وعشرين وتسعة ألف وثلاثمائة. فبينما نشأت في سويسرا ست جمعيات، فإن بريطانيا، مع مالها من مستعمرات لم يكن بها إلا خمس جمعيات فقط بسبب هيمنة الجمعية الجغرافية الملكية.

وفي سنة 1881 لم يخلُ بلد أوروبي من الجمعيات، باستثناء تركيا والنرويج؛ حتى أن «كتاب فاچنر السنوي*» لسنة 1869 «ذكر لمائة وسبع جمعيات و 38 فرعاً وكانت موزعة على 22 دولة وكان عدد المطبوعات المسلسلة التي نشرت قد بلغ 153، وكان عدد ما نشرته الجمعيات منها 125 من بينها 48 في فرنسا و 42 في ألمانيا و15 في أنجلترا»[51].

* Wagner year's book

51 نفسه، ص 54

وهكذا، خلال ثلث قرن من الزمن فقط، عرفت الجغرافيا إشعاعاً واسعاً وصيتاً ذائعاً سرعان ما أكسبها صبغة مهنية، وكاد الكل يجمعون على الاعتراف بها كمادة هامة. وهذا ما يفصح عنه الكشّاف البريطاني الشهير **ستانلي*** في خطاب ألقاه يوم ثالث دجنبر من سنة 1883 بجامعة إدنبرة حيث قال إنه من الضروري أن يكون هناك اهتمام شديد بالجغرافيا في «كل ميناء كبير وكل مدينة صناعية في هذه المملكة [...] التي ترسل « منها السفن والمنسوجات أو المؤن إلى كل مكان به سوق تجاري. ولئن كان صاحب السفينة أو صاحب الصناعة له رغبة في أن يعرف عمله جيداً فمن الواجب عليه أن يكون على عِلم ببعض الجغرافيا». وقد كان يقال في

* Sir Henry Morton Stanley 1840-1904

الواقع «إن المعرفة الجغرافية هي التي تمهد الطريق إلى النجاح التجاري وإلى بداية التمدين»[52].

52
نفسه، ص 60.

ونجد نفس الاحساس والاهتمام عند القادة والسياسيين. فلنستمع إلى **اللورد أبَرْدين،** الوزير الأول البريطاني ما بين 1852 – 1855 الذي كتب ما يلي : «إن هذه الفترة تعتبر بالنسبة للسياسيين في جميع الشعوب الأوروبية الكبرى فترة قلق واهتمام شديدين يرتبطان قليلا أو كثيراً بالمطالب الإقليمية الضخمة. أما بالنسبة للجغرافي، فعلى الرغم من أن اهتمامه ليس ملحاً إلى هذا الحد، فإنه لا يقل عن ذلك شدة. فبينما كان الفرنسيون في آسيا وأفريقية – والروس في آسيا الوسطى والربطانيون على حدود أفغانستان وعلى أكثر من جبهة من جبهات الهند وعلى كل جوانب القارة الافريقية وفي الاقيانوسية – والألمان على سواحل افريقية الشرقية والغربية بين جزر المحيط الهادي والبحار الاسترالية، والايطاليون في البحر الأحمر – بينما كان كل هؤلاء يقومون بتنفيذ البرامج المرتبطة بمصالحهم القومية فإنهم ساهموا كذلك بإضافات ضخمة إلى معلوماتنا عن الكرة الأرضية، فضلا عن أنهم أثارو البحث في غيرها»[53].

53
نفسه، ص59 – 60

في الوقت الذي كانت أوروبا تُحكِم فيه قبضتها على المستعمرات، تعرضت بلدانها، خاصة في نهاية القرن التاسع عشر، إلى احتدام النعرات القومية التي أجَّجت الشعور بالذات، وفرضت ضرورة إثباتها. وهكذا بات كل الساسة مقتنعين بضرورة تحسين المواطن بالقضية. فإذا كان التاريخ يذكّر بالأمجاد ويحيى التقاليد، فإن للجغرافيا دوراً لا يقل خطورة لأنها تحدد الوطن، وتظهر تنوع أرضه وأهله – تقاليداً وعادات ولهجات – وتبرز قدرة تكامله من أجل بناء دولة قوية ومتماسكة في محيط دولي جديد تراجع فيه الاكتفاء الذاتي، وتفتح فيه الاقتصاد على العالم الخارجي.

وهكذا تُقدم فرنسا، مباشرة بعد هزيمة 1870، على تعميم وتطوير تدريس الجغرافيا بحيث كُلِّف **إميل لوفاسّور*** – وهو مؤرخ وديمغرافي – بإعداد تقرير عن نظام التعليم بالبلاد الذي اعتبر من الأسباب الرئيسية في الهزيمة بالنظر إلى التفوق البيِّن الذي أظهره جنود العدو. وجاء التقرير المذكور يؤكد على أمرين اثنين : ضعف اللغات الأجنبية على الرغم من

*** Emile Levasseur**

الحصص المخصصة لها؛ وعدم الاهتمام بمادة الجغرافيا التي تدرّس كمجرد إطار للأحداث التاريخية.

وقبل أن يضع لوفاسور توصياته، بغية إدماج أجدى للجغرافيا في التدريس، رحل إلى الولايات المتحدة، وبالضبط إلى مدينة برِنْستن طالباً مشورة أرنلد چويو، تمليذ رِيتَر كما نعلم. ومن أبرز الأفكار التي شُرع في تطبيقها : تعميم تدريس الجغرافيا لتشمل كل الأقسام الابتدائية؛ إعادة النظر في البرامج – والتي ما تزال موجودة حتى اليوم في فرنسا وجل مستعمراتها القديمة، اللهم ما كان من تعديلات طفيفة لا تذكر – ووضع الأطالس والكتب للتلميذ والمعلم.

2.2 ــ الجغرافيا الأكاديمية

1.2.2 ــ ظلال الفلسفة الألمانية

إن توظيف الجغرافيا لإلقاء المزيد من الضوء على تاريخ الأرض والبشرية قصد فهم مصير الشعوب فكرة لم تمت بموت هَمْبُلت ورِيتَر. فهي ما تزال حية في كثير من كتابات إلزي روكْلي الذي قد يرجع إليه الفضل، أكثر ممن عاصروه، في التعريف بالجغرافيا على أوسع نطاق كما يدل على ذلك الاقبال الذي أحرزه كتابه «الأرض» وهو في ثلاثة أجزاء صدرت سنتي 1868 و 1869، ثم «الجغرافيا لعامة الجديدة»* ذلكم الإنجاز الضخم من تسعة عشر مجلداً نشرت بين 1876 و 1894. فتلك الفكرة عند روكْلي لم تزد مع تقدم سنه من جهة، وتراكم المعلومات من جهة أخرى، إلا نضجاً واختماراً فكانت ثمرتهما كتاب «الإنسان والأرض»*، الذي لم يطبع إلا بعد موته. وهذا العمل المقسم إلى ستة أجزاء يعرض فيه صاحبه رؤية اجتماعية وآراء سياسية هي اليوم محط عناية كبرى لدى الجغرافيين «اليساريين»[54]. غير أن ما يميز فكر هذا الجغرافي الكبير هو نظرته الشمولية للكون وسعيه الجاد لفهم تاريخ البشرية برمتها. فهو كما يقول پول كلافال : «فيلسوف طبيعي تائه في عصر الوضعية، متخلف عن زمانه علميا، لكنه لا شك متقدم عليه بطموحاته الانسانية وميله إلى العدل والمساواة»[55].

أما في ألمانيا فقد حاول فرِدْرِش راتْزل الانسلاخ عن الفلسفة

* **Nouvelle Géographie Universelle**

* **L'Homme et la Terre**

54 Giblin (Béatrice), **Elisée Reclus, géographie, anarchisme,** Hérodote, n°2, 1976. p 39. 40; Frémont (A,) et al, **Géographie sociale,** Paris, Masson, 1984, [p. 30, 31, 64, 66].

55 Claval (Paul). **Géographie humaine et économique Contemporaine,** op. cit, p. 31.

الطبيعية السائدة، إذ عكف ردَحاً من الدهر يسعى لإغناء الجغرافيا بلقاح الداروينية؛ وإن كان يـجنح بعض الشيء إلى التأملات الشمولية لفلاسفة الطبيعة. فرَتْزل شأنه شأن باقي رواد الجغرافيا الألمانية، هاجسه الكبير الفهم الكلي للأرض والإنسان في حركة واحدة. وهذا بالفعل ما يعكسـه مؤلفـه الشهير «الجغرافيا البشـرية»* الصادر سنة 1882. غير أن طموحاته الموسوعية جعلتـه ينشر بين 1885 و 1888 كتاب : « علوم الإنسان»* ويـقـع في ثلاثة أجـزاء. ثم مع مر الزمن، وبتأثير الفيلسوف چُستاف ثيودور فِـشْـنَـر، أحد مؤسـسي علم النفس الفزيائي، يعود راتزل ليربط الصلة من جديد بالرؤية الكونية لـهِرْدَر ويميـل إلى آراء رِيتَـر.

وهذا يعني أن راتزل جاء يرد الاعتبار للجغرافيا البشرية التي تراجع شأنها لدرجة أصبح فيها بعض المغالين والمتعصبيـن للجغرافيا الطبيعية يُقصون الإنسان تماماً من البحث كما فعل الجغرافي المشهـور **جـورج چرْلند***. وعليه، فهناك من يعتبـر راتزل واضع الأسس العلمية للجغرافيا البشرية بالنـظر إلى كتابه العام «الجغرافيا البشرية» (1882) الذي يمثـل حدثاً بارزاً في تاريخ الجغرافيا وتطوير منهجها، حاول من خـلاله مؤلفه التوفيـق بين العلـوم الطبيعية ودراسة الإنسان.

إن هذه التأثيرات. «الريترية» وتلك المواضيع «الهردريـة» سنـجـدها حاضرة أيضاً عند أحد أقطاب الجغرافيا الفرنسية : فدال دُلـبلاش*، الذي دفعته قراءته لراتزل إلى الانتقال من التاريخ إلى الجغرافيا التي أغناها بإنجاز هام : «الجغرافيا العامة»*، التي تعتبـر مرآة صادقة للجغرافيا الفرنسية بين الحربين العالميتين. لكن في نهاية القرن سرعان ما تراجعت أفكار الفلسفة الطبيعية وغابت الرؤية الكلية للإنسان والأرض بسبب انتصار المذهب الوضعي[56]، الذي عـدل عن التساؤلات الكبرى لينـصرف إلى مواضيع محدودة وأقـل شمولًا.

2.2.2 ـ على درب العلوم الطبيعية : الجغرافيا علم العلاقات بين الإنسان والبيئة

إن مذهب التطور[57] الذي ظهر خلال القرن الثامن عشر في كنف

56

«المذهب الوضعي مذهب «أوچست كُونْت» Auguste Comte 1798-1857، الذي يرى أن الفكر البشري لا يستـطيع أن يكشف عن طبائع الأشيـاء، ولا عن أسبابها القصوى وغاياتها النهائية، وإن كان يستطيع أن يدرك ظواهرها، ويكشف عن علاقاتها وقوانيـنها، وقد مر هذا الفكر خـلال تـطوره بثلاث حالات هي : الحالة اللاهوتية، والحالة الميتافيزيـقية، والحالة الوضعية. ». « وهذه الحالة الثالثـة هي النهائية. قال كُونْت «لما أدرك الفكر البشري هذه الحالة الوضعية، وعرف أنه ليس في مقدوره الحـصول على حقائق مطلقة، عدل عن البحث عن مبدأ العالم وغايته، وعن الكشف عن الأسباب الباطنية للأشيـاء، وانـصرف، باستخدام الملاحظة والاستـدلال معاً، على وجه حسن، إلى الكشف عن قوانيـن الظواهر، أي عن علاقتها الثابتة التي لا تتغيـر». صليبا (الدكتور جميل)، **المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية والفرنسية والأنكليزية واللاتينية**، مرجع سابق، المجلد الثاني، ص 578 ـــ 579.

* **Anthropogéographie**

* **Volker unde**

* **Gustav Theodor Fechner 1801-1887**

* **George Gerland 1833-1919**

* **Paul Vidal de La Blache 1845-1918**

* **La géographie Universelle**

57

«مذهب قديم [...]، غير أنه لم يـصبح مذهباً علميّـاً إلا في العصور الأخيرة، يوم أخذ العلماء يعللون نشوء الأنواع الحية

العقلانية السائدة آنذاك لن يستطع غزو العلوم الطبيعية وتوجيهها إلا في القرن التالي مع **لامارك**[58]، الذي مهد الطريق للدارونية[59] التي جاءت تعرض نظرية النشوء والارتقاء بالنسبة للكائنات الحية في مؤلف صدر سنة 1859 تحت عنوان : «أصل الأنواع»؛ ثم بالنسبة للإنسان في مؤلف ثانٍ : «أصل الإنسان» سنة 1871. فإذا كان الإنسان، على حد قول هذه النظرية، ينحدر من سلالة حيوانية، فلا مناص إذن من إعادة النظر إليه وإلى واقعه الاجتماعي من منطلق جديد. وعليه فإن المشكلة الجديرة بالاهتمام لا تكمن في تأويل تاريخ الأنسانية وفهمه، بل في البحث عن الأسباب والعوامل التي رفعت الإنسان وخلصته بالتدريج من حيوانيته لتجعل منه كائناً اجتماعياً يخلق الثقافة ويصنع الحضارة. وهكذا يمكن حصر تأثير النظرية الدرونية، التي أغرت الجغرافيين كما أغرت غيرهم من العلماء في أربع نقاط رئيسية هي : «مفهوم التغير عبر الزمن؛ مفهوم التنظيم؛ مفهوم الصراع والانتقاء؛ مفهوم العشوائية أو خاصية فرصة التغيرات التي تحدث في الطبيعة»[60]. وإذا كانت نظرية التطور قد تركت بصماتها على الجغرافيا، فهي كانت أقوى أثراً في دراسة أشكال سطح الأرض كما يدل على ذلك فكرة الدورة التحاتية عند دَيفِس التي تولدت عنها سلسلة متلاحقة من النظريات الجيومرفولوجية[61].

إن هذه الأفكار الجديدة، وإن لم تحجب السؤال التقليدي الذي كان يطرحه فلاسفة الطبيعة الذين تساءلوا عن أثر البيئة في الإنسان، وبالتالي عن حركة التاريخ برمتها، حوَّرت المعادلة فوضعت الإنسان، كنوع من الأنواع الموجودة على ظهر البسيطة، محل المجتمعات، متجاوزة بذلك فكرة الانسجام الضروري بين الشعوب وبيئاتها لتحقيق نفس المصير؛ هذا المصير الذي جعلته الدارونية، المشبعة بالمالتسيه[62]، يتحدد على مستوى المادة الصرفة، كمشاكل القوت والسكن ومقاومة الوحوش، تماماً كما كان الإنسان القديم. ومن هنا نبتت فكرة أن الوسط البيئي يخلق المدنية.

ففي هذا السياق العام أخذ موضوع الجغرافيا يتطور، فعوض الأخذ بالمنظور الإقليمي، أي التأكيد على اختلافات السطح وما تمليه من تطورات للمجتمع، أصبح الجغرافيون يركزون على العلاقات التي تربط

بقانون تنازع البقاء، وقانون الانتخاب الطبيعي (دارون)، أو يرجعون تبدلها التدريجي البطيء إلى تأثير البيئة والوارثة (لامارك)، أو يجعلون التطور قانوناً كلياً محيطاً بكل شيء : من السديم إلى الشمس والكواكب السيارة، ومن الأنواع الكيماوية إلى الأنواع الحية، ومن الوظائف العضوية إلى الملكات العقلية والمؤسسات الاجتماعية (هربرت سبنسر). صليبا (الدكتور جميل) **المعجم الفلسفي**، مرجع سابق، المجلد الأول، ص 295.

58

*** La marck 1744-1829.**

هو صاحب مذهب في التطور العضوي الذي يؤكد على أن التغيرات البيئية تحدث في الحيوان والنبات تغيرات بنيوية تصبح وراثية تنتقل إلى الذرية.

59

هي نظرية دارون **Charles Darwin** 1809-1882، الذي «تقرر تطور الكائنات الحية، بما فيها النوع الانساني من أصل واحد مشترك، وإن هناك كفاحاً من أجل البقاء بين أفراد النوع الواحد على أساس من الانتخاب الطبيعي وبقاء الأصلح». بدى (د. أحمد زكي)، **معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية**، سابق، ص 95

60

Davies (W.K.D) **Theory, Science and Geography**

عن محمد علي عمر الفرا، سابق ص 44.

61

ونذكر منها على سبيل المثال إلا الحصر نظريات وِلْيَم پنك (**William Penck**) وهنري بوليج (**Henri Baulig**)

الإنسان بالبيئة مع السعي إلى استنباط القواعد العامة التي تحكم تطور الأجناس وتوجهــه.

2.2.2.1. راتـزل، البيئـة ومسـألة الحتميـة

لا غرابة بتاتاً أن يكون راتزل أول من تحمـس من الجغرافييــن لهذه الرؤية الجديدة[63] بحكم تخصصه (علم الحيوان) وتتلمـذه على **إرنْست هاكل*** عالم الأحياء السويسري مؤسس «الايكولوجيا»، أي علم العلاقات بين الكائنات الحية المتعايشـة في نفس المكان في حالة تكيف مع الأجواء المحيـطة بها. ومع هذا وذلك فإن لراتزل اطلاع واسع ومبكر على أفكار دارون[64]. وهذه التأثيرات مجتمعة هي التي أهلتـه لكتابه «الجغرافيا البشرية» التي يتناول فيها ثلاث قضايا[65] :

أ – توزيع الإنسان على سـطح الأرض وتصنيفـه

ب – اعتماد التوزيع الجغرافي للجنس البشري على البيئة الطبيعية وكنتيجة للهجرات البشرية

ج – أثر البيئة الطبيعية على الأفراد والمجتمعات مثل تأثير المناخ على السلوك القــومي.

إن هذه المبادىء التي وضعها راتزل لبحثه توحي، للوهلة الأولى، بانسياقه الكامل للمذهب التـطوري وتوظيفه للحتمية البيـئية المغالية كأداة وحيدة للتعبير عـن تفاوت الأجناس وتنوع الحضارات. لكن القراءة المتأنية والدراسة الواعية لأعماله، كما يقـول شراحه، تبعد عنه هذه التهمـة التي تسبب فيها بعض المغاليـن من تـلاميـذه أمثال **إلِن تشرشل سمپل***[66]. فمن الثابت أن راتزل قد تخلـص مبكراً من ربقة الداروينية الضيقة كما كان ينهجها بعض الاحيائييـن ليتفرغ لدراسة الحـضارات مؤسسا بذلك، كما يرى البعض[67]، الإثنـولوجيا[68]، ومضيفاً لبنات أساسية لصرح الجغرافيا البشرية.

إن هذه النظرة الجديدة للجغرافيا، كعلم يدرس العلاقات بين الإنسان وبيئـته، بدت تحمل في طياتهـا مزايا عديدة : فهي تحدد للمادة حقلا واضحاً للعمل، يتميـز التحليل فيه بالدقـة بفـضل مقاييس جغرافية أكثر ملاءمة لضبط التفاعلات؛ ثم تجنبها الغموض والالتباسات الغائية التي

62

«نـظرية خاصة بالعلاقة بين السكان وموارد المعيـشة، وتقـول بأن زيادة السكان هي السبب الرئيسي في انتشار الفقر، وأن الموارد الغذائية تزيد وفقاً لمتوالية حسابية، على حيـن أن السكان يزيدون وفقاً لمتوالية هندسية، وترى أن العلاج الوحيد لذلك هو

*** Ernst Haeckel 1801-1887**

تحديد النسل عن طريق تأخير الزواج والعزوبة مع العفـة. وذلك بجانب الحرب والمجاعات والأمراض المعدية وغيرها من العوامل التي تحد من الزيادة الطبيعية للسكان» بدوى (د. أحمد زكي)**معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية**، سـابق، ص 254.

63

وهي رؤية وجدت من قبل عند رِيتَر في كتابه : «المدخل إلى الجغرافيا العامة» حيث يكتـب : «إن الأعـرابي، صاحب الخيال الجامح، مدين، بما له من حرية مطلقة وفلسفة عفوية وتصورات مبتكِرة تجعله يعطي مدلولًا للفضاءات الرحبة الخالية وللسماء الدائمة الشفافية التي يتأملها، مدين بهذا كله إلى طبيعة الأرض حيث يعمل الجسم الرشيق والعقل المتوقد على اختلاف كل شيء، وتملك كل شيء.» عن ,Claval (Paul) **Geographie humaine et économique Contemporaine,** op. cit, p 33.

*** Ellen Semple Thurchill 1863-1932**

64

« وقد كان اهتمام راتـزل في أول الأمر بالطبيعة حيث حصل على درجة الدكتوراة في علم الحيوان والجيولوجيا والتشريح المقارن. وحتى يكمل أبحاثه في علم الحيوان بجنوب فرنسا حاول أن يفتش عن وسيلة لزيادة

تتصف بها الرؤية الهردرية؛ كما أنها تستدعي الجغرافيا أن تحذو حذو العلوم الأخرى في استنباط القواعد والقوانين العامة.

إلا أن هذه الرؤية لم تكن للأسف جديرة بتقديم تفسيرات مقنعة. فراتزل نفسه كان يشعر باختلافات ناجمة عن التقدم التقني والتطور الحضاري بمعزل تام عن البيئة وبعيداً كل البعد عن كل حتمية ضيقة. لذلك كان شديد الاهتمام بقضية انتشار الظواهر وحركات الهجرة المختلفة (التي أشار إليها دارون). وهو نفس الاهتمام الذي حفز عدداً كبيراً من الباحثين الذين أخذوا يرقبون مواطن الابتكارات ويرسمون مسالك انتشارها. وهذا ما جعل مؤرخي الإناسة[69] (الاثنولوجيا) ينسبون لراتزل نظرية الانتشار الثقافي*[70] ويعتبرونه أيضا المؤسس الحقيقي للمذهب الثقافي*[71]. غير أن راتزل يرى أن مفهوم الانتشار قد يلائم المجتمعات البدائية أكثر مما يلائم المدنيات المتطورة ودولها العصرية المنشغلة بإقامة مجال حيوي يضمن كيانها وبقاءها. لذا فهو يقول بوجوب رسم إطار تحليلي أنسب : إطار الجغرافيا السياسية الكفيلة بإبراز تنظيم الدول العصرية والتكهن بمستقبلها.

إن راتزل يرى أن هناك ثلاثة عناصر رئيسية تحكم الإنسان وتؤثر في تطوره وهي : المكان* ، بمعنى الموقع؛ الحيز*، أي المنطقة، وهي مجال جغرافي يتفسح باستمرار لأن الناس أو الدول ترغب دائماً في التوسع خارج موطنها الأصلي نحو «حدود طبيعية»؛ وهي ثالث العناصر.

وعلى هذه الأفكار وضع راتزل «جغرافيته السياسية» التي نشرت أول مرة سنة 1897. ومجملها أن الدولة تجمُّع مكاني متميز على سطح الأرض، له خصوصيات وتنظيم معين، أي أنها بعبارة أخرى مجموعة بشرية تحتل قطعة من الأرض، الأمر الذي يجعل من مفهوم المجال الحيوي* شرطاً من شروط بقائها. ولذلك كان راتزل يعتبر الدولة جسماً متحركاً يسعى لتحقيق حدوده الطبيعية التي قد يتجاوزها إذا لم يواجهه قوة منافسة تمنعه من ذلك. وهذا التوسع الذي يهدف إلى غزو الأمكنة وفتحها، كما يفعل الرعاة الرحل والزراع المستقرين على السواء، يحدث بفعل الضغط السكاني الذي يجعل المجتمعات أو الدول تتسع إلى أن تواجهها عوائق

المعونة المالية. وقرر أخيراً أن يرسل تحقيقات صحفية عن مشاهداته للمناطق التي يزورها وعلى إثرها عُرضت عليه وظيفة مراسل علمي لاحدى الصحف. وقد نصحه بعض أصدقائه استغلال هذه الفرصة كي يصبح جغرافيا. وبالفعل حول راتزل ميدان اهتمامه من متخصص في علم الحيوان إلى جغرافي. وقد تم هذا التحول بعد ست سنوات من رحلاته التي قضاها في أوروبا والولايات المتحدة والمكسيك [...] وقد صدق «كارل ساور» حين قال بأن راتزل دخل الجغرافيا عبر العمل الصحفي». محمد علي عمر الفرا، سابق، ص 20، 21.

65

Dickinson، سابق عن محمد علي الفرا، سابق أيضاً، ص 20.

* **Diffusionnisme**

* **Culturalisme**

* **Lage**

* **Raum**

66

انظر دليل هذا الحكم عند فريمان ت.و، **الجغرافيا في مائة عام**، سابق، ص 81 وما بعدها.

* **Lebensraum**

67

Mercier (Paul), **Histoire de l'anthropologie,** Paris, P.U.F; Poirier (Jean). **Histoire de la pensée ethnologique,** in Jean Poirier (édit). **Ethnologie générale,** Paris, Gallimard, 1968.

طبيعية أو مقاومة بشرية[72]. وفي هذه الاعتبارات الجغرافية الأساسية تكمن في رأي راتـزل العوامل التي تحدد سلوك الدول وتحكم تقدمها.

لكـن هذا التصور العُضـواني[73]، الـذي يـذكـر بأفكـار **هربرت سبنسر**، مؤسس فلسفة التطور، جعل راتـزل ينـصرف عن التدقيق في المفاهيم الأساسية كالدول أو الشعب الذين اعتبرهما وحدات جغرافية تامة ومتجانسـة، خالية من الاختلافات والتفاوت.

وانطلاقاً من فكرة المجال الحيوي صاغ راتـزل مفهوم «اللاندسكيب الثقافي»*، ويعني به الكيان الجغرافي المتميز الذي تؤسـسه حضارة معينة. وهو وجود جغرافي يسجـل المراحل التاريخية المتعاقبة للاستيطان البـشري. غير أن هذه الفكرة، التي تمثل إحدى أسس فكر راتـزل والتي تبـطل ضمنيا كل إمكانية للتعامل والتعاون بين الدول، تعرضت لنقد لاذع، خاصة بعد أن استغلتها النازية الاستـغلال المروع كما هو معلوم.

وفي هذا السياق تعرض راتـزل للمدينة باعتبارها قوة باعثة للمنطقة السياسية وعنصراً فاعلًا فيها. فكان أول من حاول تعريفها تعريفاً أكاديمياً. وهذا التعريف الذي تضمن، كما أوضح ذلك **ميكلبست*** ثلاثة عناصر رئيسية وهي : نوعية النشاط وتركز السكن وعدد أدنى من السكان، لن تستغني عنه التعاريف اللاحقة[74]. والمدينة في تصور راتـزل كائن حي في حاجة إلى التغذية والتنـفس. لذلك فهو يتحدث عن «وظيفة المدينة» وهو اصطلاح استعارة من الفسيولوجيا فأصبح جارياً على ألسنة الجغرافيين والعمرانيين حتى أيامنا هاته. كما أن راتـزل « طور فـكرة «ظهير الميناء»* وصنفه إلى خمسة أنواع من التكامل المكانـي على النحو التالي : الظهير الطبيعي، والظهير السياسي والتوزيع والظهير السوقي، وظهير المنتجات، وظهيـر المرور. »[75].

لكن هذا النداء كان صيحـة في وادٍ لم يعره الجغرافيـون أي اهتمام يذكر، إذ سرعان ما احتدم النقاش، انطلاقاً من سنوات 1890، حول موضوع البيئـة الذي كان موضع آمال كبيـرة تتـطلع إلى تكريس الجغرافيا بعد أن اختارت أن تسير على نموذج الطبيعيات التي قدمت الدليل على

لكن راتـزل الذي مارس فعلًا السّلالة (الاثنولوجيا) — كما يبين ذلك كتابه «الجغرافيا البشرية» الذي نجـد فيه مثلا وصفاً دقيقاً لوسائل الصيد المستعملة

*** Herbert Spencer 1903-1820**

بإفريقيا السوداء — لم يمارسها عن قصد ووعي بالموضوع؛ بل جاء الأمر عَـرَضاً والدليل على ذلك احترازه الشديد وحيطته

*** Kulturlandshaft**

الكبيرة منها ومن علم الإحصاء على السواء.
راجع :

Derruau (Max), **Précis de géographie humaine**, Paris. Armand Colin, 2° édit., 1963, p 3-4

68

الإثنولوجيا، أو علم الإنسان التحليلي،

*** Myklebost**

أو السّلالة تهتم «بالدراسات المتعلقة بنشـأة السلالات والأصول الأولى للنوع الإنساني. كما تهتم بأصول الثقافات والمناطق الثقافية وانتشارها والخصائص النوعية لكل منها. ولهذا كان يعبر عنها بالانثروبولوجيا الثقافية

*** Hinterland**

[...] وكانت إلى عهد قريب جداً تختلط بالانثروبولوجيا الاجتماعية [...]»

«وكانت الموضوعات التي يدرسها علماء هذا الفرع من البريطانييـن هي التي يدرسها علماء الاثنولوجيا والأمريكيون. وكانت الانثروبولوجيا والاثنولوجيا الاجتماعية يعتبران في نـظر علماء القرن التاسع عشر علماً واحداً ودراسة واحدة، لأن كل منهمـا يبحث الثقافات والمجتمعات الإنسانية».

قدرتها، منهجاً وعطاءاً؛ خاصة وأن ليس للعوم الاجتماعية الأخرى ما تقدمه لها، إما لأنها ما تزال هي أيضاً تبحث عن نفسها، أو لانشغالها باهتمامات أخرى بعيدة كل البعد عن اهتمامات الجغرافيين كما هو الحال بالنسبة للتاريخ والاقتصاد، المادتين الوحيدتين اللتين أُرسيت قواعدهما.

إذا كان الجغرافيون يرون أن موضوع دارستهم يتلخص في تحليل العلاقات بين الإنسان والوسط الطبيعي، فإلى أي حدٍّ يصل هذا التأثير ؟ إن هذه المسألة شغلت الدارسين كثيراً وشكلت نقطة خلاف بينهم. وكيفما كان الأمر، فجلهم لا يوافق على المواقف الحتمية المتشددة لأن الأمثلة التي تبطلها لا حصر لها. لكن هل يعني هذا أن الإنسان استطاع التخلص تماماً من مؤثرات البيئة ؟ طبعاً لا. لذا أخذ عدد متزايد من الجغرافيين في أواخر القرن يغنون البحث بدراسات كثيرة حول نفس الموضوع مع الاحتراز من كل تعصب حتمي كما أسلفنا.

ومع مرّ الزمن وتراكم الأبحاث أصبحت التفسيرات والتأويلات تتعدل شيئاً فشيئاً مراعية خصائص البيئة التي يكدح الإنسان من أجل استغلالها ما استطاع إلى ذلك سبيلا. وهذا يعني أن المجتمعات توجد أمام عدة إمكانات من حيث الاستغلال. وهذا بالذات ما يؤكده التاريخ الذي يصف استغلالات متنوعة أو متعاقبة للبيئة الواحدة.

2.2.2.2. الجغرافيا الاحتمالية

كان الجغرافيون الفرنسيون، بحكم تكوينهم التاريخي، أكثر الناس نقداً للمذهب البيئي الحتمي الضيق. فهذا **فدال دُلبلاش**، قطب المدرسة الجغرافية الفرنسية ومؤسسها، يؤكد تأكيداً على نسبية الانجازات البشرية[76]، بينما يعتبر المؤرخ **لوسيّان لُفيفر**[77] المذهب الاحتمالي*[78] السمة الكبرى للجغرافيا الفرنسية. غير أن هناك من يرى في موضوع البيئة تضييقاً على البحث الجغرافي وجعله غير قادر على استخراج القواعد، الأمر الذي استنكره لُفيفر الذي يعين للجغرافيا طموحات أكثر تواضعاً. فهو يميل إلى الدراسات التحليلية، المفصلة، المركزة لنطاقات محددة يختارها البحث بكل عناية. و ينصح الجغرافي الفرنسي بالتواضع والابتعاد عن

«وكانت الجماعات البشرية والمجموعات السلالية تصنف على أساس ثقافتها، وكانت عناية العلماء عامة تتبع الأصول الأولى للثقافات والحضارات الإنسانية وتحليلها. وبعد أن اتجهت أنظار العلماء إلى العناية بالدراسة الوظيفية لنظم الجماعات وتوجيه مزيد من الاهتمام إلى البنية الاجتماعية وبيان العلاقات الوظيفية والتكاملية بين النظم الاجتماعية وإغفال الجانب النشوئي والتاريخي أو ا لتقليل من أهمية النسبية في البحوث الاجتماعية ظهر الاتجاه إلى فصل الدراسة الاثنولوجية عن الدراسة الانثروبولوجيا الاجتماعية، وبذلك استقل كل من فرعي الانثروبولوجيا بعضهما عن البعض الآخر بالرغم من عدم ظهور هذا الاستقلال بالنسبة للدراسات الانثروبولوجية في أمريكا إذ ظلت العناية بدراسة الثقافة وتحليلها أهم ما يشغل أذهان علماء الأنثروبولوجيا الأمريكان» بدوى (د. أحمد زكي)، **معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية**، سابق ص 140 ـــ 141.

69

Lowie (Robert), **Histoire de l'ethnologie, classique**, Paris, Payot, 1971

70

فهي «النظرية الانثروبولوجية التي تبين أهمية الانتشار في نمو الثقافة البشرية وتؤكد قدرة الاختراعات الجديدة وأهمية الاستعارة المستمرة والمشتركة للسمات

* **Possibisme**

الثقافية في تاريخ الانسان. وأن التشابه الموجود في الثقافات المختلفة يرجع إلى استعارة هذه السمات لا إلى ظهور اختراعات مستقلة بذاتها في الثقافات الأخرى» بدوي (د.أحمد زكي) **معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية**، سابق، ص 109.

المواضيع الفضفاضة ليسخِّر كل قدراته لجمع المعلومات وضبطها والتأكد منها بدل الخوض في فروض قد لا تتحقق. وبعبارة أخرى فإن لُفيفر يطالب بتطبيق منهج العلوم الطبيعية على العلوم الاجتماعية، كما كانت تملي ذلك الفلسفة الوضعية. فهل يوافق الجميع على هذا الرأي ؟

3.2.2.2. الجغرافيا علم المشاهد

ظهرت في السنوات الأخيرة من القرن بألمانيا، مرة أخرى، محاولة جديدة لإعطاء الجغرافيا شخصيتها واستقلالها. فالقضية المطروحة وقتئذ، والتي يحتدم حولها النقاش[79]، تدور حول تعريف المادة تعريفاً يحدد هدفها ويجنبها التصادم أو التداخل مع العلوم الأخرى. وهذا ما لم تحققه لا الرؤية الإقليمية الشاملة، ولا المعالجة البيئية اللتان سلبتا من البحث الجغرافي، كما يقول المعارضون، القدرة على التعميم الذي به يرتفع شأن الجغرافيا.

كان **أوطو شلوتر*** أول من جعل من الجغرافيا علماً خاصاً بالمشاهد. وهو المفهوم الذي سرعان ما استهوى العديد من الجغرافيين. فكيف لا وهو الاتجاه الذي جاء يقترح للجغرافيا موضوعاً ملموساً وواضحاً لا ينازعها فيه أحد ؟ مع العلم أن العلوم آنذاك تعرَّف بموضوع بحثها أكثر مما تتحدد بمنهجها. فإذا كانت القوى الطبيعية والأعمال البشرية تتفاعل فيما بينها، فإنه يترتب على هذا التفاعل واقع مرئي، أي مشهد. والمشهد، في نظر شلوتر، هو المنطلق الصحيح لكل دراسة جغرافية تريد الإجابة عن كل التساؤلات.

لكن هذا المفهوم يعتريه كثير من الغموض والإبهام نظراً لالتباس كلمة Landshaft الألمانية المزدوجة المعنى. فهي تفيد إما المظهر (المشهد) العام لجزء من سطح الأرض، وإما إقليما محدداً منه. والمعنى الأول تقابله في الانجليزية كلمة Landscape وفي الفرنسية Paysage، بينما يعبر عن الثاني في اللغتين بكلمة واحدة Region.

إذا كانت هذه المدرسة وأتباعها يهمهم أساساً الظواهر البارزة على السطح والتي تعطيه صورته الخاصة، فلا غرابة إذن أن تكون الدراسة

71

أسفله، الفصل 2، (ازدهار المدارس)، الفقرة 1.4.3.1.

72

هل نرى في هذا تأثيراً معيناً لأفكار مالتس ؟. فلوثبت هذا لكانت فكرة «المجال الحيوي»، التي تعد من أبرز الأفكار في الجغرافيا الحديثة، وانفعها عند البعض، امتداداً واضحاً للمالتسية.

73

أسفله، الفصل 2، (ازدهار المدارس)، هامش 31.

74

Myklebost (Hallstein), **Norges Tettbydge Steder,** Oslo, 1960

Beaujeu - Garnier (Jacqueline) et Chabot Georges). **Traité de géographie urbaine,** Paris, Armand Colin, 3° édition, 1963, p 29.

*** Otto Schlütter 1872-1959**

75

محمد علي عمر الفرا، سابق، ص 21.

76

La Blache (Paul Vidal), **Tableau de la géographie de la France,** Paris, Hachette, 1908

77

Febure (Lucien), **La terre et l'évolution humaine,** Paris, La Renaissance du livre, 1922

78

« الاحتمالية أو الإمكانية هي النظرية التي تناهض «الحتمية أو البيئية» وتؤمن بحرية الإنسان في الاختيار. فالبيئة لا تحتوي على ضرورات أو حتميات وإنما على

الجغرافية تحليلاً مرفولوجياً في المقام الأول، خاصة وأن التركيز كان ينصب، في بادىء الأمر، على المشهد الطبيعي قبل أن يُعنى بالتدريج بالتغيرات المترتبة على فعل الإنسان.

3.2 – جغرافيات القرن التاسع عشر

إن تعدد الاتجاهات واختلاف الرؤى عند الجغرافيين خلال القرن التاسع عشر لاشك أنهما يعبران على حيوية المادة وتطورها السريع. وهكذا يمكن التمييز فيها بين ثلاثة تصورات كبرى ستنبثق عنها في المستقبل مدارس جغرافية قائمة الذات، لكل منها فلسفتها الخاصة. ففي مرحلة التأسيس هذه نجد الجغرافيا تارة تؤكد على الاختلافات الإقليمية لسطح الأرض وتنظر إليها نظرة فلسفية غائية، يعنيها المصير؛ وتارة تراها منصرفة إلى دراسة العلاقات بين الإنسان والبيئة، انطلاقاً من الوضعية، واعتماداً على منهج العلوم الطبيعية؛ وتارة أخرى تركز على المشهد وتجعل منه موضوعاً لها. غير أن هذه التيارات عوض أن تتلاقح فيما بينها وتتلاحم لتخلق فكراً جغرافياً أصيلاً، اندفعت في اتجاهات شتى ما تزال، حتى الآن، تجعلنا نتساءل : وما هي الجغرافيا ؟!

1.3.2 – الجغرافيا الغائية

الجغرافيا الغائية، كما سبقت الإشارة إلى ذلك، رؤية للإنسان والكون معاً تبرز التقسيمات الدالة للقشرة الأرضية، فتجلي طبيعتها وتبيِّن تركيبها، هادفة من وراء ذا وذاك لمس العلاقات بين الوحدات الطبيعية وما ينجم عنها من تراتب حضاري. فالوحدة الطبيعية، إذاً، أو الحيوية في بعض الحالات، هي المنطلق التأملي للجغرافيا الإقليمية التي كانت تريد أن تعرف كيف تهيِّىء هذه الظروف استيطان الإنسان واستغلاله للأرض. وبعبارة أخرى فإن هذه الجغرافيا الإقليمية تهتم بإبراز المظاهر الطبيعية الفعالة التي تفسر استيطان المكان واستغلاله لأن الطبيعة، كما يوحي بذلك التاريخ الذي اطلع عليه الجغرافيون، هي التي توجه الإنسان.

إمكانيات واحتمالات. والإنسان هو الحكم في اختيار ما يلائمه من هذه الإمكانيات. كما أنه قوة إيجابية فعالة في تهيئة البيئة لمطالبه وتعديلها أو تغييرها وفقاً لمشيئته ». بدوي (أحمد زكي) **معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية**، مرجع سابق، ص 322.

79 أنظر : Claval (Paul), **La pensée géographique, introduction à son histoire,** Paris, Publication de la Sorbonne, Périe « N.S Recherches » - 2, S.E.D.E.S, 1972, p 43.

إن الجغرافيا، وفق هذا التصور الذي وضع زمن رِيتَر لا يناسب إلا الوحدات الجغرافية الكبرى التي تدخل في نوع من «الجدلية» فيما بينها. وهذا هو السبب في اعتمادها على الخريطة أكثر من اعتمادها على الميدان، واعتناءها الكبير بالسطح. فهذه المعالجة التي تتم على مقاييس تتراوح عادة بين 1/ 200.000 و 1/5 000.000، تفضي بالضرورة إلى التجريد الذي غالباً ما يكتنفه الغموض أو عدم الدقة : أقطار وأمصار، شعوب وقبائل، وكأنها بشرية ساكنة، محنَّطة لا تعيش ولا تعمل !

2.3.2 ـ الجغرافيا البيئية

إن الجغرافيا البيئية التي تهتم بدراسة العلاقات بين الإنسان ومحيطه الطبيعي تطبق في غالب الأحيان منهجاً تحليلياً يتم على مرحلتين أساسيتين : فهي تعنى أولا بوصف الوسائل والطرق المستعملة لاستغلال البيئة؛ ثم تحاول بعد ذلك استخراج العبرة واستنباط الفلسفة. ويترتب على هذا أمران اثنان : الأول أن يحدد الباحث ميدان بحثه بعناية، إذ من المفروض أن يمثل الموضوع المطروق صنفاً معيناً من العلاقات بين الإنسان والبيئة؛ والثاني أن تتوخى الدراسة الدقة والتحري، لتستوفي الشروط العلمية.

لكن عند الممارسة الفعلية يجد الجغرافيون البيئيون أنفسهم أمام حالتين : حالة مريحة لأنهم يقدرون على مواجهتها، وأخرى مقلقة تستعصي عليهم. فما دام الأمر يتعلق بمجتمعات متجانسة لا يطبعها التنوع والتعقيد فإن التحليل يجد في مفهوم «نمط العيش» مطية طيعة، فيأتي وصفاً دقيقاً، حيّاً لحياة الناس وما يقومون به من أعمال في الزمان والمكان؛ وإن كان هناك إهمال لجوانب أخرى من حياة المجتمع. لكن بمجرد أن تتشابك العلاقات وتتعذر قراءتها بواسطة البحث الميداني المباشر والمعاينة، يختلط الأمر على الباحث اختلاطاً فتراه في مأزق لا يعرف للخلاص سبيلا. فكيف يدرس البيئيون المدن مثلاً ؟ فهذا القصور المنهجي راجع، لا محالة، إلى قَصْر موضوع الجغرافيا وعدم اكتراث الجغرافيين لمواضيع أخرى لا تقل أهمية عن علاقة الإنسان بالبيئة.

3.3.2 ـ الجغرافيا المشهدية

عوض الانطلاق من المفهوم الغامض للأقاليم، أو من العلاقات المعقدة التي تربط الإنسان بالبيئة، تفضل الجغرافيا المشهدية موضوعاً ملموساً يسهل تحديده (لاندشَفت) ويتيسر تناوله (المعاينة). لذلك يبتدىء البحث بالوصف، فيحرك المشهد ويبعث فيه الحياة. بعد ذلك يتساءل الباحث عن عوامل بناء الشكل ليخلص في النهاية إلى إعادة تركيب القوى العاملة فيه.

إن المتأمل في هذه الاتجاهات الجغرافية قد لا يجد فيها الكثير من الفوارق. فالمنظور الأول والثالث يشتركان في فكرة تقسيم السطح، وهي فكرة ضمنية في المنظور البيئي. والمواقف الثلاثة، على كل حال، تجعل من الجغرافيا تخصصا يدرس المظاهر الطبيعية والبشرية معاً، لكنها لم تفلح في رسم مشروع عام لها. فجغرافيا أواخر القرن التاسع عشر لم تتوفر على الأسس النظرية الكفيلة برفعها إلى مراتب العلم، اللهم ما كان من بعض المحاولات في الميدان الطبيعي كمحاولات وِلْيَم دَيْفس الذي أخصب البحث، ولو أخطأت نظريته. وهذا الأمر لا يعني الجغرافيا وحدها، بل يعني أيضاً العلوم الاجتماعية قاطبة. وهي علوم لم تبلغ بعد درجة النضج الكافية التي تؤهلها إلى إرساء مبادئها العامة، باستثناء علم الاقتصاد الذي أخذ يتطور بخطى سريعة، لكنه للأسف لا يعير أدنى اهتمام للمكان نظراً لانشغاله الكلي بقضية التوازنات العامة، وهي بالطبع هواجس بعيدة كل البعد عن اهتمام الجغرافيين. أما التاريخ فلم يكن يعنيه أمر النظرية والتنظير؛ هذا في الوقت الذي ما تزال فيه السِّلالة (الإثنولوجيا) في مرحلة الحَبْو والإناسة[80] (الأنثروبولوجيا) في المهد. وأما علم الاجتماع[82] الفتي فهو ظهر كجار منافس، يخاصم ويماحك. فكيف يكون إذن نموذجاً يحتذى ؟[82].

ومما لاشك فيه أن ثلاثية الرؤية للجغرافيا كانت من بين الأسباب الرئيسية التي حالت دون العمل على إرساء الأسس النظرية للمادة وتكريسها. وهو الأمر الذي لم يُقدم عليه إلا البعض، وبحذر كبير. فـ«الجغرافيا الإنسانية» لراتزل بقيت لا صدى لها لقرابة ثلاثين سنة

80

الإناسة (الانثروبولوجيا) هي «علم الإنسان من حيث هو كائن فيزيقي واجتماعي . ويتفرع من هذا العلم مجموعة من العلوم المتخصصة في دراسة الإنسان كالانثروبولوجيا الفيزيقية والانثروبولوجيا الاجتماعية والانثروبولوجيا الثقافية».

تعنى الانثروبولوجيا الفيزيقية «بدارسة وتشريح البناء الجسماني والهيكل الفيزيقي للنوع الإنساني وتتبع التطور التاريخي للتكوين العضوي والخصائص المميزة للسلالات البشرية والتي بمقتضاها يصنف العلماء الأجناس إلى سلالات وعائلات بشرية مختلفة».

أما الإناسة الإجتماعية فهي «تهتم بدراسة الأشكال الأولية البسيطة للمجتمعات الإنسانية في المراحل البدائية من تطورها الذي يظهر فيها بوضوح تكامل وحدة البناء. فهي لا تشمل إذن المراحل الأكثر تطوراً وتركيباً في نمو هذه المجتمعات. وتعتبر إلى حد ما جزءاً من الانثروبولوجيا الثقافية».

والإناسة الثقافية هي التي «تدرس الإنسان ككائن حضاري يعيش في ثقافة معينة. فتبحث في مختلف ثقافات الإنسان البدائي وعاداته وتقاليده. ويستخدمون هذا الاصطلاح في الولايات المتحدة بمعنى الانثروبولوجيا الاجتماعية وهو الاصطلاح المستعمل في انجلترا.»

بجانب هذه الفروع هناك أيضاً الإناسة الإجتماعية الوظيفية والإناسة التركيبية. وتقوم الأولى «بدراسة النظم الإجتماعية للمجتمعات المختلفة والأدوار التي تقوم بها بين مختلف النظم والأنساق في علاقتها بالبناء الكلي، وذلك للتعرف على تماسك البناء الاجتماعي واستمرار وحدته وكيانه. أما الإناسة التركيبية فهي «فرع من الانثروبولوجيا يحاول أن ينظر نظرة تكاملية إلى كل من الانثروبولوجيا الفيزيقية وعلم

بأكملها، أي إلى أن أصدر الجغرافي **جان برون*** كتابه «الجغرافيا البشرية»[83] سنة 1910. ثم بعد ذلك نشر **إيمنويل دُمَرْطون***، اعتماداً على مخطوطات حميه دُلبلاش، «مبادىء الجغرافيا البشرية». إن هذين المؤلفين وغيرهما، وإن كانت من الأهمية بمكان، فهي لا تعدو عن كونها محاولات في التصنيف أكثر مما هي اجتهادات في التفسير، ناهيك عن التنظير والتقعيد؛ إذ نجدها تستعرض طائفة من المفاهيم الغنية أحياناً، لكنها لا توظفها لبناء مشروع جغرافي.

وقد يوعز أيضا هذا القصور إلى اعتناق أغلبية الجغرافيين بحماس كبير المذهب الوضعي الذي رأوا فيه المرجع الوحيد لبناء مادتهم بناءً علمياً محترماً. لذا تراهم يعزفون عن الواقع، أو لا يولونه ما يستحق من العناية لأنه موضوع لا ينطبق عليه بسهولة نموذج العلوم الطبيعية؛ هذا النموذج الجاهز والواضح الذي أصبحت تحاكيه الجغرافيا وتضرب على وتره. فالجغرافيون حينما يتعرضون للمسألة الاجتماعية فهم لا يدرسونها إلا في مظاهرها الجلية من خلال «المشهد» غافلين أو (متغافلين ؟) الجوانب الخفية منها كالسلوك والقيّم أو صنع القرار مثلا.

تميزت الجغرافيا عند منتصف القرن بطموحات كبرى كانت تدفعها إلى نظرة شمولية للعالم. وهذا ما جعل المؤلفات العامة والمقارنة تروج رواجاً واسعاً إلى نهاية القرن. وهي مؤلفات لم تكن تدقق لا في المراجع ولا في المناهج، فالجغرافي في النصف الأول من القرن الماضي إما رحالة مكتشف، كما كان همبُلت؛ وإما معتكف، في الخزانات كما كان رِيتَر.

ومن خصائص الجغرافيا في مرحلة التأسيس أنها تطرح عادة أسئلة كبرى سواء كانت هذه الجغرافيا إقليمية، أو بيئية، أو مشهدية. لكن مصدر هذه التساؤلات في الحالات الثلاث يظل الخريطة والوثيقة. والجغرافي لا يرد عن السؤال إلا بعد معاينة الميدان واستقرائه سعياً وراء فهم الأشكال نشأةً وتطوراً، مع محاولة ضبط العوامل الفاعلة فيها. ثم إنه، بحكم نزعته «الطبيعية» عندما يواجه وقائع ملموسة ينظر إليها كما هي، بدون خلفيات أو أحكام مسبقة. لذا فهو شديد الإمعان، دقيق الملاحظة، يستنطق الناس ويدون ملاحظاتهم. ثم هو حريص أيضاً على

الآثار واللغويات والانثروبولوجيا النظرية وعلوم التاريخ والثقافة.» بدوي (أحمد زكي بدوي) **معجم العلوم الإجتماعية**، مرجع سابق، ص 21.

* **Jean Bruhnes**

* **Emmanuel Demartonne**

81

«علم الاجتماع دراسة وصفية تفسيرية مقارنة للمجتمعات الإنسانية كما تبدو في الزمان والمكان للتوصل إلى قوانين التطور التي تخضع لها هذه المجتمعات الإنسانية في تقدمها وتغيرها. كما يقوم علم الاجتماع على الدراسة الموضوعية للظواهر الاجتماعية وتحليلها تحليلاً علمياً صحيحاً.» نفسه، ص 402

82

انظر الفصل الثاني، (ازدهار المدارس)، الفقرة 3.1.2.

83

Bruhnes (Jean), **La géographie, Essai de classification positive** Paris, Alcan, 1910.

تدوين الأسماء والمصطلحات المستعملة للدلالة على مشهد أو ظاهرة، أو نمط عيش. وإذا لم يجد في هذا ما يكفيه ويشفي غليله فهو يستعين بالوثائق والمستندات.

وهكذا تتكرس الجغرافيا كمهنة تتوفر على تقنيات بسيطة وأدوات لا تخلوا فعالية من شأنها أن تستنطق المشهد وتؤول التوزيعات وتحلل أنماط العيش. وهذا ما جعل الأوساط العلمية تعترف بها في النهاية كتخصص جاد ومفيد يستطيع جرد موارد الأقاليم. إلا أن هذا الحرص الشديد على جمع المعلومات جمعاً دقيقاً قد جعل البحث الجغرافي، في نهاية القرن، يفرِّط في المكتسبات الهامة للحقبة السابقة، كتفاعل المقاييس الجغرافية مثلا التي برهنت أن الفهم الصحيح للمظاهر لا يكتمل إلا بربط تلك المقاييس صغيرها بكبيرها.

وعليه، فإن الجغرافيا، في مستهل القرن، قد تبدو – وإن اقتربت أكثر من المنهج العلمي – أقل تبصراً من التي سبقتها، خاصة بين 1850 و 1880؛ وذلك لأنها لم تعد تعير الاهتمام إلى القضايا الكبرى كمشاكل القارات والدول والمناطق حتى !. فهذه الجغرافيا لا تطمئن إلى الأسلوب النظري والتأمل الفلسفي ولا تبغي عن صفتها التجريبية : أي العلمية، بديلا؛ وهو الاختيار الذي نفَّرها من تعميق دراسة الإنسان كفرد، وإهمال آليات المجتمع كنظام. ومع ذلك فإن حرصها العلمي لم يمنعها من استعمال الأوعية الفكرية الثلاثة التي استحدثها السابقون إذ تفرعت الجغرافيا وتعددت مدارسها.

ازدهار المدارس

2 ـ ازدهـار الـمدارس

على عكس العقود الثـلاثة الأخيرة من القرن الماضي التي تميزت فيها الجغرافيا بحيوية كبيرة وتـطور سريـع واجتهادات قيِّمـة، جاءت الحـقبة الموالية التي امتدت على ما لا يقـل عن نصف قرن من الزمن، كمرحلة تُسـمع لها جعجـة ولا يُرى فيها طحـن ! مرحلة غـزيرة الإنتاج، شحـيحة العـطاء، كثيرة الاتبـاع، قليـلة الإبـداع. إن هذا الحكم، مهما بدا قاسيـا، فهو حكم بعيد عن المبالغة، قريب من الإنصاف؛ حكم يستنـد إلـى الجغرافيا نفسها التي ما فتئت تتـوزع بين اهتمامات متنوعة ومشاريع متعددة ليس لها رابط نظري يجمع شتاتها ويلم شملها، إذ بات الجغرافيون يجترون أفكار سلفهم وهم يتـذبذبون بين اتجاهات الجغرافيا الثلاثة المتداولة.

وأغرب ما في الأمر أن هذا الانكماش الذي أصاب الفكر الجغرافي سـببـه أساساً تعلق الجغرافيين بنموذج العلـوم الطبيعية وتعـصبهم له؛ لأنه في نـظرهم هو الضمان الوحيد الذي يُكسب المادة خصائص العلم ويخلع عليها رداء التقدير .والاحترام. والغرابة لا تكمن في الأخذ بالمنهج بقدر ما تكمن في تـطبيقه دون ما تـحفظ بالنـظر إلى اختلاف الظاهرات المدروسـة. ولا شـك أن هذا يعني أن الجغرافييـن لم يمعنوا النظر جيدا في موضوع بحثهم من جهة، ولم يدققوا فـي الأدوات المستعارة من جهة أخرى. فطبيعة الموضوع الجغرافي المركبة تقتـضي تجاوز المحسوس والانتقال من المظهر إلى المخبر؛ أي العناية بالجوانب البشرية والاجتماعية، عناية تليـق بأهمية الموضوع وليس بمجرد عرضها عرضاً سطحياً يكتنفه الحذر والريبـة كما يحدث أحياناً !

وعلى أية حال فجغرافيو بداية القرن ليس في عصاهم سير. فزيادة على محاكاتهم للطبيعيات والسير على نهجها، الأمر الذي صدهم عن التفلسف في ماهية مادتهم والتأمل في خصوصياتها، لم تكن العلوم الإنسانية الأخرى قد حققت بعد نتائج تذكر من شأنها أن تخرج الجغرافيا من «غفلتها»؛ لكنها ستظل كذلك حتى بعد أن تحرك ركب تلك العلوم وهبت رياح الفلسفة وأخذ الإنسان يحتل فيها مواقع جديدة.

أما العنصر الإيجابي الوحيد الذي ميز الجغرافيين في هذه الحقبة الطويلة هو قدرتهم الكبيرة وبراعتهم الفائقة على مزاولة الميدان. ولقد كان من نتائج هذه التجوالات أن آطلع الباحثون على أوضاع شديدة التنوع، معقدة التركيب كانت سبباً من أسباب تعدد المدارس. وهذه ظاهرة في منتهى الخطورة إذ جاءت تُقر إنقسام الجغرافيا.

1 ـ الجغرافيا لا تفهم التاريخ

1.1 ـ الانصراف عن الجغرافيا

إذا كانت الجغرافيا في القرن الماضي قد شدت إليها الأنظار واستأثرت بالاهتمام، فهي لم تبق كذلك في مستهل القرن العشرين. ويمكن ردّ هذا التراجع بإيجاز إلى تقلص الوظيفة الانتفاعية للمادة. فبعد تعزيز العلاقات بالمستعمرات وتوطيد الروابط بالعالم الجديد لم يعد للجغرافيا دور يذكر في جمع المعلومات عن الموارد والمواصلات وإمكانات الاستيطان. وعليه أخذ نشاط الجمعيات البحرية والتجارية والاستعمارية يفتر شيئاً فشيئاً إلى أن غَطَّ بعضها في سبات عميق، بينما اختفى البعض الاخر نهائياً.

ثم إن النعرات القومية والحركات الوطنية التي ظلت متأججة في أوروبا لغاية الحرب العالمية الأولى، والتي ساهمت كما نعلم إلى حدٍّ ما في بلورة الظاهرة الجغرافية ـ إلى درجة اشتراك بعض الجغرافيين فيها بالسيف والقلم مثل سِزار بتّيستي*، ناصر الوحدة الايطالية وشهيدها ـ سرعان ما

* Cesar Battiste

سكنت في البلدان الكبرى التي اكتوت بنار الحرب واصطلت بلهيبها؛ باستثناء ألمانيا البلد الوحيد الذي ستستمر فيه تأثيرات السياسة في الجغرافيا بشكل أقوى.

أما تدريس مادة الجغرافيا في كل المستويات، من التعليم الأولي إلى الجامعة، فهو من قبيل التقليد أكثر مما هو من باب الحاجة والإقتناع بأهمية المادة في تكوين المواطن. فالجغرافيا، كما كانت ترى ذلك المؤسسة التعليمية، ينحصر دورها في نشر الثقافة العامة، ليس إلّا. وهذا هو الاعتبار الوحيد الذي أبقى على وجودها.

2.1 ـ الجغرافيا والتيارات الفلسفية

إذا كانت الجغرافيا المعاصرة قد تشبعت في نشأتها بالفلسفة الغائية فجاءت محاولة تفسيرة شاملة للإنسان والكون معاً، وإذا عملت بعد ذلك، مع تقدم العلوم وبتأثير من مذهب التطور*[1] على اكتساب الصفة العلمية لتصبح دراسة بيئية للإنسان، فإلى ماذا سيؤول أمرها في مطلع القرن العشرين وكل مكتسبات الفلسفة للمرحلة السابقة باتت موضوع نقاش ومراجعة ؟ إن الوضع الجديد يقتضي فعلا تعديل الرؤية إلى الحياة وابتكار طرق أخرى لفهمها.

ففي هذا السياق بالذات برزت تصورات فلسفية جديدة قد تشد إليها اهتمام الجغرافيين كفلسفة **هيدجر*** مؤسس الوجودية*[2]، الذي سمى وجود الإنسان بالآنية **الدّازين***[3]. لكن هؤلاء ما يزالون على عهدهم يتمسكون بمنهج الطبيعيات ويُعرضون عنْ الفلسفة التي احتدم فيها الجدل بين الفلاسفة أنفسهم وحتى بين بعض العلماء الذين كانت لهم إسهامات طيبة في تطوير الرياضيات الحديثة والمنطق الصوري*[4] والفزياء النظرية. فهل تتأثر الجغرافيا بهذه المستجدات الفكرية التي تولدت عن الوضعية المنطقية*[5] ؟. أبداً،فالجغرافيون ملتصقون التصاقاً بالطبيعيين الذين لا يهمهم حتى الساعة مضمون معرفتهم.

1

«مذهب التطور مذهب قديم [...] غير أنه لم يصبح مذهبا علميا إلا في العصور الأخيرة، يوم أخذ العلماء يعللون نشوء الأنواع الحية بقانون تنازع البقاء وقانون الانتخاب الطبيعي (دارون) أو يرجعون تبدلها التدريجي البطيء إلى تأثير البيئة والوراثة (لامارك)، أو يجعلون التطور قانونا كليا محيطا بكل شيء : من السديم إلى الشمس والكواكب السيارة، ومن الأنواع الكيماوية إلى الأنواع الحية، ومن الوظائف العضوية إلى الملكات العقلية والمؤسسات الاجتماعية (هربرت ـــ سبنسر)». جميل صليبا، **المعجم الفلسفي**، سابق، الجزء I، ص 295.

2

«الوجودية مدرسة فلسفية تقول بأن الوجود الإنساني سابق على الماهية، أي أن الإنسان صانع وجوده بغض النظر عن أي عوامل متحكمة فيه، وأن العقل وحده عاجز عن تفسير الكون ومشكلاته. والإنسان يستبد به القلق عند مواجهة مشكلات الحياة، وأساس الأخلاق قيام الإنسان بفعل إيجابي، وبأفعاله تتجدَّدُ ماهيته وإذن وجوده العقلي يسبق ماهيته».

«كما تؤمن الوجودية بالحرية المطلقة التي تمكن الفرد من أن يمتع نفسه ويملأ وجوده على النحو الذي يلائمه».
أحمد زكي بدوي، **معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية**، سابق، ص 145.

* Evolutionnisme

* Martin Heidegger 1889-1976.

* Existentialisme

* Dasein

* Logique

* Positivisme logique

ومع ذلك لمن تمنع هذه الغفلة تسرب بعض الأفكار الفلسفية إلى الجغرافيا كما نبّه إلى ذلك **أَنْدري مِنْيي*** في كتابه «تاريخ الفكر الجغرافي في فرنسا»[6] حيث يتحدث عن تعلق عدد من زملائه بحدسية **برچسون***[7]. وبناءً على هذا المذهب الذي يقدم الحدس على البرهان أخذ هؤلاء الجغرافيون ينتقدون أساليب التدقيق المفرط والتكلف الكبير الجاري بهما العمل بجامعة السربون. وربما كان هذا عاملاً من العومل التي تفسر النزعة الميدانية عند عدد كبير من الباحثين واعتمادهم على التجربة المباشرة لفهم الواقع.

ولقد عرفت ألمانيا، صدر هذا القرن، حركة أقوى من التيار البرچسوني في مواجهة العقلانية. فهيدچر لم يكن إلّا واحداً من بين أولئك الذي ثاروا عليها. وما يميز هذا الاتجاه الجديد الذي عرف بـ «الثورة المحافظة» هو اعتبار العلوم الاجتماعية – علوم الروح كما يقول الألمان – علوماً تخالف العلوم الأخرى كل الاختلاف. فالفكرة ترجع أصلًا إلى **دُرُويْسَن***، لكن الموضوع طرقه بعد ذلك وبإسهاب كل من **دِلتاي*** و **ريكَرْت*** و **فندَلْبَنْد***. لكن الموضوع سرعان ما تجدد بعد أن نبه دِلتي وتلاميذه إلى المدلول الذي يعطيه كل شخص لحياته، الأمر الذي عرّى النهج الوضعي وكشف عن قصوره.

فدلتاي[8] قد سعى إلى إيجاد ثورة «كوبرنيكية» في علوم الروح (ما يسمى الآن العلوم الإنسانية) التي يعرفها أنها «مجموع الدراسات التي موضوعها هو حقيقة التاريخ والمجتمع»؛ وذلك بتأسيس «علم تجربي خاص بالظواهر الروحية». فبدأ بالتجربة التاريخية وتأثر بـ **هيچل*** و **كَنْط** فأنشأ فلسفة كان يرجو منها «أن تفعل في العالم المعنوي بعد أن تستخرج قوانين». فهو تناول التاريخ على منوال كَنْط بالنسبة للعقل المحض وذلك بـ «نقد العقل التاريخي». فابتدأ من حيث ابتدأ هيچل أي من ضرورة «فهم الإنسان بوصفه موجوداً تاريخياً في جوهره، وأن وجوده لا يتحقق إلا في جماعة». فانطلق يدرس «علوم الروح» على أسس تاريخ الوجود الإنساني، بمعنى أن للإنسان بعداً أنسانياً هو التاريخ، والتاريخ هو الزاوية التي ينبغي أن يدرس منها العقل الإنساني. أما الطبيعة فهي غريبة عن

---

* **André Meynier**

* **Intuitionnisme bergsonien**

3

الدّازين «كلمة ألمانية معناها الوجود الحاضر والوجود القابل للاوجود. وعند هيدچر كينونة الوجود الإنساني أو كيفية وجوده. ولما كان العالم في تبدل مستمر كانت هذه الكينونة الإنسانية غير مستقرة على حال. فماهية الإنسان إذن وجوده وحقيقته، نزوعه إلى ما يريد أن يكون. فهو إذن يحدد ذاته وينسج جميع إمكاناته بيديه ويجاوز بفعله حدود الواقع وينفتح على العالم» جميل صليبا، **المعجم الفلسفي**، سابق، الجزء الأول، ص 556.

* **Droysen**

* **Wilhelm Dilthey 1833-1911**

* **Heinrich Rickert 1863-1936**

* **Wilhem Windelband 1848-1915**

4

المنطق الصوري «هو النظر في التصورات والقضايا والقياسات من حيث صورتها لا من حيث مادتها. ويطلق في العادة على [...] المنطق القياسي بوجه عام» عينه، الجزء الثاني، ص 429.

* **Friedrich Hegel 1770-1831**

5

الوضعية المنطقية «مذهب انبثق عن جماعة من الفلاسفة عُرفوا بدائرة «فيينا». وهي تسمى على الوجه الأصح بالتجريبية المنطقية، كما تطلق عليها أيضا الوضعية الجديدة. فقد ظهرت في أول الأمر كـ «فلسفة علمية» «تقوم على أساس التجربة التي تعدها المصدر الوحيد للمعرفة. وليس للعقل من عمل إلا مجرد تنسيق

الإنسان، ويستطيع المرء إدراكها بواسطة الملاحظة الحسية. أما العالم التاريخي الاجتماعي فهو عالم الإنسان. ولا يمكن إدراكه إلا من الداخل، ولهذا فإن العلاقة بين الإنسان والموضوع، في العلوم الورحية، علاقة مباشرة، لأن الموضوع هو التجربة الإنسانية الحية. ومن هنا فإن الأساس في العلوم الروحية هو التجربة الحية ويقصد بها الأحوال والعمليات والنشاطات الباطنة كما نستشعرها ونحياها ونعيها.

وعلى الرغم من أن العلوم الروحية قد تتناول بعض الأشياء والعمليات الفزيائية، فإنها إنما تتناولها من حيث هي آثار، أو من حيث أن لها علاقة بتحقيق الأغراض الإنسانية، أو تفيد في التعبير عن الأفكار والمشاعر الإنسانية وإذن لا تهتم العلوم الروحية بالظواهر الفزيائية إلا من حيث هي تعبيرات من خلالها يمكن فهم هذا الوعي. ويرى دِلتـاي أن ملكة المعرفة في الدراسات الإنسانية هي الإنسان كله. والأعمال العظيمة التي نمت فيها لم تنشأ عن العمليات العقلية وحدها، بل عن قوة الحياة الشخصية. لذلك كانت فلسفة دِلتاي جوهريا فلسفة حياة؛ والحياة عنده ليست الوظائف الحيوية التي يشارك فيها الحيوان الإنسان، بل هي أساساً جماع الحيوات الإنسانية الفردية التي تؤلف الواقع الإجتماعي والتاريخي لحياة الإنسان كلها. وكما أخذ دِلتاي على الفعليين تجريداتهم الشحبية، كذلك يأخذ على التجريبيين قصرهم المعرفة على الادراك الحسي لأن في هذا إفقاراً لمضمون الحياة.

ولهذا إذاً كان الجغرافيون الألمان أقوى تأثراً من غيرهم بالفلسفة وتطورها وبالمناخ الفكري المصاحب لها. وهنا يكمن سبب اختلاف الجغرافيا الألمانية بالمقارنة مع غيرها في اختيار المواضيع التي فحصتها خلال النصف الأول من هذا القرن.

3.1 ـ الجغرافيا والحركة العلمية

1.3.1 ـ نهضة العلوم الإجتماعية

تميزت العلوم الاجتماعية في العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر

معطياتها وتنظيمها. ثم تحولت إلى دراسة تحليلية للغة العلم لتحقيق وحدة مشتركة بين فروع العلم المختلفة» أحمد زكي بدوي، **معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية**، سابق، ص 322.

6

Meynier (André), **Histoire de la pensée géographique en France,** op. cit.

7

نظرية الحدس أو الوجدان «إحدى نظريات المعرفة وتقول بأن الحدس هو أفضل مصدر للمعرفة وعن طريقه يمكن معرفة الحقائق التي تفوق التجربة» أحمد زكي بدوي، **معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية**، سابق، ص 226.

و «الحدس عند برجسون عرفان من نوع خاص، شبيه بعرفان الغريزة، ينقلنا إلى باطن الشيء، ويطلعنا على ما فيه من طبيعة مفردة لا يمكن التعبير عنها بالألفاظ، بخلاف المعرفة الاستدلالية أو التحليلية التي لا تطلعنا إلا على ظاهر الشيء. قال برجسون «الحدس هو التعاطف العقلي الذي ينقلنا إلى باطن الشيء ويجعلنا نتحد بصفاته المفردة التي لا يمكن التعبير عنها بالألفاظ...» جميل صليبا، سابق، الجزء الأول، ص 453.

ويرى برجسون «أن العقل هو الذي يكفل للإنسان صناعة الأشياء والتي يحتاج إليها لتأمين بقائه في الحياة. ولهذا كان موجهاً إلى الفعل ومعالجة المادة. وتبعاً لذلك فإنه غير قادر على فهم الحياة. وقصارى ما يستطيعه هو أن يقوم بتحليل العمليات الفزيائية والكيميائية التي بها تتحقق الحياة، وأن يصنع الآت تمكنه من السيطرة عليها. فلا بد إذن من ملكة أخرى يستطيع بها الإنسان إدراك الحياة، ملكة أقرب إلى الغريزة منها إلى العقل وهذه الملكة هي الوجدان [...] أو العيان الميتافيزيقي.

بتطور حثيث جعل عدداً من فروعها يزهر ويثمر كالاقتصاد والتاريخ، ما بين 1860 و1870، ثم علم الاجتماع حوالي 1900 بفضل زمرة من العلماء المرموقين مثل **دوركايم***، **فيبر*** **وبَريطو***، الذين كشفوا الضباب عن تخصصهم ثم قعَّدوه وعمقوه ليصبح علماً متماسكاً له قيمته ووزنه بين باقي العلوم.

أما السِّلالة (الاثنولوجيا) فهي بدورها قطعت أشواطاً لا بأس بها إذ أصبحت تضبط موضوعها أكثر من ذي قبل، هذا في الوقت الذي حققت فيه نتائج هامة في ميدان اكتشاف الحضارات، فالسلاليون يجمعون ويصفون كل ما تستعمله الجماعات البشرية من أدوات وتقنيات. كما ينقلون لغاتهم وكتاباتهم، ويستنطقون الخرافات والأساطير. وتعد تجربة **مالينوفسكي***، الذي عاشر أهالي جزر السود بأقيانيا* تجربة رائدة جعلت من البحث الميداني المدخل الطبيعي لكل عمل رصين.

«يقول برجسون «المطلق لا يمكن أن يعطي إلا في الوجدان، بينما كل الباقي يعتمد على التحليل» لكن هذا الوجدان ليس وليد الغريزة بل هو وليد التفكير العقلي المتواصل، والتأمل الفكري المستمر وحشد الوقائع العلمية السليمة ومقارنتها بعضها ببعض، والعقل هو الذي يحقق الوجدان ويجعله محدداً، وينميه في قول منطقي.» بدوى (عبد الرحمان)، **موسوعة الفلسفة**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الأولى 1984، الجزء الأول، ص 321 وما بعدها.

* Emile Durkheim 1858-1917
* Max Weber 1864-1920
* Velfredo Pareto 1848-1923
* Bronislav Malinovski 1848-1942
* Iles Trobiand

2.3.1 ـ حملة على المذهب التطوري

كان المذهب التطوري ـ بقيادة **هبرت سبنسر***، مؤسس الفلسفة التطورية، **ولويس مرجان**، صاحب النزعة التطورية والماركسية للإناسة الاجتماعية ـ هو الذي يوجه السِّلالة وعلم الاجتماع في الفترة ما بين 1860 و 1870. لكن الباحثين سرعان ما تنبهوا إلى خصائص المجتمعات فأخذوا ينأون عن التأويلات العامة والأحكام المطلقة، مفضلين الأخذ بنظرية الانتقال الثقافي. وهم على كل حال أصبحوا يعتبرون أن المهم هو الإحاطة بخصائص المكان بحيث يسعى الباحث إلى إبراز مقوماته والاطلاع على عادات أهله وفهم مؤسساتهم. وليس من عمل الباحث أن يرتب الحضارات حسب مقياس معياري أساسه الأخلاق أو درجة التقدم، بل عليه فقط أن يتوخى الموضوعية القصوى وأن يلتزم بنقل الواقع كما هو.

ولقد تجسد ردّ الفعل هذا في تيارين فكريين أساسيين : النزعة الثقافية* والنزعة الوظيفية*. فالنزعة الثقافية تشكل اتجاها في الإناسة الإجتماعية وهو يهدف أولًا وقبل كل شيء إلى التمييز بين ما هو ثقافي وما هو طبيعي. والنزعة الثقافية ظهرت كتيار معارض للاتجاه الوظيفي الذي يقول

* Herbert Spencer 1820-1903
* Lewis Morgan 1818-1881

8
جلّ ما ورد عن دلتاي وفلسفته مقتبس عن الموسوعة الفلسفية لعبد الرحمان بدوي، سابق.

* Culturalisme
* Fonctionnalisme

بفكرة انسجام المجتمع، إذ أن الوظيفيين يعتقدون أن التوترات التي تحصل داخل المجتمع تنتهي دائما إلى وضع أفضل. والنزعتان معاً يجب اعتبارهما كشكلين تحليليين، أي إطارين فكريين تنطلق منهما النظريات وترتكز عليهما الأبحاث من جهة، وكتصور ذهني (إيديولوجي) للمجتمعات، من جهة أخرى.

1.2.3.1 ـ النزعة الثقافية في الجغرافيا

تقوم النزعة الثقافية على خمس قضايا هي :

أ ــ مفهوم «الشخصية الأساسية» أو «الشخصية الأولية». وهي تعني أن للمجتمع ثقافةً متميزة، أي نظاماً معيناً لقيم أساسية يرتكز عليها. وهي التي تصوغ الشخصية بواسطة مؤسسات أساسية موحدة كنظام الأسرة ونظام التعليم والحالة الديمغرافية إلخ... وهذا ما يجعل أصحاب هذا الرأي يولون اهتماماً بالغاً لمسألة التنشئة الاجتماعية[9]، التي تنتقل بواسطتها القيّم الجوهرية من جيل إلى آخر.

ب ــ كل مجتمع يتطور نحو تشكل كيان ثقافي متميز حتى ولو تشابهت المجتمعات من حيث درجة نموها الاقتصادي كما تشهد على ذلك الملاحظة والتجربة معاً. فالألمان كما يقول لِنتن* يختلفون ثقافيا عن الأنجليز.

ج ــ كل نظام للقيم الاجتماعية يجنح إلى التمييز من القيم الكبرى.

د ــ تسعى ثقافة المجتمع إلى الانتظام على شكل وحدة من عناصر متجانسة ومتكاملة فيما بينها، أي منظومة تترابط كل مكوناتها ترابطاً عضوياً.

هـ ــ يعيش الإنسان في عالم رمزي يصنعه هو نفسه، لذا فإن الأحكام التي يصدرها والمعاينات التي يقوم بها والإدراك الذي يتوفر لديه كلها منسوبة إلى الثقافة التي ينتمي إليها ذلك الإنسان.

انفعلت جل العلوم الإنسانية بالنزعة الثقافية، وإن كان ذلك بدرجات متفاوتة وعلى فترات متباعدة. ولو أن اتصال الاتجاه الثقافي

9 «التنشئة الاجتماعية هي العملية التي يتم بها انتقال الثقافة من جيل إلى جيل والطريقة التي يتم بها تشكيل الأفراد منذ طفولتهم حتى يمكنهم المعيشة في مجتمع ذي ثقافة معينة، ويدخل في ذلك ما يلقنه الآباء والمدرسة والمجتمع للأفراد من لغة ودين وتقاليد وقيّم ومعلومات ومهارات الخ...» أحمد زكي بدوي، **معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية**، سابق، ص 400.

* **Linton**

بالاجتماع حدث مبكراً فهو لم يؤثر فيه كثيراً رغم ما قام به من مجهود في هذا الباب عالم الاجتماع الألماني **طونيس***. كما لم يؤثر أيضاً في الاقتصاد الذي لم ينضج بعد ليتخلى الباحثون عن فرضياتهم السطحية حول معللات الإنسان[10]. لكن التيار الثقافي سيجد مرتعاً خصباً في السلالة حيث ستتأسس مدارس عتيدة بجهد باحثين بارعين مثل **رالْف لِنتَن*** و **إرِكْ فروم*** (المزداد سنة 1900 و **أبْرَهام كاردنر*** المزداد سنة 1891)، صاحب مفهوم «الشخصية الأساسية» وغيرهم.

* Ferdinand Tonnies 1855-1936
* Ralph Linton 1893-1953
* Erich Froum
* Abraham Kardiner

10
المعللات في الاقتصاد هي مجموع العوامل المحددة لسلوك المستهلك.

أما بخصوص التاريخ والجغرافيا فهما سليتقيان – بالنسبة لفرنسا على الأقل – لخوض نفس المعركة. وهي المعركة التي سيقودها لوسيان لفيفر الذي عارض النزعة الاجتماعية القطعية كما يعبر عنها أصحاب «الحوليات الاجتماعية»* بزعامة دوركايم. فباسم التاريخ وباسم الجغرافيا أيضاً دافع لفيفر على فكرة الالتزام بالواقعية والاهتمام بخصوصيات كل فترة تاريخية وكل منطقة جغرافية. فهو لا يتحمل أن تلوى رقبة الأشياء بسبب الآراء الاجتماعية القبلية والتعميمات الكبرى.

* L'Année Sociologique

لذلك كانت للنزعة الثقافية بصمات واضحة على البحث التاريخي وهو ما تعبر عنه صراحة «مدرسة الحوليات»*، التي أخذت تخرج الدراسة التاريخية من الوضعية الضيقة (التي ظلت قابعة فيها طيلة العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر، تجمع المعلومات وتكدسها، دون أن تتساءل عن معناها ومرماها) لتوجه اهتمامها نحو قضايا جديدة ذات صلة بالثقافة والمجتمع على غرار ما قامت به جماعة من المجددين كلسيان لفيفر، طبعاً، أو **مارك بلوك***.

* L'Ecole des Annales
* Marc Bloch 1886-1944

أما الجغرافيا فإن الهدف الذي تتوخاه ليس هو المعرفة الشاملة لتوزيع السكان وأسلوبهم في الاستغلال والتنظيم للبيئة، بل هو رسم لوحة واقعية تعكس قدر الإمكان تنوع العالم. وهنا نعثر على منبع من منابع الجغرافيا الفيدالية التي ستبرع في البحث الاقليمي طيلة نصف قرن من الزمان. هذا في الوقت الذي ينصرف فيه الجغرافيون الألمان إلى دراسة «المشاهد الثقافية» تأسياً بباحثين نذكر منهم على وجه الخصوص **شلوتْر وباسرج***. وهذا الاتجاه الثقافي، وإن كان يلتقي في بعض الجوانب بالبحوث الفرنسية، فهو يختلف

* Seigfried Bassarge 1867-1958

عنه من حيث دقة المقياس وحجم الموضوع.

أما انجلترا والبلاد المنخفضة فإن التيار الثقافي سيتسرب إليهما عبر التأثيرات الفيدالية، بينما ستجمع بلدان أوروبا الجنوبية والغربية، بدرجات متفاوتة، بين مؤثرات المدرستين الفرنسية والألمانية. غير أن النزعة الثقافية التي تأصلت جذورها في التربة الألمانية سيكون لها شأن وأي شأن خارج أوروبا، بالولايات المتحدة بالذات حيث ستتأسس مدرسة بركلي الشهيرة.

وهكذا ستصبح الاهتمامات الثقافية ضمن المعالجة الإقليمية إحدى السمات البارزة للجغرافيا العالمية في الثلاثينات والأربعينات من هذا القرن. وهذا ما جعل البعض يقول بوجود نوع من التواصل الفكري في الجغرافيا من كَنْط «الذي لا يستهان بمساهمته في هذا الميدان» إلى رائدي القرن التاسع عشر : هَمْبُلت وريِتَر؛ ثم إلى الكتاب المعاصرين[11].

11 Paul Claval, **Les mythes fondateurs des sciences sociales**, op. cit. p 162.

1.3.2.2 ـ الجغرافيا والنزعة الوظيفية

إذا كان المذهب التطوري قد خيَّب آمال العلوم الاجتماعية في بداية القرن التاسع عشر، إذ جر عليها جملة من المشاكل الشائكة، فإن النزعة الثقافية، التي جاءت كبديل له، لم تستجب هي كذلك لرغبات جمهور عريض من الدارسين الذين رأوا فيها تضييقاً جائراً للموضوع، يحول دون الفهم الشامل للمجتمعات. فالإنارة الثقافية مهما كانت هامة فهي تظل إنارة محدودة لا تكشف عن الواقع الكلي، حركة وتنظيماً. ويعني هذا أنها لا تسمح إلا بتفسيرات جزئية، أي تفسيرات قاصرة قد تفضي إلى خطإ في التأويل ومن ثم إلى متاهات خطرة. ثم إن البحث في ميدان العلوم الاجتماعية اعتاد دراسة مختلف العناصر دراسة مجزَّأة في سياق تسلسلي. لذا وذاك أخذ البحث يعالج القضايا في علاقاتها المتنوعة ضمن منظور كلي. وهكذا ظهرت النزعة الوظيفية.

ارتبطت الوظيفة أصلًا بالمدرسة السِّلالية البريطانية بزعامة **رادكليف براون*** و **مالينوفسكي***، ثم بالإناسة الاجتماعية. وهي المدرسة التي تقول بوجوب دراسة الظواهر الثقافية (الحضارة) من حيث الوظائف الاجتماعية التي تؤديها، علماً بأن الثقافية ليست مجرد حشد لعناصر متفرقة

* **Alfred Reginald Radcliffe Brown 1881-1955.**

* **Bronislaw Malinowski 1884-1942**

بل تركيبـة معقدة ومترابطة المكونات. فـ«المنظومة الزراعية» مثلاً، التي تتجلى في أدوات الحرث والبذور والحصـاد ووسائلها، بإمكانها أن تغير العادات الغذائية وأسلوب الاستغلال الفلاحي ونظام الإرث والتعامل التجاري ومفهوم الغني...، والعكس صحيح.

ففي الاجتماع ظهرت الوظيفة كفرض أو كنظرية مقتبسين من الإناسة تناط بهما مهمة تفسير الواقع الاجتماعي من خلال رؤية شمولية للأدوار والوظائف التي تقوم بها مختلف مكونات المجتمع باعتباره نظاماً متماسكـاً ملتحمـاً. وهذه قاعدة منهجية عند كل من دوركايم و **موص*** : فالظاهرة الاجتماعية كل لا يقبل التفكيك بأي حال من الأحوال. كما لا يجوز عزل هذه الظاهرة عن محيـطها وإلَّا تسبب ذلك في تشويهها وبترها . فالجزء لا يفهـم إلا بالكل والكل بدوره لا يستغني عن الجزء. والفرضية الوظيفيـة بسيطة تقول بتلازم العضو والوظيفة وترابط العنصر والدور، وعلاقة شكل المجتمع بالغاية.

* Marcel Mauss 1872-1950

لا شك أن في هذا التصور شيء من المبالغة، لكن هذا لم يمنع الوظيفية – وقبل أن تسمى بهذا الاسم في الثلاثينات – أن تغزو ميادين شتى، زيادة على السلالة الاجتماعية والاجتماع واللسانيات التي ظهرت لها فيها آثار مبكرة. ففي التاريخ، ورغم مقاومة النزعة الثقافية الشديدة لها، استطاعت الوظيفية أن تنفذ إلى بعض الكتابات، خاصة تلك التي تعنى بالعوامل الاقتصادية ومدى تأثيرها في تطور المجتمعات حاضراً ومستقبلاً على غرار ما قام به المؤرخ الفرنسي الشهير مارك بلوك الذي اهتم بدراسة البنيات الزراعية محاولًا فهم سرها والكشف عن منطقها[12]. وهذا بالذات ما أقدم عليه أيضاً بعض الجغرافيين وأشهرهم على الاطلاق **روجي دِيون***، الذي عاصر مارك بلوك واشتهر بدراساته المعمقة في الجغرافيا التاريخية[13]. غير أن هذا الاتجاه الجغرافي التاريخي الوظيفي سيـظل منحصراً في دائرة ضيقة جداً إلى غاية أن وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها، فمنذ العشرينات وحتى هذا التاريخ ظل هؤلاء الجغرافيين القلائل كروجي ديون (الذي انعزل في **الكليج دِفرانـس*** و **جـول سِيُـون***و **فراسنوا دي دَنْفيل*** يعملون على هامش «المؤسسة الجغرافية» التي كانت تعدهم في عداد المؤرخين وليس من أسرة

12
بجـانب مارك بلوك صاحب كتاب Les caractéres originaux de l'histoire rurale française هناك جماعة من المؤرخيـن من نفس الطينـة نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر چسـتـون روبـنيـل Gaston Roupnel الـذي اشتهر بكتابـه القيّـم : Histoire de la campagne française

* Roger Dion

13
من بين مؤلفـات روجي ديـون المعروفـة يمـكن ذكر كتابيـن أساسيـن :
Essai sur la formation du paysage rural français.
Histoire de la vigne et du vin en France des origines au XIX siecle.

* College de France.
* Jules Sion
* François de S.J. Danville

الجغرافيين. لكن مع الخمسينات بدأ الاتجاه التاريخي يستهوي البحث الجغرافي وبقي يؤثر فيه إلى غاية الستينات حيث فسح الجغرافيون المجال إلى مؤرخي الاقتصاد والمجتمع[14].

وقد يكون **ألْبير ديمُنجون*** أكثر الجغرافيين الفرنسيين انتماءاً إلى النزعة الوظيفية التي تعكسها جليّاً دراساته المعروفة حول السكن الريفي[15]. فهو قد نهج في هذا الموضوع نهجاً متميزاً، يختلف عن الرؤية التراثية ويبتعد عن الطرح الثقافي حيث عالج الموضوع انطلاقاً من متطلبات الريف، لذا فهو يعتبر البيت وملحقاته مجرد أدوات من جملة أدوات المزرعة. وبناءاً عليه تتشكل البيوت الريفية حسب نشاط الضيعة وحجمها وكذا متطلبات الأنعام الموجدة بها.

إن النزعة الوظيفية لم تقتصر آثارها على هذه الميادين من الدراسات الجغرافية وحسب، بل تجاوزتها إلى اهتمامات أخرى. ذلك أنها أصبحت تحظى بعناية من الجغرافيين الأمريكيين التابعين لمدرسة **الميدَلْوِست***، الذين تأثروا كثيراً بأعمال **كليمَنْتس*** في البيئة النباتية من جهة، واتجاهات المدرسة الاجتماعية بشكاجو بقيادة **بارك***و **بيرجس*** من جهة أخرى. ومن سمات هذه المدرسة ذات النزعة الوظيفية اهتمامها البالغ واعتمادها الكبير على الخرائط الدقيقة التي تعبر عن تنظيم المكان وتجلي الروابط وبالتالي لا تستغني عن التأويل الوظيفي.

ومع ذلك فإن النزعة الوظيفية لم تحقق إلا القليل من النجاح بسبب ميلها إلى معالجة المواضيع معالجة شاملة جعلها في كثير من الأحيان تتجاهل قضايا هامة كالبعد الثقافي مثلا بدعوى أنه لا يمثل عنصراً وظيفيا يستحق الاعتبار. وهذا ما جعل الباحثين يعزفون عنها شيئاً فشيئاً، إضافة إلى كونها لا ترتكز على فرضيات معلنة واستعمالها لطرق متضاربة تحول بالفعل بينها وبين الفهم الشامل الذي تتوخاه.

2 ـ المدارس المبدعة

1.2 ـ المدرسة الفرنسية : العصر الذهبي

تعد المدرسة الفرنسية من أعرق المدارس الجغرافية وأكثرها تماسكاً،

---

* **Albert Demangeon 1872-1940**
* **Middle West**
* **Clements**
* **Park**
* **Burgess**

14

من النماذج التي يمكن تقديمها في هذا الباب فيما يخص الجغرافيا الفرنسية الأطروحات التالية :

Derruau (Max), **La Grande Limagne auvergnate et bourbonnaise, etude géographique,** Clermont - Ferrand, 1949.

Juillard (Etienne), **La vie rurale dans la plaine de Basse-Alsace, essai de géographie sociale,** Strasbourg, 1952.

Lebeau (René), **La vie rurale dans la montagne du Jura méridional,** Lyon, 1955.

Chevalier (Michel), **La vie humaine dans les Pyrenées ariégeoises,** Paris 1956.

Flatres (Pierre), **Géographie agraire de quatre contrées celtiques : Islande, Galles, Cornwall et Man,** Rennes, 1957.

Blanc (André), **La Croatie occidentale,** Paris 1957.

Moreau (Jean-Paul), **La vie rurale dans la sud-est du Bassin Parisien,** Paris, 1958.

Brunet (Pierre) **Structure agraire et économie rurale des plateaux tertiares entre le Seine et l'Oise,** Paris, 1960.

Gay (Fançais), **La Champagne du Berry,** Paris, 1967

Desplanques (Henri) **Campagnes Ombriennes,** Paris, 1969.

15

Demangeon (Albert). **Problémes de géographie humaine,** Paris. Armand Colin.

وإن لم تكن وحدة متراصة. وقد استندت في نشأتها ونموها على أربعة عوامل رئيسية. كان أولها تقدم الدراسات الطبيعية للأرض التي جمعت حولها بيانات أوفر ورسومات أدقّ، برّاً، وبحراً وجوّاً. وثانيها علاقة التاريخ بالجغرافيا التي اعتبرها المؤرخون في النصف الأخير من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين «المسرح الذي تجرى فيه الأحداث»، أي أنهم يوظفون البيئة الطبيعية كخلفية للتاريخ. وثالثها تعزيز مكانة الجغرافيا داخل المجتمع الفرنسي بفضل شخصيتين بارزتين : المؤرخ إميل لوفسور الذي عمل على ترسيخ تدريس المادة خاصة في المدارس الثانوية، والجغرافي الكبير إِلِيزي رُوكلي الذي حظيت مؤلفاته الناجحة في العقود الثلاثة الأخيرة من القرن الماضي باهتمام الناس على اختلاف مستوياتهم، أما رابعها فكان التقدم المحسوس في معالجة الحقائق الاجتماعية التي انكب على دراستها **فرِدِريك لُپْلي**. * Frederic Le Play

وبالاضافة إلى هذه الاعتبارات العلمية قد تجدر الإشارة أيضا إلى الأوضاع الخاصة التي أحاطت بنشأة هذه المدرسة المتميزة. ففرنسا، وإن كانت قوة استعمارية، فهي ما تزال بلداً زراعيا في طور التصنيع، يشكو من أوضاع خطرة طبعت عهد الجمهورية الثالثة بعد هزيمة 1870 وما واكبها من أحداث اتصفت بالاضطراب السياسي والتراجع الاقتصادي والتوتر الاجتماعي.

تلك، إجمالًا، الظروف والملابسات التي تأسست فيها المدرسة الجغرافية الفرنسية في الربع الأخير من القرن الماضي بزعامة المؤرخ فدال دُلَبْلاش الذي تحول إلى الجغرافيا وهو يسعى إلى التقريب بين منهج الجيولوجي ومنهج المؤرخ، فراح ابتداءاً من سنة 1890 ينظم العمل الجغرافي ويطوره ويهذبه إلى أن تبوأت الجغرافيا المكانة الرفيعة.

1.1.2 ـ الوضع الأكاديمي للجرافيا

لم تكن فرنسا، سنة 1809، تتوفر إلا على كرسي واحد للجغرافيا أصبح شاغراً بعد موت **هِمـلي*** وهو أصلًا مؤرخ لم يؤثر قط على الجغرافيا الحديثة. وفي سنة 1892 أنشىء كرسي آخر عهد به إلى **دِيبْـوا***، الذي كان

* A. Himley
* A. Dubois

يدرس جغرافيا المستعمرات والذي اشترك مع دُلَبْلاش في إصدار «الحوليات الجغرافية». ثم خلفه عليه **بِرْنار***.وفي سنة 1893 تم تأسيس معاهد بلِيلْ و لِيونْ ونَانْسي. وفي سنة 1900 عينت كوكبة من المدرسين اللامعين بكل أنحاء البلاد : فدال دُلَبْلاشْ بالسُّربون، دِمَرْطون برِينْ، **كامينا دِلْمَايْدا*** ببُورْدو، **لِسْپانْيولْ*** بلِيون، **بِرْنار** بالجزائر و **بْرُون*** بفرِيبُرْچْ بسويسرة. هذا في الوقت الذي كان فيه بعض المؤرخين يلقون في بُزَنْسونْ وكلِرْمُون فِرَانْ والكلـيج دِفـرانس دروساً في «الجغرافيا التاريخية». وهي كما يقول دِيكَنْسُن «مادة ضحلة تستخدم كخلفية في دراسة التاريخ، وبالأخص تاريخ الارتياد وأسماء الأمكنة واالتقسيمات الحدودية»[16].

* A. Bernard
* Camena d'Almeida
* Lespagnol
* Jean Bruhnes

16
Dickrnson R.E، سابق عن محمد علي عمر الفرا، سابق، ص 56.

هكذا كان الوضع حينما تسلم دُلَبْلاشْ كرسي الجغرافيا سنة 1899 خلفاً لهِمْلي، بعد أن كان يعمل بالمدرسة العليا للأساتذة. وفي عام 1906 كانت الجامعات الفرنسية تتوفر على سبعة وعشرين أستاذاً ومحاضراً في الجغرافيا. وبعد الحرب العالمية الأولى دخلت المادة كل الجامعات وكان أغلب أساتذتها تلاميذ لـدلَبْلاشْ.

وقد تجدر الإشارة إلى أمرين غالباً ما حجبهما النجاح الباهر الذي حققته الجغرافيا الفيدالية : الأول ارتقاء الجغرافيا السياسية عـلى يد عالمين كبيرين : **أنْدري سِچْفريد***و **جَانْ أنْسِلْ***[17]، والثاني ازدهار جغرافيا المستعمرات التي أنشيء لها أول كرسي بباريس سنة 1892، ثم كرسي ثـان بنـفس المـكان في عام 1937 شغلـه **شَـارْل رُبْكان*** حتى وفاته عام 1963، وزيادة على الكرسيين هذين، نظمت كراسي شبيهـة بالأقاليم في ستراسْبُورغ وإكْسْ أنْ بْرُفَانْسْ وبُورْدو سنة 1946، ثم في السنـة الموالية أسـس كرسيان في «مدرسة فرنسا لما وراء البحـار»*، التي أنشئت عام 1889، وبجانب هذه الكراسي العديدة كان هناك كرسيان آخران : أحدهما بكلية فرنسا يشغله **پِـيِّرْ چُورُو*** ويعنى بالجغرافيا المدارية، والآخر بالجزائر العاصمة تعاقب عليه بالتوالي : **هـارْدي*** ثم **بِرْنَارْ** ثم **جُـوثْـيي*** وقد توج أعمال هؤلاء الجغرافيين الذين نشروا العديد من البحوث حول آسيا والعالم العربي شرقا وغرباً، أطلس رائع للمستعمرات الفرنسية الذي ضم مساهمات كل من بِرْنَارْ و رُبْكَانْ و **وِيلَـرْس***.

17
كان جَانْ أنْسِلْ تلميذاً لدِيمَنْجون Demangeon وألف رسالة لنيـل الدكتوراة عن مقدونيا سنة 1930 وله دراسات في الجغرافيا السياسية للبلقان وبلدان أوروبا الوسطى. وقد كان من معاريضي النازية ومات في معتقلاتها أثناء الحرب العالمية الثانية. أما سِچْفرد فقد ظل يشتغل بالبحث في الجغرافيا الاقتصادية والسياسية مدة طويلة «بالكليج دفرانس» وقد منحته كتاباته سمعة عالمية جعلته يلتحق بالأكاديمية الفرنسية سنة 1945.

* André Siegfried
* Jean Ancel
* Charles Robequain
* Ecole de France d'outre Mer
* Pierre Gourou
* Hardy
* Gauthier
* Wealersse

2.1.2 ـ الخصائص الكبرى للمدرسة الفرنسية

إذا كانت الجغرافيا العلمية قد تأسست في النصف الأخير من القرن التاسع عشر على يد الألمان، فهي ستعرف في الشطر الأول من القرن الموالي عصراً ذهبيا بفضل الفرنسيين. وقد اشتهرت هذه المدرسة الجغرافية التي طبقت سمعتها الآفاق، بالبحوث الإقليمية الدقيقة التي تنهض في رأي فِدَال دُلَبْلاشْ «بدارسة تفاعل القوى الطبيعية والحيوية المتحكمة في العالم وكيفية تبدلها حسب جهات الكرة الأرضية وتعقب تراكيبها وتداخلها».[18]

18 نقـلا عن : Clozier (René), **Histoire de la Géographie,** Paris, P.U.F, Collection Que Sais-je ? n° 65 p. 97.

1.2.1.2 ـ الكثافات البشرية : منطلق البحث الجغرافي

من القضايا التي شغلت بال الجغرافيين الفرنسيين في هذه الحقبة تفاوت التوزيع الجغرافي للجماعات البشرية، سواء من حيث خصائصهم أو من حيث إنجازاتهم. وهذا السؤال، على بساطته، لاشك أنه يقود الباحث بالضرورة إلى سؤالين آخرين : يتصل الأول بمسألة العلاقة بين الإنسان والبيئة، والثاني بمشكلة التقسيم الإقليمي للأرض. إن السؤالين كليهما قد سبق طرحهما كما نعلم منذ زمن بعيد، لكن الجديد في المسألة هو تبسيط طريقة معالجتهما بواسطة خرائط للكثافات؛ هذه الخرائط التي ستصبح المرحلة الأولى لانطلاق البحث.

وقد ذهب پُولْ كْلَفَالْ إلى القول، بعد أن ذكر أهمية التأثيرات الألمانية في الجغرافيا الفرنسية، بأن هذه الطريقة في تنظيم البحث الجغرافي وتبسيطها اجتهاد فرنسي أكثر مما هو اقتباس أجنبي. ثم تراه بعد ذلك يؤكد، تبعاً لغيره،[19] إن «فكرة الانطلاق من خرائط الكثافات هي فكرة فرنسية محض»[20]. ومع ذلك فإن الفكرة نفسها نجدها عند الجغرافي الانجليزي **هِرْبِرْتسُن***، الذي يقول : «إن خريطة توزيع كثافة السكان هي أعظم تعبير مباشر للاستغلال الاقتصادي الفعلي للبيئة الطبيعية»[21]. لكن لا يرجح أن يكون الانجليزي هو صاحب الفكرة بدليل أنه وهب جل حياته العلمية القصيرة للأبحاث الطبيعية في علم الأرصاد وعلم البحار والنبات. ولم يعن بالجوانب البشرية إلا قليلا، قبيل وفاته سنة 1915، أي بعد

19 Brookfield (H.C), **Questions in the human frontier of Geography, Economic Geography,** Vol 40, 1964.

20 Paul Claval, **Géographie humaine et économique contemporaine,** op. cit, pp. 60-61.

* **Andrew John Herbertson 1865-1915**

21 فريمان ت.و، **الجغرافيا في مائلة عام،** سابق، ص 89.

مرور اثنتي عشرة سنة على صدور أهم مؤلف لأشهر جغرافي فرنسي في ذلك الوقت[22].

ويتفق كْلَفال و نارْدي* [23] ليرد الفكرة أساساً إلى إمِيلْ لُفسّوْر الذي لم يكن مؤرخا فحسب، بل كان أيضاً عالماً في الاحصاء والسكان. وهكذا انشغل لفسّورْ كثيراً بقضية تفاوت حركية الساكنة بأوروبا. وهذا ما جعله ينشر أول خرائط الكثافات بالألوان، المعروفة بخرائط تركان* كذلك نجد أن إلزي رُوكْلي كان حريصاً هو أيضاً على استعمال المعلومات الاحصائية التي حشدها لوضع كتابه «الجغرافيا العامة» إذ وَكَل إلى **كْلود پرون*** أمر إعداد الخرائط. فكان هذا الأخير أول من فكر في طريقة التمثيل المتناسب حسب أهمية الكثافة.

ويحسن بنا في هذا المقام أن نذكر أن فِدَال دُلَبْلاش حينما كان يعمل مدرساً بمدينة نَانْسي قد تعرف بأحد العاملين بمصلحة الغابات بالهند جاء ليتدرب بمدرسة المياه والغابات فأطلعه هذا الانجليزي على مرجع مشهور جداً هو «السجل الاحصائي لشبه القارة الهندية»*. ويعد هذا السجل أول إحصاء عصري يتم خارج منطقة يستوطنها الأوروبيون. وضمن هذا «الاحصاء» توجد أول المنشورات المتعلقة بكثافة سكان الهند لسنة 1870. وسيبقى هذا الاهتمام بالكثافة قائما حتى منتصف هذا القرن حيث لم يزل **ﭽورو** وتلاميذه يولون عنايتهم لوضع خرائط الكثافات والتساؤل عن ملامحها كما كان يفعل دُلَبْلاشْ[24]، الذي كان يقول : «إن وجود الكثافة المرتفعة للسكان له معنى الانتصار الذي لا يمكن تحقيقه إلا في ظروف نادرة وغير عادية»[25] وهو يطلق هذا الحكم على المجتمعات الحضرية والريفية على حد سواء لأن السيطرة على الموارد والتحكم فيها لا يفضيان فقط إلى تكون مجتمعات صناعية ضخمة كما في وادي الرُّور بألمانيا ووادي الـكَلايْدْ باسْكُتلَنْدا، بل يخلق أيضاً تجمعات زراعية هامة كتلك التي تعيش في الغوطات باسبانيا وعلى طول الأنهار بالصين.

إن الكثافة السكانية وإن كانت من أيسر الوسائل المسخرة لتدقيق حدود الأقاليم التي تمثل غاية البحث وذروته، لا تعفي الجغرافي من تقديم تفسير لها. فهو مخير بين حلين : قوة البيئة المحلية أو تأثيرات العالم

22

Vidal de la Blache, **Tableau de la géographie de la France,** op. cit.

*** Jean Pierre Nardy**

*** Turquan**

*** Claude Perron**

23

Nardy (J.P.), **Levasseur, géographie,** in Paul Claval, Jean Pierre Nardy, **Pour le cinquantenaire de la mort de Paule Vidal de la Blache,** Paris, 1968, Les Belles Lettres.

*** Census of India**

24

إن العناية بمسألة الكثافة أمر واضح عند فِدَال دُلبلاش حتى في آخر مؤلف له «مبادىء الجغرافيا البشرية» (Les principes de la géographie humaine, Paris, A. Colin, 1922)، الذي لم ينشر إلا بعد أربع سنوات من موته. وقد خصص المؤلف باباً كاملًا من الأبواب الثلاثة من الكتاب إلى موضوع : «توزيع السكان في العالم» قسمه إلى ستة فصول.

25

عن فريمان ت. و، **الجغرافيا في مائة عام**، سابق، ص 197.

الخارجي. لكن كيف يُعالج الموضوعين وكيف يَفهم العلاقات في كلتا الحالتين ؟ جواباً على هذين السؤالين وظفت المدرسة الفرنسية مفهوما أساسيا وهو مفهوم نمط العيش مع التركيز على موضوع النقل والمواصلات.

2.2.1.2. نمط الحياة ومسألة المواصلات : محور الدراسة الجغرافية

- **مفهوم نمط الحياة : الروابط العمودية**

لعل **فْرِدِركْ لُپْلِي***، الاقتصادي والمهندس الفرنسي، كان أقوى الباحثين وأبلغهم أثراً في تطور الجغرافيا في كل من فرنسا وبريطانيا. ولذلك لا يمكن الاستغناء عن عرض بعض أفكاره وآرائه التي تغذت منها الجغرافيا في هذين القطرين. كان لُپْلي يشعر بعجز في طريقة تحليل الظاهرة الاجتماعية بالنظر إلى وحدات القياس المستعملة من جهة، ومنهج الاستقراء العلمي من جهة أخرى. فجاء بديله الذي يعتمد على الأخذ بميزانية الأسرة كمؤشر اجتماعي قابل للتدقيق، بناءاً على أن حياة الأسرة وتنظيم المجتمع يرتكزان على طرق المعيشة، أي العمل. «واعتقد ليلي بأن خاصية العمل تتحدد بدرجة كبيرة بحسب طبيعة البيئة أي المكان. وبناءاً عليه نحصل على المعادلة المشهورة : المكان والعمل والأسرة. وتعتبر هذه المعادلة محور دراسات ليلي الاجتماعية والمنجرافية».

* Frederic Le Play 1806-1882

«ويرى لُپْلي بأن تطور السكان الأوروبيين مر بثلاث بيئات جغرافية مختلفة هي [البراري] والشواطىء البحرية والأراضي الغابوية، كما بحث في تقسيم المجتمع على أساس ثمانية أنماط وظيفية رئيسية بحسب وسائل العيش : المتوحشون، والرعاة وصيادو السمك، والحطابون والمعدنون والزراع، والصناع، والتجار وأعضاء المهن الحرة. وأهمية هذا التصنيف تكمن في أنه يحاول، ولأول مرة، تصنيف المجتمعات على أساس دراسات العينة العائلية إلى عدد من الأنماط وتوطنهم بحسب علاقتهم ببيئتهم الطبيعية»[26].

وهكذا حظيت هذه الآراء باستحسان كبير إلى أن أصبحت مع الجيل الموالي موضوعاً رئيسياً للبحث الجغرافي، خاصة بعد أن طورها دُلَبْلاش ليستخرج منها فكرته عن نمط الحياة. ومن الأشياء الهامة التي

26 محمد علي الفرا، **اتجاهات الفكر الجغرافي الحديث والمعاصر**، سابق، ص 58.

اقتبسها الجغرافيون عن منهج لُپْلي ضرورة البحث الميداني الذي أصبح أمراً شائعاً في فرنسا وبريطانيا، وعلى أساس المعادلة المذكورة : المكان والعمل والمجتمع. وهذا بالذات ما ستجليه أعمال دُلبلاش الذي كان يشجع تلاميذه على القيام بالتحريات الميدانية الدقيقة معتبراً بأن الجغرافيا الرفيعة هي تلك التي تجنى من الطبيعة مباشرة.

إن مفهوم نمط الحياة الذي يعد من أهم المفاهيم التي ظلت الجغرافيا البشرية المعاصرة ترتكز عليها ردحاً من الزمان، يعني العادات التي بها تؤمِّن جماعة بشرية بقاءها، أي كل المظاهر المادية لحياة الجماعات البشرية المتميزة بنشاط أساسي كالصيد أو القنص أو القطف أو الزراعة أو التدجين أو أنشطة متداخلة كالجمع بين الزراعة المستقرة والارعاء مثلا. ويشمل المفهوم عدداً من العناصر يمكن تقسيمها إلى : الأدوات المستعملة والمعطيات الاجتماعية والجوانب الروحية.

والجانب الأول يهم التقنيات كالمحاريث والنواعير وشباك الصيد، ويصف أساليب العمل كغرز الأرز وحرق الغابة واستخدام المراعي الجبلية. أما الثاني فهو يبرز العلاقات البشرية الناجمة عن مزاولة العمل داخل الجماعة؛ بينما يهتم الثالث بالطقوس التي قد تلعب دوراً في تنظيم العمل والحياة الاجتماعية كليهما. وهكذا يكون نمط الحياة عبارة عن مركب من التقنيات والأساليب قد يصل إلى حد التعقيد مع ظهور عناصر أخرى كالقانون الذي اعتبره دُلبلاش بمثابة : «بنية فوقية لنمط الحياة». فهو يرى أن الرعاة والزراع قد أصبحوا «متميزين بعضهم عن بعض بسبب عاداتهم وتصوراتهم الناجمة بالذات عن اختلاف نمط حياتهم»[27]، وهكذا فإن لكل نطاق جغرافي سلوك بشري خاص يسعى لاستغلال البيئة. ويتجلى هذا السلوك في نشاط السكان واستعمال أوقاتهم وأدواتهم وتنظيماتهم الخاصة من مراع وحقول وأسيجة ومسالك ومساكن ومرافق...

- **المواصلات : الحركات الأفقية**

يذكر دُمَرْطون في التمهيد الذي صدَّر به كتاب «مبادىء الجغرافيا البشرية» أن فِدال دُلَبْلاش، وإن لم ينه مؤلفه، قد تعرض مع ذلك لكل

27

Vidal de la Blache (Paul), **Les genres de vie dans la géographie humaine,** Annales de Géographie, 1911, p. 194.

المواضيع الهامة. ومسألة النقل تعد من بين هذه المواضيع، بدليل الحيز الكبير الذي خصصه لها المؤلف في الكتاب، أي باباً بأكمله اشتمل على أربعة فصول : الأول حول «وسائل النقل»، والثاني عن «الطرق»، والثالث يهم «السكك الحديدية»، أما الرابع فخاص بـ «البحر».

وهذا الباب الأساسي من الكتاب يوحي بإحساس صاحبنا بتعاظم أهمية النقل ودوره الفعال في محيط تتسارع فيه حركة العمران، بحيث أصبح التوازن الجغرافي لا يقوم على وجود علاقات عمودية بين الإنسان وبيئته فحسب (نمط العيش)، بل أيضاً على وجود علاقات أفقية تربط المجموعات البشرية المتنوعة والمتباعدة فيما بينها بروابط شتى. فكيف يمكن إغفال هذه الروابط وهي التي تسمح بتدفق الموارد الغذائية والأولية ومصادر الطاقة، وبالتالي بتنشيط الظاهرة العمرانية ؟ كيف يمكن تجاهلها وهي التي تساعد على انتشار التقنيات، وبالتالي على تقارب الأشكال الحضارية ؟

ويقول كْلَفَالْ : «إن فدال دُلبلاش يعتبر الموضوع من الأهمية بمكان لا سيما أنه يعبر عن الجدلية القائمة بين الكل والجزء، تلكم الجدلية التي أخذها عن رِتَـرْ والتي تمثل في رأيه سمة الفكر الجغرافي»[28]. ومع ذلك فإن كْلَفَال يرى أن فِدَالْ وتلاميذه لم يعمقوا تلك المبادىء ولم يستثمروها لأنهم كانوا جميعا يسعون إلى تحقيق هدف آخر.

28 Paul Claval, **Géographie humaine et économique Contemporaine,** op, cit, p 62.

3.2.1.2 ـ اللوحة الاقليمية : سَنَم الجغرافيا الفرنسية

إن موضوع الكثافات لم يكن غاية في حد ذاته بقدر ما كان وسيلة ومؤشراً عملياً يبرز اختلاف التنظيمات المكانية وفق مؤهلات طبيعية معينة. فغاية العمل الجغرافي هي التحليل الإقليمي. وكما هو معلوم ليست هذه القضية أمراً طارئاً، بل هي مسألة قديمة سبق طرقها من وجهات متعددة منذ منتصف القرن الثامن عشر، بالنسبة لفرنسا على الأقل.

وخلال العقدين الأولين من القرن العشرين تمت محاولات عديدة لتجعل من الجغرافيا الاقليمية دراسة منطقية تساعد على فهم العالم على أساس المعلومات التي جمَّعتها رحلات المستكشفين في مرحلة أولى، ثم اعتماداً على عمليات المسح الأولية التي أخذت تغطي بعض أنحاء المعمورة.

ثم بعد ذلك، ولأسباب شتى، كالتنظيم الاداري والاستغلال الاقتصادي أو التجهيز الخ...، أصبحت الدراسات المحلية تنتشر. وهذه الدراسات المحلية هي التي أبرزت أوجه التباين العديدة داخل المناطق الكبرى وجلّت الجوانب الشاذة الكثيرة في الأحكام العامة الشائعة قبل العشرينات من هذا القرن[29]. وقد تجمع بالفعل كثير من الدراسات المحلية ومن أهمها تلك التي قام بها الجغرافيون الفرنسيين.

29 أنظر ت. و. فريمان، **الجغرافيا في مائة عام**، سابق، الفصل السابع، الفقرة الرابعة (فكرة الإقليم)، ص 87.

من المعلوم أن جلّ جغرافيي القرن الماضي، وعلى رأسهم رِيتَرْ، كانوا يعتبرون العالم برمته مجالاً لبحثهم. ولقد كان في هذا مدعاة إلى الانتقادات التي وجهت إليهم، نظراً لاستحالة تناول موضوع بهذا الحجم واستيعابه على الوجه الصحيح. وهكذا ظهر اتجاه معاكس من خلال المجهودات الأولى التي بذلت في فرنسا لوضع أسس متينة لدراسة «الوطن».

لكن الاتجاه «الاقليمي» في فرنسا فكرة قديمة طرحت مع بداية القرن الثامن عشر حينما ظهرت الحاجة إلى إعادة النظر في تقسيم البلاد التي ورثت عن العهد البائد لما قبل الثورة أوضاعاً تتنافى والعدالة الاجتماعية نظراً للتركز الاداري المفرط والتفاوت الصارخ بين المقاطعات وتطاول الحكام. وللتغلب على هذه المخلفات نودي بإقامة تنظيم ترابي جديد حاول في البداية أن يستند إلى «المناطق الطبيعية ذات الصبغة المحايدة» لا سيما وأن الخرائط الأساسية أصبحت جاهزة ومتوفرة، إذ تم مسح البلاد مسحاً شاملاً في التسعينات من القرن الماضي.

وقبل هذا كان أحد كبار خرائطي منتصف القرن الثامن عشر، **فِلِيبْ بُواش*** قد تقدم بتقسيم طبيعي للبلاد اعتماداً على الأحواض النهرية. لكن هذا التقسيم سرعان ما ظهرت عيوبه وثبت عدم صلاحيته بسبب تجزيئه لوحدات بشرية لا تقبل التجزىء.

* Philippe Buache

غير أن الجيولوجيين كانوا هم السباقين إلى بلورة فكرة الإقليم وطرح مشروع متماسك على أساس أول : الخرائط التي وضعها **جيطارْ و مُني** والتي أوضحت، زيادة على المعالم الجيولوجية للسطح، أن البنية الباطنية للأرض تفسر إلى حد ما توزيع النباتات والموارد الفلاحية. ثم ها هو ذا **جِيرُو سُلَفي*** يضيف الجديد إلى الموضوع عند دراسته لمنطقة فِيفارِي. فبجانب

* Guittard
* Monnet
* Giraud- Soulavie

التنوع العِداني الذي يطبع السطح، هناك اختلافات مناخية ترجع إلى عامل الارتفاع. وهكذا يبرز إذاً مفهوم «الاقليم الطبيعي».

وفي سنة 1808 كتب **كُوكْبِيرْ*** بحثاً حول حوض باريس ميَّز فيه أقاليم مثل بُوصْ و چاتِيني، ثم في سنة 1817 وضع زميله **دُمَلْيُوسْ دَالْوا*** دراسة حدد فيها الأقاليم التي تنتمي إلى الزمن الثالث حول باريس ومنها بُوصْ وهي هضبة طباشيرية مترامية الأطراف متجانسة البنية تنتشر فيها زراعة الحبوب أساساً؛ ثم بْرِي وهو إقليم رطب تكثر فيه المستنقعات فوق تكوينات صلصالية؛ ثم چاتيني وهي منطقة منخفضة ورطبة، تربتها فقيرة تكسوها الغابة في غالب الأحيان.فهذه كلها وحدات لامراء فيها، تحمل أسماءاً خاصة وتطبع الحياة بطابع متميز.

* C. Coquebert

* J.J. d'Omalius d'Halloy

ولا شك أن هذه الإرهاصات هي التي دفعت **لُسْيانْ جَلْوا*** سنة 1908 إلى تأليف كتاب بعنوان «الأقاليم الطبيعية وأسماء الأقاليم» أوضح فيه أن أسماء الأمكنة في فرنسا قد ارتبطت منذ قرون عديدة بالأقاليم*، التي لم تكن تطابق أي تقسيم سياسي أو تنظيم إداري[30]. وهكذا مع توسع المسح وتدقيق الدراسات أصبح التراب الوطني ينقسم إلى وحدات طبيعية واضحة أخذت صورتها تترسخ عند الجميع بفصل تسمياتها القديمة والمتداولة بين الناس.

* Lucien Gallois 1875-1941

* Pays

30
بعدها قام چَلْوا، خلال الحرب العالمية الأولى، بدراسات اقليمية شتى داخل وطنه (حوض الصّار ومناطق الحدود الشمالية) وخارجه (وسط اليونان وسالونيكا ومنطقة السويس).

ثم جاء المؤرخون يدلون بدلوهم في الموضوع مؤكدين على سداد رؤية جِرُو سُلَفي الذي كان قد تفطن إلى التسميات العريقة التي لقبت بها مختلف جهات إقليم فِفاري. وسرعان ما تبين الأمر نفسه في أماكن عديدة حتى اعتبرت الظاهرة قاعدة وليس استثناءاً كما أثبت ذلك المؤرخ **أُجُسْت لُنيون*** من خلال أبحاث دقيقة أكدت التطابق بين الأقاليم وحدود الأبرشيات في العهد الأخير من الامبراطورية الرومانية.وهكذا يبرز مفهوم المنطقة التاريخية الذي غالباً ما يوافق الاقليم المحدود.

* Auguste Longnon

إن المناطق التي أخذ الجيولوجيون يرسمونها على الخريطة لا تعيش منعزلة عن بعضها البعض، بل تندرج في وحدات أوسع تمثل جسماً متكامل الأطراف، أي الأمة؛ وهي الفكرة التي أصبحت تتبلور عند

منتصف القرن التاسع عشر والتي عبر عنها الجيولوجيان **إلـي دُبُومُو*** و **دُفْرِنْـوا*** تعبيراً طبيعياً. فهما يعتقدان أن الكيان الفرنسي يقوم على اعتبارين جيولوجيين يتمثل أحدهما في قطب تجمع وهو حوض باريس الذي يجذب إليه المياه والناس، والآخر في قطب تفريع يعنيان به الكتلة الوسطى من الأراضي المرتفعة التي أطلقا عليها اسم الهضبة الوسطى. وعليه فإن وحدة التراب الوطني لم تتحـقق في رأيهما إلا عند ما تمت السيطرة على المناطق الجنوبية من البلاد وأُحكمت المجازات النافذة إلى الهضبة (بُرْجُونْي، لُـوراَجـي و پُـواتـو.

* Elie de Beaumont

* Dufrenoy

ومثل هذا التصور العُضواني*[31] نجده عند المؤرخ العَلَم **مِشْلي***، الذي ساهم هو أيضاً في ترسيخ فكرة الإقليم، فانطلاقا من مراجعته لهِرْدَرْ خلص مِشْلي إلى ضرورة ربط تاريخ الشعوب بمسرح الأحداث والبيئة التي حكمتها. وهو ما عبر عنه في كتابه المعروف «تاريخ فرنسا» (1833 – 1867) الذي تمثل مقدمته لوحة ترسم تنوع البلاد واختلافاتها الاقليمية التي تستمد منها الأمة القوة والشخصية والعبقرية.

* Organicisme

* Jules Michelet 1798-1874

31 «العُضوانية تقـول بأن وظائف المجتمع تسير طبقاً للقوانين البيولوجية التي يتميز بها الكائن العضوي مع اعتماد الأجزاء أو الأعضـاء المختلفة على بعضها البعض فتكوِّن الجسم أو المجتمع ككل» أحمد زكي بدوي، **معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية**، سابق، ص 297.

أما بالنسبة للجغرافيين، الذين كان لجلهم آطلاع واسع على التاريخ، بحكم تخـصصهم الأصلي كفـدال دُلَبْلاش، أو بالنظر إلى تكوينهم العلمي وثقافتهم العامة، فإن فكرة الإقليم التاريخي فكرة معروفة لديهم كفرة الاقليم الطبيعي التي أرساها الجيولوجيون بحثاً وتدريساً كما فعل **أَلْبير دُلَپَّرا***، أحد أساتذة دُلَبْلاش الذي نهل من المعينين معاً مع الأخذ بجدلية المقاييس كما كان يراها رِيتَر. ولا شك أن هذا هو السرّ الذي جعله يرسم للأقاليم تلكم اللوحات التي تعج بالحركة وتنبض بالحياة. فدُلـبلاش يجيد الحديث عن الطبيعة والناس معاً، وهم يتحركون ويعملون ويتعاملون، لا سيما أنه على وعي كامل بالدور الذي أصبحت تلعبه وسائل المواصلات العصريـة – خاصة منها القطار – وبتوسع العمران وتطور الصناعة التي أخذت جميعها تشكل مشاهد جديدة غير مألوفة وترسم وحدات جغرافية متميزة. فـدُلَبْلاش يستشعر تماماً أهمية هذا التمايز الجغرافي ويجعل منه وسيلة مفضلة للتحـليل على غرار الرؤية العُضوانية لمِشْلي، إذ تفسر الجزئيات الكليات وتؤكد على فكرة التكامل كما يبرز ذلك كتابه الرائع «لوحة فرنسا

* Albert de Lapparent 1839-1908

الجغرافية»[32]؛ هذا الكتاب الذي وصفه هِرْبِرْتسن بأنه «إضافة جديدة إلى الأدب وإلى جغرافيا فرنسا معاً».

3.1.2 ـ كبوة الجواد

إن الجغرافيا الفرنسية، وإن كانت أكثر المدارس اهتماماً بالجوانب الاجتماعية[33]، سواء بدراسة أنماط العيش أو بتحليل دور المواصلات، لا يمكن اعتبارها علماً اجتماعياً. فـفدال دُلبلاش نفسه، ورغم ما ذكر، له موقف في غاية الوضوح بهذا الصدد حيث يقول بصريح العبارة : «الجغرافيا علم مكان وليست علم إنسان»[34]. وهذا هو السبب في عدم تدقيقه وتعميقه للمفاهيم الخصبة التي كان ينطلق منها والتي لا تعدوا مجرد أدوات تمكنه من وضع تفسير لاختلافات السطح. وهو ما يعتبره دُلَبلاش الهدف الأسمى للجغرافيا. وبهذا تكون المدرسة الفرنسية امتداداً للرؤية الريتيريَّة التي لقحها دُلبلاش وتلاميذه بتجديد موضوع الإنسان والبيئة عبر مفهوم نمط العيش.

ولعل من أهم أسباب تنكب الجغرافيين عن المسألة الاجتماعية وعدم الخوض فيها هو ذلكم الجدل الحاد الذي قام في السنوات الأولى من القرن (1900 ـ 1905) بين الجغرافيين من جهة وأتباع مدرسة دُورْكَايْم الاجتماعية من جهة أخرى، حيث وجه هؤلاء انتقادات لاذعة إلى الجغرافيا البشرية، وخاصة إلى آراء رَتْزِلْ في موضوع البيئة[35]. ولنستمع إلى أَنْدري مِنْيـي وهو يتحدث عن النازلة فيقول : «يبدو أن المدرسة الاجتماعية، وهي في غمرة نجاحاتها الأولى والمشروعة قد تعصبت لرأيها ولم تعد تسمح إلا به دون غيره. فهي تنكر على الجغرافيا رؤيتها الإقليمية بدعوى وجود مجتمعات بدون قاعدة ترابية. فهي تحب استبدال المرفولوجيا الاجتماعية بالجغرافيا»[36].

ولقد أفضى هذا النزاع، رغم فتور حدته فيما بعد، إلى تصلب موقف الجغرافيا معلنة براءتها من العيوب والنقائض المنسوبة لها، مؤكدة انتماءها الطبيعي ومعتزة بدقة منهجها. «فلا شيء يستطيع أن يقف أمام الحركة الفدالية»[37]. ومع ذلك فلابد من الاعتراف بأن الحادث قد أصاب الطرفين معاً بأضرار بليغة إذ فاتتهما فرصة سانحة للتلاقح المثمر والتبادل المفيد. فهو على كل حال أثنى الجغرافيا عن المضي قدماً في العناية بالمسألة

32

Vidal de La Blache (Paul), **Tableau de la géographie de la France** (Histroire de France. d'E. Lavisse, t.I), Paris, Hachette, 1903, 395p.

33

تدقيقا لهذه النقطة يمكن الرجوع إلى آراء بعض الكتاب، نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر :

Derruau (Max), **Précis de géographie humaine,** 1963 op. cit, pp 8, 9.

Claval (Paul) Nardy (J.P), **Pour le cinquantenaire de la mort de Paul Vidal de la Blache,** Les Belles Lettres, 1968.

Meynier (André), **Histoire de la pensée géographique en France,** Paris PUF, 1969.

Buttiner (Anne) **Society and milieu in the french geographic tradition,** A.A.A.G. Monograph, n° 6, Chicago, Rand Mac Nally, XIV, 1971.

Lacoste (Yes), **La Géographie,** in **La philosophie des sciences sociales de 1860 à nos jours,** Paris, Hachette, 1973.

34

«La géographie est science des lieux et non science des hommes» cf Paul Viadal de la Blache, **Des caractères descriptifs de la géographie,** Annales de Géographie, Vol 22. 1973.

35

حول هذه المساجلة بين الجغرافيين والاجتماعيين راجع :

Berdoulay (Vincent), **The Vidal-Durkheim debate,** in David Ley, Marwyn Samuels (édit),

الاجتماعية وضمها إلى اهتماماتها الطبيعية والتاريخية وأقعد الجغرافيين عن التوسع والتعمق في كل الجوانب الهامة التي أثارها فِدَال كموضوع المواصلات.

غير أن متاعب الجغرافيا لم تنحصر في التعامل مع المسألة الاجتماعية فحسب، بل امتدت كذلك إلى ميدان التاريخ على إثر الملاحظات والانتقادات التي عبر عنها لُسْيان چَلْوا بشأن تهور الجغرافيين وسوء تطبيقهم لمفهوم الإقليم التاريخي الذي لا يطابق الاقليم الطبيعي المطابقة التامة[38]. ولقد لقيت هذه الملاحظات والانتقادات آذان صاغية. لكن الجغرافيا أخذت للأسف تنغلق على نفسها وتروم عن العلوم الاجتماعية الأخرى بالتدريج مركزة اهتمامها أساساً على المظاهر الطبيعية. ولا يستبعد أن تكون تلك التفاعلات من أهم العوامل المفسرة للمكانة العالية التي ستحتلها الجيومورفولوجيا فيما بعد.

إن هذا التراجع أمام العصوبات والعقبات المتوالية كان لا محالة سببا في إضعاف المدرسة الفرنسية التي آثرت على المعركة الفكرية الانسحاب والتقوقع وإن حاولت التوفيق بين اتجاهين من الاتجاهات الثلاثة الكبرى التي تحددت في القرن الماضي حيث وضعت مسألة البيئة في إطار إقليمي يكاد يحقق الرؤية الطبيعية التأليفية القائمة على «الموضوعية العلمية» التي تقتضي محاربة الميتافيزيقا والتصدي للفلسفة[39].

2.1.4 ـ مدرسة متنوعة

إن المدرسة الفرنسية، رغم وزن مؤسسها فدال دُبلاش وشخصيته الفذة، مدرسة تمتاز بتعدد علمائها وتنوع أوجهها. ومن أشهر أقطابها أيضاً جان بْرونْ أحد تلاميذ دُبلاش. وهو وإن كان يشاطر أستاذه كثيراً من الأفكار، لا يلتقي معه بخصوص المنهج. فبْرون لا ينطلق من خرائط الكثافات كما يفعل فدَالْ، بل من المشهد، على غرار الجغرافيين الألمان لأن المشهد في رأيه عنصر محسوس يسمح باحترام المنهج الوضعي وبالتالي بتحقيق الدقة المتوخاة. ولهذا كان بْرون أميل إلى التاريخ الطبيعي للأرض وتنوعها من دُبلاش[40] كما يبدو ذلك خلال كتابه «الجغرافيا البشرية» الذي

Humanistic géography, prospects and problems, Chicago, Maaroufa Press, 1978; Cathrerine Rhein, **La géographie, décripline scolaire ou science sociale,** Revue française de Sociologie, vol 23, 1982.

36

Meynier (André), **Histoire de la pensée géographique en France,** op, cit, pp 33-34.

37

عينه

38

حول هذا الموقف لچَلْوا أنظر :

Meynier (André), **Lucien Gallois,** in **Les Géographes français,** Comité de Travaux historiques, Paris, Bibliothèque Nationale, 1975.

39

قد توجد بعض الحالات الشاذة بهذا الشأن، لكن يظل هذا هو موقف دُبلاش كما تذكر ذلك :

Robic (Marie-Claire), **La conception de la géographie humaine chez Vidal de la Blache d'aprés les Principes de géographie humaine,** Les Cahiers de Fontenay, n° 4, Géographie, E.N.S, de Fontenay aux roses, Sept 1976.

40

Jean Mariel, Bruhnes Delamarre, **Jean Bruhnes** in **Les géographes français,** op. cit.

تشير هذه الدراسة إلى النشاط الديني الذي قام به جان برون كنصراني ملتزم في الميدان الاجتماعي، وهو أمر يتصادم مع موافقة العلمية واهتماماته الجغرافية التي لا تتعرض للانسان إلا من خلال الآثار التي يخلفها على سطح الأرض !

نشره سنة 1900 والذي لم يتوفق فيه، على حد قول كلَفـالْ، من إقامة بناء فكري متكامل لم يتجاوز اقتراح تصنيفات عامة لا تترابط فيما بينها بروابط محكمة. وهي التصنيفات التي استلهمها من فكرة التقابل بين الاستعمالات النافعة للأرض والضارة بها* كما عبر عنها **فْـرِدْرِش*** [41] وهي فكرة قد تستطيع تجديد الرؤية البيئية لو لم يكتف برونْ بتقديمها كصنف إضافي من أصناف المشاهد واستعمالات الأرض التي يقترحها.

لكن إذا كان برونْ لم يستطع توضيح المبادىء التي ينـبني عليها العمل الجغرافي بالقدر الذي ساهم به دُلبلاش، فهو يدعو الجغرافيين، من خلال ملاحظاته البشرية، إلى التفتح على السِّلاليين والاستفادة من المهتمين بالتراث لأنهم يساعدون على فهم تـطور السكن والتقنيات والسلوكات التي تلعب كلها دوراً هاماً في تنوع سطح الأرض. إن هـذا الاتجاه الذي سار فيه أيضاً **بيـيـر دِفَنْطين*** يعتبر من الصفات المميزة للبحث الجغرافي بفرنسا في هذه الحقبة.

أما ألّبير دُمنجون* فهو أقرب إلى تصور دُلبلاش منه إلى رؤية برونْ كما يتـضح ذلك من دراساته الاقليمية، سواء منها أطروحته الشهيرة حول سهل يــكارْدي أو مؤلفاته المعروفة حول الجزر البريطانية، بلجيكا والبلاد المنخفضَة [42]. لـكنه أشد اهتماماً بقضايا العصـر ومشاكل الساعـة [43]. لذا نراه يستعين، كلما دعت الضرورة إلى ذلك، بالعلوم الأخرى كالاقتصاد والاجتماع [44]. ولعـل هذا التفتح هو الذي جعله يعنى، أكثر من غيره بالتفسير الدقيق المنهجي ويأخذ بالطريقة النفعية كما هو واضح في دراساته للسكـن الريفي بالخصوص.

إضافة إلى هذين العلَمين البارزين، اللذين كانت لهما أيادي بيضاء على المدرسة الفرنسية، هناك كثير من الأسماء اللامعة التي لها إسهاماتها القيّمة مثل **جُولْ سيونْ***، الذي تميز بربطه الدائم للمظاهر المكانية بالجوانب الاجتماعية والثقافية [45]؛ و **رَاوُول بْلَنْشارْ*** «أحد أعلام الجغرافيا الاقليمية الفرنسية». ناهيك طبعاً عن الجيومورفولوجيين الذين تألق بعضهم بدراسات تأليفية حول مناطق معينة. فكَتب دُمَرْطون عن أوروبا الوسطى، بينما اهتم **بُليـجْ*** بأمريكا الشمالية.

41

Paul Claval, **Géographie humaine et économique contemporaine,** op. cit, p 66.

* **Raubwirtshaft**

* **E.Friedrich**

42

Demangron (Albert), **La plaine picarde : Picardie, Artois, Cambresis, Etude de géographie sur les plaines de craie du nord de la France,** Paris A.Colin, 1905; id **Les Iles Britanniques,** Paris, A. Colin, 1927, id **Belgique, Pays, Bas, Luxembourg,** Paris, A. Colin, 1927.

* **Pierre Desfontaines**

* **Albert Demageou**

43

لألّبير دمنجون في هذا الباب كتابان أساسيان :

Le déclin de l'Europe, Paris, Payot, 1920.
L'Empire britanniqe, Etude de Géographie et ethnologie, Annales Colin, 1923

44

للإشارة فإن دمنجون كان عضواً في مجلس إدارة مجلة «الحوليات الاجتماعيـة» «Les Années Sociologiques»، التي أسسها دورْكايْم.

45

Sion (Jules), **Les paysans de Normandie orientale,** Paris, A. Colin, 1908; id **Bases géographiques de la vie sociale, Habitat rural,** Les Années Sociologiques, 1936; id, **Géographie et ethnologie,** Annales de Géographie, Vol 46, 1937.

* **Jules Sion**

* **Raoul Blanchard**

* **Henri Baulig**

2.2 ـ المدرسة الألمانية : البعد الحضاري في الجغرافيا

إن تألق المدرسة الفرنسية خلال النصف الأول من قرننا هذا لا يمكن أن يحجب عنا ما كان للمدرسة الألمانية من شأن رغم التردي الذي أصابها والهبوط الذي آلت إليه بعد وفاة مؤسسي الجغرافيا المعاصرة هِمْبُلْت و رِيتَرْ. فهي إذاً مدرسة عريقة وذات أصالة؛ امتد إشعاعها حتى خارج مهدها، فانعكس بدرجات متفاوتة على جل المدارس الأخرى، وأثر في أغلب اتجاهات الجغرافيا.

1.2.2 ـ نشأة مضطربة في ظروف حساسة

إذا كان تأسيس الجغرافيا العصرية عملًا ساهم فيه كل من هِمْبُلْت و رِيتَرْ فلربما رجع الفضل إلى هذا الأخير في تهذيب المادة وتوجيهها[46]؛ إذ عكف على صياغة منهج علمي وفق فلسفة غائية تجمع بين الطبيعة والإنسان في وحدة متكاملة. لكن رِيتَرْ لم يؤسس مدرسة، بل لم يكن له حتى تلاميذ، باستثناء رُكْلي. ورغم ذلك ظلت أفكاره تحيا لما يزيد عن نصف القرن، أي إلى السنوات الأولى من القرن التاسع عشر، حتى احتضنها الهواة. بينما فرطت فيها الجامعات وهكذا بار الفكر الريتري فتدنت الجغرافيا إلى الدرك الأسفل من العلوم، مكتفية بدور تجميع المعلومات وتقديمها للتاريخ و «الاحصاء»[47].

1.1.2.2 ـ سنوات عجاف

وهكذا باتت الجغرافيا غائبة عن الجامعة حتى عام 1875 وهي السنة التي أنشىء فيها عدد من الكراسي. لكنها لن تستقل مع ذلك إلا سنة 1881 في أعقاب أول مؤتمر للجغرافيين الألمان ببرْلين الذي تمت فيه المطالبة بالفصل بين التاريخ والجغرافيا في برامج التعليم. وبهذا أصبح للمادة كيانها؛ إلا أنها سرعان ما قوبلت بالتشكيك والريبة والحذر من قبل التخصصات التي اعتادت بسط نفوذها عليها؛ وعلى رأسها الطبيعيات والتاريخ اللذين لن تفلت من هيمنتهما إلا بشق الأنفس. فها هو ذا الباب مفتوح لكل متطفل والفرصة سانحة لكل متطاول مثل پِشِلْ*؛ هذا الذي كان يشتغل

46 هذا ما يستقر عليه رأي جل الباحثين مثل :
Schultz (Hans-Dietrich), **Die deutschsprachige Geographie von 1800 bis 1970. Ein Beitrag zun Gesschichte ihrer Methodologie.** Abhandlungen des Geographichen Instituts. Anthropogeographie, Band 29, Universität Berlin, 1980.

47 Holtz (Jean Marc), : عينه، عن Lectures, **Radiscopie de la géographie allemande,** l'Espace Géographique, revue trimestrielle, Tome XII, n° 2, avril-juin, 1983, pp 157-159.

* **Oskar Peshel**

بالقانون والصحافة، ثم راح ينصب نفسه جغرافيا، يتعرض لِرِتِّرْ وينتقده ويعمل على نشر الجغرافيا وتعميمها حتى حقق لنفسه شيئاً من الشهرة[48]. وإن دلَّ هذا على شيء لدل على عدم وضوح «علم الجغرافيا» من جهة، وانقطاع الفكر الرِّتِري من جهة أخرى. لكن الأمَر والأدهى من ذلك هو ما أصبح يبغيه بعض هؤلاء كالجيومورفولوجيّين **فْروبَلْ*** وَ **جِرْلَند***، اللذين أخذا يناديان بالتفريق بين علوم الأرض وعلوم الإنسان وإقامة جغرافيا طبيعية مستقلة الذات.

48 Jean Marc Holtz, **Radioscopie de la géographie allemande,** op. cit.

* Frobel
* Gerland

2.1.2.2 ـ عـودة الروح

وفي خضم هذه الأحداث الجسام استطاع **رَتْزَل** بفضل كتابه «الجغرافيا البشرية»*، الذي نشره سنة 1882 حماية الإرث الرِّتِري من الضياع التام من جهة، والحفاظ على وحدة المادة من جهة أخرى. غير أن رَتْزَل رغم مكانته الأكاديمية السامية لم يكن له في بداية الأمر أنصار يؤازرونه وتلاميذ يظاهرونه بسبب الحتمية التي بنى عليها معتقداته البيئية. أما آراءه حول الجغرافيا السياسية فهي، على تماسكها، ستظل تياراً ثانوياً لن تبرز قيمتها إلا في العشرينات من هذا القرن.

* Anthropogeographie

أما **إدْوَرْ هَانْ***، الذي يعد اليوم من رواد الجغرافيا الحضارية العصرية فهو ركز اهتمامه على تاريخ الزراعة منذ أن أصبح الإنسان يستأنس الحيوان ويزرع النبات. فقابل الأنظمة التي تستعمل المجرفة بالتي تستخدم المحراث، طارحا في نفس الوقت قضية العلاقات بين الوسائل والمعتقدات. هذا في الوقت الذي أثار فيه **فرِدْرِش*** قضايا أساسية في البيئة البشرية بجانب اهتماماته بالجغرافيا الاقتصادية التي عبَّر عن أهدافها تعبيراً سليماً وناقش طرقها ومناهجها. في حين كان **رِختوفَنْ*** يدافع، منذ السبعينات، عن التصور الاقليمي للجغرافيا على غرار هَمْبُلتْ وريتَرْ. وهو الهدف الذي عمل تلميذه البارز ـ **ألْفرِدْ هِتْنَر*** على تحقيقه.

* Edouard Hann
* E. Friedrich
* Ferdinand von Richthofen
* Alfred Hetner

لقد تفطَّن هِتْنِرْ إلى ما أخذ يداهم الجغرافيا من صعوبات جمة قد تعرِّض وحدتها إلى الهلاك المحقق، لذلك سارع إلى الاعتناء بقضية المنهج وتأصيل المادة انطلاقاً من قناعاته الرِّيتِرية من جهة، وتعاليم معلميه من جهة

أخرى أمثال **كِرْشوف*** و **رِختوفن** و **فيشَر***. فإذا كان توزيع الظواهر على سطح الأرض ميدانا دراسيا لا ينازع الجغرافيا فيه أحد كما يرى هِتْنَر فإن موضوعها ينصب على تحليل التنوع الإقليمي للقشرة الأرضية.

* Kirchoff
* Fisher

وظل هِتْنر من سنة 1875 إلى سنة 1930 يدافع بعزم وثبات عن رأيه داعياً بقوة إلى الأخذ بالمنهج الاقليمي مستشهداً بكَـنْط أو ببعض الفلاسفة الكنطيين الجدد مثل رِكَرْت و وِنْدَلْبَنْد فهو يرى «أن المقصر في أمر الجغرافيا الاقليمية ضال عن الجغرافيا نفسها : فمن لم يفهم ذلك ما كان جغرافيا حقّاً»[49]. ولقد كان هِتْنر مسموع الكلمة فاتخذ من مجلته الشهيرة* منبراً له حتى أن هَرْشورْن راح يعمل لنشر أفكاره والترويج لها. ورغم ذلك لم يكن لهِتْنر على الجغرافيا الألمانيـة ما كان لدُلبلاش على الجغرافيا الفرنسية من ريادة وقيادة، كما أنه لم يرق بها إلى نفس المراتب.

49

عينه، ص 158.

* Geographische Zeitchrift

ويوعز هذا إلى اختلاف الأسلوب في المعالجة الاقليمية عند المدرستين. فالطريقة الألمانية تكتفي بوصف الخصائص الطبيعية الكبرى من تضاريس ومناخ ونبات وربط بتاريخ الشعوب[50]. ومع ذلك فإن المدرسة الألمانية لا تعير التاريخ الاهتمام اللازم إذ تغفل عن إبراز الوحدات الاقليمية التي يستشعرها الناس، بخلاف ما يفعله الجغرافيون الفرنسيون كما نعلم. ومهما يكن من أمر فإن التصور الاقليمي عند **هِتْنر** لم يكن ليغير من أوضاع الجغرافيا العامة كما رسمها رِخْتوفَن.

50

وهذا هو بالذات النهج الذي سار عليه هِتْنر في كل دراساته الأقليمية، دونما تغيير أو تطوير.

3.1.2.2 ـ حركة التجديد

ظلت الجغرافيا الألمانية، إلى ما قبل الحرب العالمية الأولى، ورغم ما شهدته من نقاش، تعيش حالة اضطراب بسبب الغموض الذي بقي يكتنف موضوعها. ويذكر **جيتْسبِك***[51] أن مفهوم «اللاندسكيپ» الذي أخصب الجغرافيا الألمانية وبعثها من مرقدها، مفهوم ولد في أحضان المدرسة الابتدائية أي ما سمي بالجغرافيا السردية أو الموسوعية. ويشير **بُوص***(1869) في هذا الصدد أنه كان للمدرسة منهج خاص في تلقين المادة، ينطلق من القرية أو الإقليم الصغير* ليضم بالتدريج هالات متوالية تغطي تراب الإقليم* ثم مجالاته الهامشية. وهذه الطريقة التي لا شك أنها

51

Hans Dietrich Schultz, **Die dentschsprachige geographie von 1800 bis 1970,** op. cit.

* Geitsbech
* Landerkunde

* Böses

* Heimat

* Vaterland

تتوافـق وتصور المكان عند الطفل هي التي شكلت الخط الفكري لعدد من الباحثين مثل **جِرَانو*** أو حتى **مولْـس***. وهكذا جنت الجامعة ثمار تجربة المُدرسة كما هو وارد عند كِرْشوف الذي اشتهر كباحث مقتدر ومدرس ماهر.

ومن الغريب حقا أن تسكت المراجع الألمانية عن الدور الذي قام به **فِلْهَـلْم هَيْنرِش ريل*** [52] بالنظر من جهة إلى الدور الذي اضطلع به على مستوى التعليم، ومن جهة ثانية إلى المكانة الرفيعـة التي كان يحتلها في الساحة الثقافية للبلاد في منتصف القرن. فـريـلْ هذا ينتمي إلى فئة المثقفيـن المحافظين الذين هالهم وضع المجتمع وما سار إليه. فهـم يرون أن المجتمع بناء مرصوص يشد بعضه بعضاً، تجمعه المصالح المشتركة وتربطه نفس القيّم والمثل. وكا رِيل يشعر بهشاشة هذا المجـتمع الذي لم يحـقق الاندماج بين البرجوازية التقليدية والطبقة الكادحة الـصاعـدة. فهل من سبيل لدفع مكاره هذه الأخطار ؟ نعم يقول رِيلْ وذلك بفـضل التعليم الذي يقدر على تربية المواطنين وإشعار الجميع بالمصير المشترك، الأمر الذي يستدعى الحفاظ على التقاليد التي بدونها ينهار المجتمع وتتقوض أركانه. لكن رِيلْ كان يرى أن الكتب وحدها لا تكـفي، لذا فهو يلح على استغلال كل الفرص المتاحة لبلورة عبقرية الشعب وقدرته.

وبهذا يكون رِيلْ أميل إلى هِرْدر منه إلى رِتَرْ. فهو لا يسعى إلى ضبط الجدلية القائمة بين شعب وأرضه، بل يهتم بالنتائج، أي بالمنجزات التي لا يمكن لمس دلالاتها البشرية إلا عن كثب من خلال التجوال في ربوع الاقليم بما فيه من مدائن وأرياف. فإدراك الاقليم إذاً يتم مباشرة وبالمشاهدة الدقيـقة لكل جوانب الحياة. وهكذا أخذت الناشئة الألمانية تتعلم جغرافيا بلدها عبر الرحلة الميدانية أو الرحلة الخيالية التي تسمح بها الدروس.

صحيح أن دور رِيـلْ قد اقتـصر على التعليمين الابتدائي والثانوي دون الجامعة ــ وهذا ما يفسر ربما غيابه في كتب الجغرافيين ــ لكن ذلك لا يقلل من دوره الفعال في إغناء الجغرافيا والدفع بها قُدما كما يشهد له بذلك بعض الدراسين [53]. فهو قد أحيا الشعور ــ بأسلوب آخر ــ بالمشهـد و «شحـنته» التاريخية ودلالته الحضارية. وهو الشعور الذي سرعان ما دبَّ

* **J.G.Granö**
* **A. Moles**

* **Wilhelm Heinrich Riehl**

52

لِـريلْ عدة مؤلفات منها

Land und lente, Stuttgart. J.G, Cotta. 1861,
Culturstudien aus drei Jahrhundenten, Stuttgart, J.G. cotta 1862.
Vaturgeschichte des volkes als Grundlage einer dentchen sozial politik, stuttgart, Cotta 1851, 4 vol, 1869.

53

Karlheinz (Filip), **Leçons allemandes de géographie,** Mosella, vol 8, 1978, pp 145-167.

Hans-Dietrich Schultz, **Die dentschspragige von 1800 bis 1970,** op. cit.

بالفعل في كيان الجغرافيا الألمانية لينتقل بعدها إلى الأقطار المجاورة.

إن ما طبع الجغرافيا الألمانية في بداية القرن العشرين هو تخلصها من تأثيرات رَاتزِلْ وتطوير موضوع البيئة وإفراغه في قالب الدراسة الاقليمية وفق ما كان يراه هِتْنَر و رِخْتوفَن ومن سبقهما من كبار جغرافيي القرن التاسع عشر؛ وإن كانت هذه الجغرافيا الاقليمية ستركز بالأساس على موضوع استأثر بكل الاهتمامات : ألَا وهو موضوع «المشهد»*.

* Landschaft

2.2.2 ـ «اللانْدشَفْت» : جوهر المدرسة الألمانية

إن كان هناك اعتقاد سائد بأن مفهوم «اللاندشفت» ثمرة منحتها المدرسة إلى الجامعة، فهناك أيضاً من يرى غير ذلك كـ**شُلْتز**(1980) الذي يوعزه إلى كتاب «الجغرافيا العسكرية» الذي ألفه **هُومَيا*** في بداية القرن التاسع عشر، سنة 1805. وهذا الغموض في أصل الفكرة ـ بصرف النظر عن الدقة التاريخية ـ قد يحجب عنا حقائق في غاية الأهمية لو صَحَّ زعْم شُلْتز؛ لا سيما وأن القضية مرتبطة على ما يبدو بجوانب حربية وسياسية. وقد لا يستبعد أن يكون المفهوم وليد المصدرين معاً. وعلى كل حال فإن **أُوطُوشْلوتر**، الذي يعتبر «أول من جعل من الجغرافيا علم المشاهد»[54]، لم يكن يرمي إلى أبعد من وصف اختلافات السطح نتيجة تفاعل العوامل الطبيعية، وإن كان لا يمانع في بحث الجوانب المستورة من تلك الظواهر. وهذا ما أقدم عليه بالفعل غيره. ولكي تتأسس المدرسة الألمانية كان لابد من تجاوز هذه المواقف المختلفة ولَمِّ شتاتها. وهذا ما حدث بالذات ابتداءاً من سنة 1910.

* Hommeyer

54

Paul Claval, **Géographie humaine et économique contemporaire,** op. cit. p 35.

1.2.2.2 ـ دلالات « المشهد »

في كتابه «طبيعة الجغرافيا»* تعرض هَرْتشورن لمفهوم «اللاندسكيب» عند الألمان فبين ما فيه من غموض وشبهة؛ ثم جاء بعده **هارْد*** ليؤكد نفس الملاحظة[55]. وكلاهما يريان لنفس اللفظة دلالة مزدوجة تعني «المشهد» بمعنى «الاقليم» ككيان يندرج في تصنيف مكاني معين، وأيضاً «الوحدة الجمالية». وهكذا كان يحرك الجغرافيا الألمانية في بداية

* **The nature of geography**

55

Hard (G.) **Die « Landschaft » der Sprache und die « landschaft » der geographen,** Bonn, Dümmlers, 1970.

القرن العشرين تياران اثنان : الأول يحـلل التفاعلات ويطمح إلى تقديم تفسير علمي للمكان، وهو اتجاه يتصل بِرِتَّرْ عبر كوكبة من الجغرافييـن منهم كِرْشوف و **وُولْ***و **جَتسْبِك***. أما الثاني، أي التيار «الجمالي» أو «الانطباعي»، فهو اتجاه لاحق يولي الاهتمام أولًا وقبل كل شيء إلى الواقع المحسوس وما ينـطوي عليه من تنوع كما عبر عن ذلك لفيف آخر من الباحثين (راتزَل، هُوميا، **أُپِّلْ***، **شونْ*** **فيمَرْ***...) وهذا التقابل بين جغرافيا تعميمية ومعيارية تهتم بانتـظام الظواهر ونصنيفها بغية استخراج قوانينها* وجغرافيا إقليمية* تعطي الأسبقية للتحـليل الأُحـادي ودراسة الوحدة المنفردة، ما يزال يغـذي الجـدل حتى يومنا هذا، داخل المدرسة الألمانية وخارجها[56].

* Gatsbeck

* Opel
* Shöne
* Wimmer

* Landschft skunde
* Landerkunde

56

Bartels (Dietrich), **Perspectives de base dans la géographie ouest-allemande** Contemporaine. l'Espace géographique, n° 3, 1978, pp 155-167.

ومن الثابت أن «الثورة المحافظة» التي أخذت أفكارها تغزو النخبة الألمانية، جعلت البحث الجغرافي يتنـصل بعض الشيء من النموذج الطبيعي وينـسلخ عن المذهب الوضعي الذي يرفده لعدم ملاءمته لمعالجة موضوع المشهد؛ هذا المشهد الذي تميزه خصائص اجتماعية طبقاً لإرادة معينـة : فهو النسيج الذي تحوكه أصابع الشعوب وتطرزه بخيوط فكرها وحـضارتها. تلـكم هي نـظرة رِيـلْ للموضـوع، وهي النظرة التي سرعان ما استهوت الجغرافيين وأخذت توجه البحث الجامعي وتؤثر فيه. ولنبادر إلى القول بأن هذا الطرح ليس بدعاً فهو يستمد خذوره من الفكر الألماني الذي ورث عن هِرْدر وفلسفة التاريخ بالمنظور الهيجـيلي أن الفـكر ترجمة جماعية أكثر مما هو تعبير فردي. لذلك كان لزاماً أن تحظى الأمة في هذا الفكر – سواء كانت شعبا أو مجرد فئة – باهتمام يزيد عن اهتمامها بالفرد. ومعنى هذا أنه يمكن النفـاذ إلى الفكر عبر المظاهر المادية التي هي وحدها تفصـح عن آثار الشعوب وتعبر عن عبقريتها. ولا شك أن في الأوضاع الاجتماعية لبلدان أوروبا الوسطى ما يبرر هذا الاتجاه، حيث ما يزال الشعور بالانتماء السلالي حيّاً؛ بخـلاف بلدان أورورببة أخـرى كإيطاليا أو فرنسا مثلا. وهذا ما عبر عنـه بالفعل وبصفة مبكرة **أُجسْت مَايْتزِن***[57].

* August Meitzen

57

Meitzen (August) **Siedelung und Agrarwesen der Westgermanen und Ostgermanen der Kelten, Römer, Finner und Slawen,** Berlin, Hertz, 1895, 4 vol.

غير أن البحث الجغرافي الذي جعل من المشهد موضوعاً له قلما بلغ أهدافه وحقق طموحاته بسبب فرطـه في التدقيق والتحري في

الجزئيات، إذ غالبا ما يركز الباحث اهتمامه على رقعة محدودة المساحة، متجانسة المظهر، الأمر الذي يحد من الرؤية ويضيق آفاق التأمل الواسع والتفكير العميق.

2.2.2.2. معالجة الموضوع.

تبرز المقارنة بين التحليل الاقليمي على الطريقة الفرنسية والدراسة المشهدية على النهج الألماني أن المدرستين تلتقيان في بعض الجوانب وتفترقان في جوانب أخرى. فنقط الاصتال يمكن تلخيصها في معايشة الميدان والاعتناء بالتحريات الميدانية والاستعانة بالوثائق التي تساعد على ضبط الأشكال أصلا وتطوراً. أما أوجه الاختلاف فهي تكمن أولًا في توظيف التاريخ الذي جعل منه الفرنسيون عنصراً تفسيرياً يتوخى، انطلاقاً من حالة راهنة، استحضار التوازنات السابقة التي ينبني عليها الحاضر؛ في حين اتخذه الألمان كمجرد عنصر تحليلي يكتفي بمعرفة أصل الأشياء. ثم تكمن ثانيا في اختيار المقياس وتحديد وحدة الدراسة. فإذا كانت المدرسة الفرنسية تؤكد على ضرورة رسم كل الحدود الممكنة وتمحيصها وترتيبها قصد إبراز تداخل التقسيمات الاقليمية ونِسبيّتها، فإن الدراسة المشهدية تنطلق لتوها من مصادرة مفادها أن المشهد يطابق الوحدة الترابية الأساسية، أي ذلك المجال الذي عملت الجماعة على بنائه. لكن الجغرافيا الألمانية – وهذا جانب من جوانب القوة فيها – تقدر على معالجة المعطيات الطبيعية معالجة أشمل. فهي أكثر بالًا بقضايا الغطاء النباتي، تحاول تفسير بقاء التشكيلات الأصلية وتصف فعل الإنسان فيها، مشددة على تدهور الغابات والبراري ومنبهة إلى مظاهر التعرية وأخطار انجراف التربة.

ويفضي البحث في النهاية إلى إصدار حكم على الجماعات المستغلة للأرض وإظهار قدرتهم على تحقيق التوازن أو بالعكس على الإخلال به. وفكرة الانسجام والتوازن هاته ترد في رأي **دِيتْرِش بَرْطَلْس***[58] إلى الفلسفة الطبيعية التي ظهرت في نهاية القرن الثامن عشر وعاشت طيلة القرن الموالي. غير أن فكرة الانسجام والتوازن وتباين قدرة الجماعات على تحقيقها تعطي لدراسة المشهد مقياساً معيارياً من شأنه أن ينحدر بالبحث العلمي الجاد

* **Dietrich Bartels**

58 Bartels (Dietrich), **Die Harmonie Begriff, Die Erde,** vol 100, 1969. pp 124-137.

والموضوعي إلى التفكير في التمييز بين مجتمعات عاملة متفوقة تستحق التنويه وأخرى متهاونة وفاشلة تستحق التوبيخ !

3.2.2.2 ـ غواية العنصرية

تشكل النزعة العنصرية في المدرسة الألمانية إحدى القضايا التي ما انفك الدارسون ينكبون عليها حتى اليوم[59]. ويرى شُلْتز وهو يعرض لهذه الظاهرة أن الانزلاق من الرصانة العلمية إلى الدعاية المشبوهة كان ـ بالنظر إلى الظروف السائدة آنذاك ـ أمراً وارداً. وهكذا فتحت الباب للجغرافيا النازية التي لم تكلف نفسها مشقة البحث عن «قضيتها» حيث اكتفت فقط بتوظيف المكتسبات التي تم تحقيقها خلال العقد الأول من القرن العشرين. وهكذا أصبح من اليسير جداً المطابقة بين المكان والسّلالة على أساس سلم جغرافي تفاضلي يميز بين قوم يصلحون وقوم يفسدون. وبناءاً على هذا أخذت فكرة الربط بين الأرض والدم ـ التي يجسدها مشهد نَضِرٌ متناسق يعبر عن عبقرية فذة وخصال حميدة ـ تحرك النعرة القومية وتبرر بالتالي استرداد أراضٍ سبق للأجداد أن اعتنوا بها وهي اليوم في حوزة ناس لا يحسنون استغلالها ! وبهذا المنظور لم تعد السياسة التوسعية تعتمد على الحقوق التاريخية، بل يكفي التذرع أو مجرد الادعاء بعدم كفاءة الآخرين للسيطرة على الأرض بالقوة.

وهذه التجاوزات التي يحاول البعض اسنادها إلى اعتبارات سياسية محض لم تسلم من عواقب العنصرية وحب الهيمنة اللذين طبعا القومية الألمانية آنذاك. وبعد أن وضعت الحرب أوزارها واندحرت النازية ظل الاهتمام بالمشهد قائماً بعد أن تخلص من سلبيات المذهب المنحرف. وهكذا انصرف الباحثون عن الدعاية السياسية ليعودوا من جديد إلى الالتزام بأصول البحث العلمي الذي سمح باستمرار الجغرافيا الألمانية واحتفاظها بشخصيتها وأصالتها إلى غاية الستينات.

3.2.2 ـ المدرسة في الميزان

إذا كانت المدرستان الألمانية والفرنسية تسعيان كلتاهما إلى نفس

59

أنظر على سبيل المثال بعض المراجع التي يشير إليها پول كلفال في الهامش 45 من الصفحة 73 من كتابه السابق الذكر **Géographie humaine et économique contemporaine.**

راجع أيضا : Kleinschmager (Richard), **Géographie et idéologie entre deux guerres : la Zeitschrift fur geopolitik** 1924-1944.
l'Espace Géographique, Tome XVII, n° 1 Janvier - Mars, 1988, pp 15-29.

الهدف، أي إلى وضع تقسيم دقيق للعالم، فإن الأولى تعتمد في ذلك على مفهوم المشهد، بينما تركز الثانية على دراسة العلاقات بين الإنسان والبيئة. وهذان هما الموضوعان البارزان اللذان شغلا البحث الجغرافي خلال القرن التاسع عشر. ومع ذلك فلا يجوز حصر المدرسة الألمانية في القالب الإقليمي الضيق وتفسيرها فقط بالمبادىء التي أرساها الْفرِدْهِتْنر. فمدرسة المشهد لا تتعارض مع الرؤية الاقليمية الصرفة، بل تكملها في كثير من الأحيان. وربما هذا ما جعلها أكثر تماسكاً وجنبها لمدة طويلة التعرض للنقد والتجريح.

لكن المقدمات التي تنطلق منها مدرسة المشهد، وخاصة منها فعل الجماعة وآثاره الجلية على السطح، هي اعتبارات غير مألوفة ولا متداولة في المجتمعات الأخرى التي لم تعد العشرينات تسوغها وتفهمها. ومع ذلك ظلت العلوم الجرمانية التي طبقت شهرتها الآفاق تجذب إليها اهتمام العلماء، حتى بعد الحرب، وعلى رأسهم الأمريكان كما يدل على ذلك مؤلف هَرتْشورْن «طبيعة الجغرافيا». فإذا تعلق الأمر بالقضايا المنهجية أو المسائل الفلسفية المتصلة بالمادة رجع الباحثون إلى الأعلام الرواد، اعلام القرن التاسع عشر، الذين لا يشق على المرْءِ فهمهم. وأما الدراسات العصرية فهي لا تقدم مبادىء بقدر ما تقدم نتائج خاصة في موضوع تاريخ المشاهد الزراعية الذي جلب إليه كثيراً من الباحثين.

ومع ذلك ليس في ألمانيا ولا في غيرها من البلدان من استوعب المستجدات ووعى ما تحمله ريح التطور من لواقح مخصبات، باستثناء ذلكم «المتقدم على زمانه» **وِلْيام كريسْتَالر***، الذي طرح منذ سنة 1930 نظريته المعروفة (نظرية المكان المركزي)[60]، التي ساهمت إلى حد ما في بناء «الجغرافيا الجديدة». فأبحاثه ستظل، وحتى في ألمانيا نفسها، مجهولة تماما إلى غاية الستينات حيث اكتشفها الأوروبيون عن طريق الأمريكيين !

إضافة إلى ذلك فإن النموذج الذي فرضته المدرسة المشهدية والذي قيدت به البحث جعل الجغرافيا الألمانية تغفل (أوتتغافل ؟) عن الجوانب الإجتماعية، وإن اهتم بعض كتابها بعد الحرب – مثل **هانْس بُبِكْ*** بجامعة فيينا و **وُلْفجَنْج هَارْتك*** بميونخ – بموضوع البنيات الاجتماعية الذي

* William Christaller

60 قد لا يوجد مرجع أساسي في الاقتصاد الجغرافي إلا وتضمن نظرية المكان المركزي، لذلك فلن نعرض لها ولا للمراجع الكثيرة التي تشرحها.

* Hans Bobek

* Wolfgang Hartke

قاد إلى دراسة الأنظمة الاقتصادية والاجتماعية في علاقاتها مع البرجوازية من جهة، وإلى تحليل أشكال استعمال الأرض عند الطبقات المتوسطة ودراسة مخلفات المجتمع الريفي التقليدي من جهة أخرى؛ لكن دون محاولة التخلص من المسلمتين الأساسيتين اللتين تشكلان عماد الجغرافيا الألمانية : ترجيح التأويل – تأويل المشهد – على التفسير والتعليل والعمل على إبراز روح الجماعة وفكرها بعد استبدال الطبقة الاجتماعية بالسُّلالة. وقد يكون هذا سببا رئيسيا في عدم قدرة الجغرافيا الألمانية على تجاوز مرحلة التصنيف وتخلي الباحثَيْن عن مشروع لمؤلف مشترك حول الجغرافيا الاجتماعية.

3.2 ـ الجغرافيا الأمريكية

للمرء أن يتساءل بعد الحديث عن المدرستين الألمانية والفرنسية هذا السؤال : هل المدرسة الوطنية تعبير لعبقرية شعب ما ؟ وباعتبار الحالتين السالفتين قد نميل إلى الجزم بذلك، لكن هذا غير صحيح، بدليل تطور الجغرافيا الأمريكية التي عرفت، ما بين 1910 و 1920 ازدهار مدرستين اثنتين من الصعب إدراجهما في نسق فكري واحد، رغم مالهما من أسس مشتركة.

1.3.2 ـ نشأة مبكرة ومسار طويل

يُرجع عدد من الكتاب الاهتمام بالجغرافيا بالولايات المتحدة إلى عهد باكر، وحجتهم في ذلك كتابات **طوماس جفِّرْسُن*** (أحد مؤسسي الحزب الديمقرطي الذي اعتلى كرسي الرئاسة ما بين 1801 و 1809) حول إقليم فِرْجينْيا تحت عنوان : «ملاحظات حول فرجينيا». وتعد هذه «الملاحظات» من قبيل «الوصف الإحصائي» الذي كان ينجز في أواخر القرن الثامن عشر بأوروبا. وهذا ما قام به أيضاً **جِديدا مورْس*** مخترع المبراق المعروف.

* Thomas Jefferson 1743-1826

* Jedidah Morse 1791-1872

لكن الخطوات الأولى الحقيقية للجغرافيا في العالم الجديد لن تتم إلا ابتداءاً من سنة 1848 حينما استقدم لُوِيسْ أجاسِّيزْ، عالم التاريخ الطبيعي والثلاجات، مواطنه الأصلي وزميله في الدراسة أرنُلْد جوِيو للعمل بالولايات

المتحدة. وجويو، كما نعلم، أحد تلاميذة رِتّر، لكنه يعرف جيدا آراء هَمْبُلت وأفكاره من خلال محاضراته التي كان يتابعها عندما كان يدرس بألمانيا. وقد استهل جُويو عمله بسلسلة من المحاضرات بمعهد لُووِّل في بُسْتن عن العلاقة بين الجغرافيا الطبيعية وتاريخ الإنسان بهدف توضيح التناسق بين العلم الطبيعي والدين.

وهذه المحاضرات التي نشرت تحت عنوان : «الأرض والإنسان» يؤكد في بدايتها المؤلف أن عمله لن يكون «مجرد وصف» لأن الجغرافيا «يجب أن تقارن [...] وتسعى لفهم التأثير المتبادل بين الظاهرات ذات الصبغة الطبيعية بعضها ببعض، وأثر العالم غير العضوي على الكائنات العضوية وعلى الإنسان بصفة خاصة»[61]. وقد ألف جويو كتباً مدرسية عديدة، ثم وضع كتاباً في الجغرافيا الطبيعية وأنجز عدداً من الخرائط للمدارس الأمريكية. إلا أن جل بحثه الأكاديمي كان عن ارتفاع الجبال التي قاس بعضها بالمضغاط (البارومتر) وعن الظواهر الجوية بفضل المحطات التي أنشأها[62].

رغم الأيادي البيضاء التي أسداها جويو للجغرافيا الأمريكية، كثير هم الذين يقولون أنه لم يكن له أتباع ولم يؤسس مدرسة؛ فتلك غاية لن تتحقق إلا على يد دَيْفِز الذي بدأ نشاطه بعلم الأرصاد قبل أن يرسي قواعد الجيومورفولوجيا[63]. هذا وتجدر الإشارة إلى أن أول قسم للجغرافيا لم يتأسس إلا في سنة 1903، وذلك بجامعة شيكاجو. كما يجدر بنا أيضاً ألا نغفل ذكر معاصرين لجويو : أحدهما **مُوري***، الذي اعتبره هَمْبُلت مؤسس علم البحار، زيادة على باعه الطويل في ميدان الأرصاد الجوية؛ والثاني **جُورْج پركِنس مارْش***، الذي كان لكتاباته نتائج عملية طيبة للغاية في أمريكا، وإن لم يكن له هو أيضاً خلفاء يحملون آراءه[64].

أصدر مَارْش سنة 1864 كتاباً بعنوان : «الإنسان والطبيعة» وصفه **لِويسْ مَمْفُرد***، الفيلسوف الاجتماعي الأمريكي الشهير، بأنه القمة في الدعوة إلى المحافظة على الطبيعة. وخلافاً لما يعتقد رِتّر وجويو من أن الأرض صنعت الإنسان، فهو يرى أن الإنسان هو الذي صنع الأرض وانطلاقاً من هذا الطرح راح يشرح كيف أن الإنسان، على جهل وبدافع

61

عن ت و. فريمان، **الجغرافيا في مائة عام**، سابق، ص 40.

62

عينه، ص 41.

63

«لقد كان دَيفِز في الأساس جيولوجيا، ولكنه تحول في تسعينات القرن الماضي إلى ميدان الجغرافيا. وقد سعى إلى تكامل عنصري الطبيعة والإنسان بعد فترة سادت فيها الازدواجية بين الجغرافيا الطبيعية والجغرافيا البشرية. واستعان ديفز بمنهج دَارْون في التطور الذي اعتبر حقائق الطبيعة والإنسان قائمة وموجودة وتربطها علاقات منسجمة على شكل سلسلة متصلة من السبب والنتيجة. وقام ديفز بتصنيف الحقائق البشرية مستنداً في ذلك على تصنيف الحقائق الطبيعية للأرض. ويقول بأن المظاهر الطبيعية للأرض كانت تدرس من قبل الجغرافيين الطبيعيين من حيث الأصل والعملية الاجرائية. وبناءً عليه فإن أشكال الأرض يجب دراستها جغرافيا على ضوء الاستجوابات الإنسانية والضوابط البشرية. وكان يطلق على الحقائق البشرية على سطح الأرض مصطلح «انتجرافيا» Ontography، أما حقائق الأرض الطبيعية يطلق عليها «فزيوغرافيا» Physiography ». محمد علي عمر الفرا ــ **اتجاهات الفكر الجغرافي الحديث**، سابق، ص 78ــ79.

*** M.F Maury 1806-1873**

*** George Perkins Marsh 1801-1882**

*** Lewis Mumford**

64

يقول ت.و فريمان «ربما يكون السبب في

الجشع، يتعدى على الطبيعة ويهدرها ويتمادى في غيه كلما زادت قدراته المادية.

ولا شك أن هذا الموقف بعيد، بل مناقض تماماً للآراء الرائجة آنذاك عن «الإنسان وغزو الطبيعة». لذلك فهو يحذر بشدة من مغبة اجتثاث الغابات والقضاء عليها، الأمر الذي يؤدي «في فصل من الفصول إلى فقدان الأرض لحرارتها بالاشعاع إلى السماء المكشوفة، وفي فصل آخر إلى اشتداد حرارتها بتأثير أشعة الشمس التي لا يحجبها شيء» وبذلك، كما يقول مارش، تنجرف التربة ويتغير المناخ.

واهتم مارْش كذلك بالريّ، فوضع رسوماً توضيحية من خلال رحلات متعددة في مصر وفلسطين وتركيا وبلدان حوض البحر الأبيض المتوسط وجبال الألب. وهكذا جاء عنوان كتابه الثاني كما يلي «الجغرافيا الطبيعية كما تتعدل بفعل الإنسان». وفيه يُجمل مارْش آراءه في قولة اقتبسها عن بوشْنِل* : «إن كل الرياح والعواصف والزلازل والبحار والفصول في العالم لم تفعل قدر ما فعله الإنسان... في تغييره للأرض بشكل ثوري منذ أن ظهر عليها الأول مرة»[62].

إن الصرخة التي أطلقها مارْش لم تكن صيحة في وادٍ إذ أدى ذلك الدفاع المستميت على الطبيعة إلى تحفيز الجمعية الأمريكية لتقدم العلوم لرفع مذكرة بهذا الشأن إلى الكونجرس الأمريكي في سنة1873 تكونت بموجبها لجنة وطنية للغابات عملت على تحديد المناطق التي تجب حمايتها وإيجاد ميثاق وطني لها سنة 1891، ثم بعد ذلك اتخذت تدابير أخرى قصد حماية مناطق تقسيم المياه، ليوضع في النهاية برنامج حكومي للمحافظة على الموارد الطبيعية. وفضلًا عن هذا استطاع مارْش أن يؤثر تأثيراً واضحاً على سياسة الري في بلاده. فتخطيط الري في رأيه ليس بالأمر الهيِّن، بل يعتبره عملا معقداً يتطلب تشييد السدود ودراسة التربة والاحتراز من أخطار الملوحة. فالمسألة أدهى من أن تكون مجرد عملية سقي وانسياب المياه في الحقول. وإذا كان مارْش قد ذكر الكثير من هذه القضايا في كتاب «الإنسان والطبيعة» فهو يدققها بطريقة عملية أكثر في مؤلف آخر : «الريّ مساوئه وعلاجه والتعويضات»، نشر في سنة 1874؛ وهو

ذلك أن مَارْش قضى جزءاً كبيراً من حياته خارج أمريكا، وأن الكتب والمقالات التي تركها جويوت Guyot لم تكن جذابة للقراء على الرغم من أنها كانت مراجع مهمة خصوصاً للبيانات الميتورولوجية وارتفاع الجبال»، **الجغرافيا في مائة عام**، سابق، ص 279 — 280.

* H. Bushnell

الكتاب الذي وجه **پووِّل*** ، رئيس المساحة الجيولوجية في عمله وجعله يهتم أكثر بالأقاليم الجافة من الولايات المتحدة.

* H.W. Powell 1843-1918

ولهذا جاز اعتبار مارْش رائداً حقيقياً لما يسمى اليوم بالجغرافيا التطبيقية. لكن رغم هذه البادرة الطيبة والعمل الممتاز لم يتفتح بُرعم الجغرافيا الأمريكية بالسرعة المنتظرة، اللهم ما كان من أمر الجيولوجيا بفضل بعض الرواد الذين عملوا على اكتشاف «المجاهل» الغربية من البلاد كپووِّل ودَيْفز بالخصوص الذي التحق بجامعة هَارْفَرْد سنة 1878. ورغم ذلك لم تفلح الجغرافيا في غزو الجامعات القديمة بشرق البلاد، بينما سيكون حظها أسعد في الجامعات الفتية التي ظهرت في الغرب والتي استطاعت فيها العلوم الإنسانية أن تفرض وجودها.

فهل تحذو الجغرافيا الأمريكية الناشئة حذو الجغرافيا الأوروبية العريقة ؟

إذا وجد هناك من يقلد الأوروبيين ويسير على نهجهم كما فعلت إِلِنْ سَمْپِل التي عملت على التعريف برَاتْزل وآرائه فهيهات أن يقنع الأمريكان أو يقتنعوا بذلك بحكم عقليتهم الوضعية الصرفة التي لن تصادق على تلك المبادىء والتي ترى أن العلم لا يقوم إلا على أدوات علمية دقيقة لا توفرها بالطبع المعالجة الجغرافية الألمانية في ثمانينات القرن الماضي.

وفي هذه الجامعات الفتية كان التواصل والتلاقح بين مختلف الاختصاصات يتمان في ظروف أحسن بالمقارنة مع الجامعات القديمة التي قد تنعزل فيها تلك التخصصات وتنغلق على نفسها من جهة، وبالنظر إلى «تنقل» الأساتذة من مادة إلى أخرى بسبب العجز الحاصل في هيئة التدريس من جهة أخرى. وهكذا استفادت الجغرافيا الأمريكية الفتية استفادة كبيرة من التقدم الهائل الذي حققه علم النبات حوالي 1910، والذي كان فيه لـ**كليمَنْتس***حضاً وافراً. فكليمنتس هذا هو صاحب مفهوم «الذروة» والذي طرح رؤية جديدة حول تطور الاستيطان النباتي. وهو يعتمد في دراسته بالأساس على الخريطة المدققة التي سرعان ما شاع استعمالها في مسح الظواهر المختلفة.

* F.E. Clements

وبهذا تكون الجغرافيا الأمريكية قد استفادت كثيراً من عمل كليمنتس. فكما أن الجغرافيا الفرنسية تنطلق من خرائط الكثافات والجغرافيا الألمانية من المشهد فإن الجغرافيا الأمريكية تتميز بالاعتماد على المسح الدقيق والمقياس الكبير لمظاهر استعمال الأرض.

2.3.2 ـ رُواق «ميدلْ وسْت» : اهتمامات اقتصادية.

لم يقترن هذا الجناح من الجغرافيا الأمريكية، بعلَم من الأعلام أو بأحد الأسماء اللامعة. فهذه المدرسة الحقيقية تطورت تدريجيا بفضل لفيف من الباحثين الذي شغلتهم أمور الاقتصاد فانكبوا على فهم توزيع المزروعات وانتشار الصناعات وتركز التجارات. لكن تلك السهول، سهول ميدَلْ وِسْت، المترامية الأطراف، الشاسعة الأرجاء التي لم يستوطنها البيض إلّا حديثاً، بخلاف بلدان أوروبا، لم تكن مشاهدها المتشاكلة، الهندسية، تسعف التقسيم الجغرافي وتيسِّر الميز فيما بين المناطق والمدن والأرياف.

ولذلك فإن مدرسة ميدَلْ وِسْت هي المدرسة الوحيدة التي تفسر الظاهرات الجغرافية تفسيراً وظيفياً، يهتم بالمبادلات، يُعنى بفهم الواقع ويحلل طرق التكامل بين الجهات اعتباراً لتنوع الظروف الطبيعية والخيرات الباطنية. ومن أجل ذلك فهي تستعين كثيراً بالجيولوجيا وعلم المناخ اللذين يمدانها بالعناصر اللازمة. وهكذا فإن عدداً من الجغرافيين الذين استقدمتهم جامعات ميدَلْ وِسْت، بين الحربين، كانوا ينتمون أصلًا إلى شُعب الجيولوجيا؛ خاصة أولئك الذين تخصصوا في «الجيولوجيا الاقتصادية» التي ظهرت إلى الوجود. تلك هي البيئة التي ترعرت فيها الجغرافيا الاقتصادية التقليدية وازدهرت.

غير أن اهتمامات هذه المدرسة لم تقف عند هذه الاعتبارات الاقتصادية وتقتصر عليها، فالجغرافيون هنا ـ كما في سائر البلدان ـ مهتمون بمسألة التقسيم الإقليمي التي جعلوا من عامل التخصص الوظيفي أحد مفاتيحها الأساسية؛ لا سيما في بلد ينشط فيه الاقتصاد بفضل المبادلات والتسويق والمنافسة الحرة، كما يدل على ذلك أحزمة الزراعة المتخصصة التي تضرب أمثلة رائعة لبنيات إقليمية لا أمت فيها. ومع ذلك فهؤلاء الجغرافيين

لا يشعرون بالراحة لافتقارهم إلى مبدىء يبنون عليه دراسات تأليفية كتلك التي يبرع فيها زملاؤهم الفرنسيون. لكن المدرسة تفوَّقت حينما أثارت أهمية التنظيم السياسي كما يتضح ذلك من خلال الأبحاث الجادة التي أنجزت في الثلاثينات كأبحاث هَرْتشورْن[65]، والتي جاءت تلقي الأضواء على عدد من المشاكل المغفلة.

إن هذه الثلة من الجغرافيين الذين يتقنون أيَّما إتقان عمليات المسح ويعتمدون على خرائط التوزيع ويزاولون الميدان ويحسنون طرح المشاكل المتعلقة بالوحدات المدروسة، لم تَقدِم مع ذلك على التنظير ولم تُقدِّم منظومة تفسيرية شاملة للظواهر الجغرافية. وقد يكون السبب في ذلك اهتمامها بالمظهر وإهمالها للجوهر الذي ينطوي على جملة من القضايا الكبرى كالإنسان والمؤسسات والآليات الاجتماعية والاقتصادية.

ويستخلص مما سبق أن مدرسة ميدَلْ وسْت ارتكزت في واقع الأمر على ثلاثة مفاهيم أساسية تعود كلها إلى القرن الماضي : أولها المشهد وثانيها جملة من الأفكار حول الاقتصاد، وإن لم تتضح بعد، وآخرها البعد الزمني الذي لم تحققه على الوجه الأكمل بسبب إهمالها بحث منطق الظواهر الاقتصادية والاجتماعية.

3.3.2 ـ رُواق برْكلي : الجغرافيا الحضارية[66].

تختلف مدرسة بركْلي عن مدرسة ميدَل وِسْت اختلافا كليا لدرجة التقابل والتمانع. ففي الوقت الذي انكبت فيه هذه الأخيرة على دراسة تنظيم المكان ومعالجة المشاكل الراهنة في غياب أي قطب علمي مهيمن، انصرف «البركْليون» بقيادة **كارْل ساوِرْ*** وتحت تأثير شخصيته القوية إلى الاهتمام، بالدرجة الأولى، بزمان غير زمانهم ومكان غير مكانهم : ذلك بأنهم ولعوا ولعاً شديداً بقضايا أمريكا اللاتينية حيث ركزوا على موضوعين رئيسيين : أحدهما يهتم بالهنود الحمر والآخر بالتنظيمات الجغرافية التقليدية.

ومن الطريف أين يكون سَاوِرْ زعيم هذا التيار الحضاري الذي يستخدم فكرة الحضارة في المشاكل الجغرافية ليخلق بها فرعاً جديداً بجانب الفروع الأخرى كالجغرافيا الاقتصادية أو السياسية[67]. فهو نشأ وترعرع

65

Hartshorne (Richard) **The functional approach in political geography**, Annals. Associaltion of American Geographers, vol 40, 1950.

66

من المعرِّبين من يقابل كلمة « Culture » بلفظ «ثقافة» ومنهم من يترجمها بـ «حضارة» وكلا المصطلحين مقبول. فالمعاجم، وحتى المتخصصة منها والتي يعرض بعضها معنيين للكلمة أحدهما «موضوعي» والآخر «ذاتي»، تعتبر الكلمتين مترادفتين. ثم هناك لغات كالألمانية مثلا يدل فيها لفظ «الثقافة» على «الحضارة». أما بالنسبة للدارسين المتخصصين فلهم في هذا المقام مقالات وآراء وتعاريف مختلفة. ولنا، إن شاء الله عودة إلى الموضوع.

* **Carl Sauer**

67

Miksell (W. Marvin) and Wagner (Philips) **Reading in cultural geography,** University of Chicago, Chicago Press, 1971. pp VII-I.

بميدَل وِسْت حيث حصل على تكوين علمي جيد مكّنـه من وسائل المسح الميداني وتقنيات وضع الخرائط الدقيقة لاستعمال الأرض. وعندما التـحق في سنـة 1923 بجامعة برْكلي كمدرس التقى بالإناسي **كَروبَرْ***، الذي عرفه بالإناسة وأطلعه على وسائل عملها وطرقها في تحليل الأمكنة التي تستوطنها قبائـل الهنود، كما أرشده إلى منهج دراسة ثقافتـهم وحضارتهم.

* A.L. Kroeber

هذا ولقد سافر ساوِرْ إلى ألمانيا فاطلع على البحوث حول المشهد كبحوث **شلوتَر** مثلا. لذا فهو يُعرف الجغرافيا كعلم يدرس المشاهد من أجل ضبط العلاقات القائمة بين الإنسان والبيئة، غير أنه يجمع بين هاتين الفكرتيـن الموروثتيـن عن القرن التاسع عشر (المشهد والبيئة) ثم يمـزح بينهما ليبـرز في النهاية الخصائص الحضارية لقـوم ما. وبهذا يكون ساور مؤسس الجغرافيا الحضارية الحديثة.

ومن الأشياء الكثيرة التي استخلصها ساوِرْ من مطالعته للدراسات الألمانية أن معالـجـة الجوانب الحضاريـة والثقافية والاجتماعية تختلف كل الاختلاف عن دراسة الظواهر الطبيعية، لذا فهو يقول باستحالة وضع وصف موضوعي للمحيـط مادام لزاماً اعتبار رؤية الجماعات وما دامت هذه الرؤية قائمة بالطبع على قيم وتصورات معينة. لكن هذا الطرح، وإن كان أقرب الطروح الجغرافية من اهتمامات العلوم الإنسانية وتساؤلاتها، يـظل غامضاً حتى عند التحليل الذي يعتمد أساساً على وصف المشهد والقيام بجرد للنباتات والحيوانات التي يتعيش بها الناس وذكر التقنيات المسخرة لتحقيق هذه الغاية.

إن هذا العمل، وإن تميز بالدقة، يـظل مجرد وصف يحاكي عمل الطبيعيين. «وكان ساوِرْ في هذا يسير على غرار ما هو متبع في أمريكا عموماً من حيث تقسيم الجغرافيا إلى قسمين أحدهما طبيعي وثانيهما بشري، فقد ذكر مثـلا ‹ان الإنسان، وهو نفسه ليس موضوعاً للبحث الجغرافي، وقد أعطـى للمنطقة تعبيراً عن طريق إنشاء المساكن والمصـانع والأسواق والحقول وخطوط المواصلات، ولهذا السبب فإن الجغرافيا الثقافية تهتم بدراسة هذه الأعمال الإنسانية التي تبرز على سطح الأرض لتعطيه المظهر المميز له›»[68].

68 ت.و فريمان، **الجغرافيا في مائة عام**، سابق، ص 206.

ويستنتج من هذا أن الجغرافيا الحضارية التي أسستها بركْلي تخالف مخالفة صريحة النهج الذي رسمته لنفسها مادامت تُؤثر الاعتماد على الشواهد المادية الظاهرة في المحيط البشري على رؤية البشر وتصوراتهم لها. ومما يساند هذا الرأي ويزكيه ما يذكره كلفَالْ[69] بشأن النصيحة التي أسداها هَرْتشورْن إلى **مَارْفِنْ مِكْسَلْ*** قبل سفره إلى المغرب الأقصى لدراسة جبال الريف إذ حثَّه حثًّا على تعلم اللغة الألمانية بدعوى أن أجود الدراسات في علم النبات – الذي لا يستغني عنه في قياس مدى تأثير الإنسان على المشهد – قد كتبت بهذه اللغة ! أو لم يكن حَرِيّاً به أن ينصحه أن يتعلم أولًا ما قد يفيده أكثر كالإلمام بالأمازيغية والعربية والإسبانية حتى يتمكن صاحبنا من مخاطبة الادارة والتحدث إلى الناس ؟

وعلى كل حال فإن المنهج الذي يطبقه ساوِرْ منهج يلائم المجتمعات البسيطة، أي تلك التي تنحصر فيها علاقات الجماعة بالبيئة في رقعة ضيقة، الأمر الذي يجعل استقراء المشهد وسيلة كافية لضبط تلك العلاقات؛ بخلاف الحالات السائدة الأخرى التي تتعدد فيها أمكنة استعمال الأرض. ولتفادي هذا النقص يرجىء الجغرافي قضية التوزيع إلى ما بعد فحص مسألة العلاقة بالبيئة المحلية، أي أن البحث يبدأ بالكشف عن أساليب وطرق استغلال الهرم البيئي قبل تناول توزيع النطاقات الحضارية. وتجدر الإشارة بهذا الصدد إلى أن ساوِرْ أخذ عن **كلاَرْك وِسْلَرْ*** منهجه في تفسير مستوطنات الهنود. وهو تفسير مزدوج تارة ينبني على قدرة التحكم في الوسط البيئيْ، وتارة يعمد إلى أهمية الهجرة البشرية ودور انتشار التقنيات؛ تفسير يقنع بهذا ولا يشعر بالحاجة إلى المزيد من تعميق الموضوع.

وهذا ما تؤكده بالفعل كل التعاريف اللاحقة التي أعطيت للجغرافيا الحضارية غرباً وشرقاً. **فتِرِّي جُورْدَن*** و **لِسْتَر رَاوْتري*** يقولان بأنها «دراسة الاختلافات المكانية بين المجموعات الحضارية وأنها ترتكز على وصف وتحليل تغير أو إثبات اتجاهات اللغة والدين والاقتصاد والحكومة والظاهرات الحضارية الأخرى كلما تغيرت البيئة[70]». في حين يرى **يسري الجوهري** «بأن شكل الأرض الحضاري* يشمل دراسة السكان

69

Paul Claval, **Géographie économique et humaine contemporaine,** op. cit. p 81.

* **Marvin Mikesell**

* **Clark Wissler**

70

Jordan (G. Terry) and Rowtree (Lister), **The human mosaic, a thematic introduction to cultural geography,** Harper and Publisher, Imp. New York, 1971, pp 5-7.

* **Terry Jordan**
* **Lister Rowtree**

* **Cultural Lanscape**

والسكن ووسائل التنقل في الإنتاج الصناعي والزراعي والمعدني وبصفة عامة الاستغلال الاقتصادي للأرض والمظاهر المادية الملحوظة الناتجة عن تفاعل الإنسان مع البيئة كقيامه بحرفة معينة في بيئة ذات طابع خاص، وتشييد منزل، وربط محلته بغيرها من المحلات العمرانية. ويرتبط بهذه المظاهر الملموسة بعض النواحي الحضارية والسياسية التي هي جزء لا يتجزأ من الاستقرار البشري»[71].

3 ـ المدارس المقلدة

1.3 ـ تياران رئيسيان

إذا كانت الجغرافيا خلال الشطر الأول من قرننا هذا قد تميزت بتنوع مدارسها وازدهارها فإن هذه المدارس ظلت في الواقع حكراً على عدد قليل من الأقطار. ولعل السبب في ذلك راجع إلى محدودية عدد التراكيب التي يمكن اشتقاقها من المفاهيم السائدة آنذاك وهي ثلاثة كما نعلم : الإقليم والبيئة والمشهد. فالمزاوجة بين الاقليم والبيئة ولدت المدرسة الفرنسية. أما الجمع بين الاقليم والمشهد فتمخضت عنه الجغرافيا الألمانية. في حين خلق المشهد والبيئة الجغرافيا الحضارية ومدرسة بركْلي. وإذا ما عوضنا المشهد في الحالة الثانية باستعمال الأرض من المنظور الاقتصادي، وهو اعتبار ثانوي بالنسبة للاتجاهات الثلاثة الكبرى، فإننا نلتقي بمدرسة مِيدلْ وِسْت.

فماذا يبقى إذن من الامكانات ؟ وهل من وسيلة للابتكار ؟ لا شك أنه من الصعب جداً تحقيق أنساق جديدة يكون لها ما للأخرى من أصالة وفعالية. هذا ومن كان ينبني بحثه أساساً على مفهومي الإقليم والبيئة، كما دأبت على ذلك جل الجغرافيات خارج المدارس، فقد يستعصي عليه استعصاءاً العثور على حل يتجاوز الحلول التي وضعتها المدرسة الفرنسية. فكل ما يستطيع الباحث فعله هو تكييف المنهج الذي يميل إليه مع الوسط الذي يعمل فيه.

71

جوهري (الـ) يسري، **الجغرافيا الاجتماعية**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الاسكندرية، 1978، ص 25، عن عبد الله الصنيع، **أضواء على مفاهيم الجغرافيا والحضاري**، سابق، ص 12، 13.

1.1.3 ـ الجغرافيا البريطانية

في سنة 1893 قال الجغرافي الروسي **كْروبُتْكِنْ*** : «لو أن أُكْسفورْد كان بها منذ خمسين سنة شخص مثل ريتر يشغل أحد الكراسي بها ويجمع حوله الطلاب من مختلف جهات العام لأصبحت هذه الدولة وليست ألمانيا، هي التي تحتل مركز القيادة في العلم الجغرافي[72]». فرغم ظروف مواتية وعوامل مشجعة لم يقتحم البريطانيون ميدان الجغرافيا مبكراً كما فعل جيرانهم الفرنسيون والألمان. أو ليست بريطانيا العظمى، تلكم الأمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس، أكثر البلدان الاستعمارية مواجهة لمشاكل استغلال الأقطار وتنظيمها ؟ ومع ذلك ظلت الجغرافيا البريطانية تكاد تقصر جهودها على الكشوف، وإن كان لها كرسي بالكلية الجامعية بلندن منذ 1833 حيث شغله الرائد **جَيْمس ماكُونوشي*** مدة ثلاث سنوات.

* Peter Alexevich Kropotkin 1842-1921

72 عن ت. و. فريمان، سابق، ص 72.

* James Machonochie

ومن الأسباب الرئيسية لهذا التخلف عدم الاعتناء بالتعليم الجغرافي الذي بقي محصوراً في المدارس الثانوية التي لم تتكاثر إلا في العقد الأخير من القرن الماضي في إقليم وِيلز ثم في انجلترا. وفي 20 مايو من سنة 1893 عقد بايعاز من **مِسْتَر ديكَنْسُن رَابِجي*** لقاء في أُكسْفورد لبحث تطوير تدريس مادة الجغرافيا. وخلال هذا الاجتماع أيضاً طرحت فكرة تأسيس رابطة جغرافية جعلت من أهدافها الكبرى بالذات النهوض بتلقين المادة في المدارس والكليات. وقد استفادت الرابطة من مساندة الجمعية الجغرافية لها، حيث شجعتها على تولي مهمة التعليم التي كانت تشرف عليه وعملت على إعطاء الجغرافيا المكانة اللائقة بها في الامتحانات، كما حرصت أيضا على تحديد مضامينها. ولقد كان لكتاب **تُوماسْ هَنْري هَكْسلي*** عن الفيزيوغرافيا الذي نشر سنة 1877 أبلغ الأثر في الجغرافيا البريطانية الفتية؛ إذ أحدث تغييراً عميقاً في التدريس على جميع المستويات. «فمصطلح فيزيوغرافيا لم يكن حتى ذلك الحين قد ظهر، ولكن الشائع آنذاك كان المفهوم المرفولوجي. ولكن الفزيوغرافيا تتميز عن الجيولوجيا بالشمولية إذ يمكن تعريفها بأنها وصف الطبيعة، ويدخل ضمنها الحيوان والنبات والجيولوجيا»[73].

* Dichinson Rughy

* Thomas Henry Huxley

73 Holt (Jensen A.) **Geography, its history and concepts,** Harper and Row, London 1982.

عن محمد عمر الفرا، **اتجاهات الفكر الجغرافي المعاصر، سابق، ص 68.**

وعلى ما يبدو فإن تدريس الجغرافيا في الجامعات البريطانية بصفة

منتظمة بدأ بتعيين **هَلْفورْد ماكنْدَر*** سنة 1887 أستاذاً مساعداً بجامعة أكسفورد التي شهدت تأسيس أول قسم للجغرافيا في بريطانيا عام 1900[74].

ومع ذلك فإن التقدم كان بطيئاً ومشكوكاً في أمره في بعض الجوانب حتى كانت سنة 1905 التي نشر فيها **جُونْ أندرو هِرْبِرْتسَن***[75] دراسته المشهورة: «الأقاليم الطبيعية الكبرى للعالم» الذي يقول فيه: «إننا في هذه البلاد أقل تقيّداً بالتقاليد بالنسبة لبعض البلاد الأخرى حيث لا توجد عندنا في واقع الأمر جغرافيا أصولية يمكن الاسترشاد بها. فلما ظهرت الجغرافيا الأكاديمية ظهر للجغرافيا مفهوم أوسع وهو أنها علم التوزيعات». ثم يستطرد قائلًا: «إن الجغرافيا لا تهتم بتوزيع عنصر واحد على سطح الأرض بل بتوزيع العناصر كلها»[76].

لكن زعامة الجغرافيا ستكون بلا منازع لـ**سَارْهَلفورْد ماكِنْدر** الذي يرد إليه الفضل في إرساء قواعد الجغرافيا كعلم يدرس في الجامعات البريطانية. فلقد كانت حياته العلمية متنوعة للغاية فبعد أن ترأس كلية رِنْج الجامعية أصبح مديراً للمدرسة الاقتصادية الكندية ثم عضوا في البرلمان. وهو الذي وضع أساس مدرسة الجغرافيا بأكسفورد عندما كان يعمل بها من سنة 1887 إلى سنة 1905. «وقد دخل ماكِنْدر الجغرافيا من باب علم الاجتماع وتأثر كثيراً بآراء باترِكْ جِدْس وأفكاره عن العلاقة بين البيئة والإنسان»[77]؛ هذه الأفكار التي لا يستطيع أحد أن ينكر دورها الفعال في توجيه الجغرافيا البريطانية الحديثة وذلك بشهادة كل معاصريه الذين أسسوا المدرسة الوطنية مثل **هربرتسن** و **هيو رُبَرْت مِل*** و **سْكوتْ كِلْتي*** و **جورج جودي تشيزَلْم***.

من المعلوم أن فترة ما بين الحربين قد شهدت توسعاً هائلًا في الميدان الجغرافي، لا في ألمانيا وفرنسا فحسب، بل حتى في بريطانيا أيضاً بفضل النشاط الدؤوب للرواد الذين كانوا يعلمون بالجامعات والمدارس إذ وضعوا برامج خاصة بطلبة الامتياز كان أولها في جامعة لِيِفرْپُول سنة 1917، ثم في كل من أبِرَسْتْوايذْ ولندن بعد عام فقط، ثم في كَمْبرْدْج وليدزْ سنة 1919. كما اضطلع هؤلاء بمهمة التأليف وإعداد الكتب المدرسية. ومن

* Halford Mackinder 1861-1948

74 عينه، ص 67.

* John Andrew Herbertson 1865-1915

75 بعد الدراسة في كل من ألمانيا (فرِيبُرْج Fribourg) وفرنسا (باريس) بدأ هِربِرْتسنْ يعمل في ميدان الأرصاد وعلم البحار. وهو من مؤلفي أطلس «بَرْثولومِيو» للأرصاد. لكنه بعدما التحق بالجامعة اشتغل بعلم النبات بكلية دَنْدي (Dundee) الجامعية تحت إشراف باترِكْ جِدْس. ثم بعدها عمل بكلية أوونْس (Owens) بمانْشِسْتر ما بين 1894 و1896؛ ثم في أكسفورد. وله عدد من الكتب المدرسية التي ألف بعضها بمساعدة زوجته.

76 ت.و. فريمان، **الجغرافيا في مائة عام**، سابق، ص 88.

* Hugh Robert Mill

* Scott Kiltie

* George Goudie Chisolm

77 محمد عمر الفرا، **اتجاهات الفكر الجغرافي المعاصر**، سابق، ص 68.

أبرزهم ماكِنْدَر وهِرْبرسْتُنْ بمعيه زوجته «ذات الكفاءة العظيمة» و مَارْيَنْ نُيوبجَنْ «وهي سيدة موهوبة خصصت مجهودها الرئيسي لخدمة الجمعية الجغرافية الملكية الاسكتلندية، ولم تتفرغ في أي وقت من الأوقات لوظيفة جامعية» وتشيزلم[78]، الذي أخرج نسخة مختصرة من «كتابه الخالد» في الجغرافيا الاقتصادية[79]. وقد ساهمت هذه الكتب مساهمة محمودة في الرفع من مستوى الجغرافيا وجعلها مادة جذابة وممتعة للمتعلمين.

ولما أخذ التعليم الجامعي ينمو ويتطور أصبحت الحاجة إلى الكتاب الرفيع المستوى تطرح بإلحاح شديد، الأمر الذي أدى بالضرورة إلى اعتماد عدد كبير من الكتب الفرنسية أهمها كتابي جانْ بْرونْ وفدال دُلَبْلاش في الجغرافيا البشرية ومؤلفات ألْبِيرْ دمنْجون التي ترجم بعضها إلى الانجليزية ككتاب «اضمحلال أوروبا» (1920) و «الامبراطورية البريطانية» (1923) وهو المرجع الذي ظل الطلاب البريطانيون يلجأون إليه لدراسة جغرافية بلادهم. كذلك فعل الجغرافيون الطبيعيون الذي اتخذوا ألمانيا قبلة لهم فاعتمدوا على كتب **سُوِس**، صاحب مؤلف «وجه الأرض» المكون من أربعة أجزاء (1883 — 1909) والذي ترجم إلى الانجليزية والفرنسية؛ وإنتاج **بِنْك*** و **باسرج*** و **ديفز**.

إن پاتْرِك جِدْس في الأصل عالم نباتي كان يشغل معظم حياته منصباً في جامعة دَنْدي، وهو منصب لم يكن يتطلب التدريس إلا لفترة معينة من السنة، لكنه يعد «رائداً حقيقياً في دراسة المجتمع والذي اتخذه إطاراً للمسح الإقليمي». وأفكاره في هذا الباب شديدة الصلة بآراء بعض المفكرين الفرنسيين وخصوصاً عالم الاقتصاد والمهندس فِردِرِكْ لُپّلي والجغرافي الثائر إلِزي رُوكْلي. ولقد أسس جِدْس في سنة 1914 رابطة المسح الإقليمي*. وهو يبني مفهومه الإقليمي على معادلة لُپّلي التي تجمع بين المكان والعمل والناس. «وهو يؤمن بأن الفهم الثابت للمجتمع يجب أن يبني على دراسات ضمن إطار مناطق جغرافية واضحة المعالم ومتميزة كأن تكون قطراً أو مدينة»[80] مع اعتبار المكان والعمل والمجتمع مقومات ذات خصائص متميزة يربطها جِدْس بكل من الجغرافيا الاقتصادية والإناسة.

78

تخرج تشيزلم من جامعة إدِنبرة ثم التحق بجامعة لندن ليقضي فيها قسماً كبيراً من حياته كمحاضر. وله كتاب هام في الجغرافيا التجارية نشر سنة 1889. كما تولى تحرير المعجم الجغرافي الذي أصدرته دار لُنچمانْ سنة 1895. وفي عام 1908 أصبح أول محاضر للجغرافيا بجامعة إدنبرة. وكانت له عناية كبيرة بالقضايا الاجتماعية. فهو صاحب عبارة «الأثنوغرافيا الاقتصادية» التي كان يقصد بها دراسة تأثير العوامل الجنسية والقومية والاقتصادية على مستويات المعيشة ومشاكل السكان.

79

هذه الأحكام منقولة عن ت.و. فريمان، **الجغرافيا في مائة عام**، سابق، ص 101.

*** Edward Suess 1831-1914**

*** Willian Penk**

*** Siegfried Bassarge**

*** Regional Survey Association**

80

Dickinson (R. E.) **Regional Concept,** The Anglo- American leaders, Routeledge and Kegan Paul, London, 1976.

عن علي عمر الفرا، **اتجاهات الفكر الجغرافي**، سابق، ص 69.

منتظمة بدأ بتعيين **هَلْفورْد ماكنْدَر*** سنة 1887 أستاذاً مساعداً بجامعة أكسفورد التي شهدت تأسيس أول قسم للجغرافيا في بريطانيا عام 1900[74].

ومع ذلك فإن التقدم كان بطيئاً ومشكوكاً في أمره في بعض الجوانب حتى كانت سنة 1905 التي نشر فيها **جُونْ أَندرو هِرْبِرْتسَن***[75] دراسته المشهورة : «الأقاليم الطبيعية الكبرى للعالم» الذي يقول فيه : «إننا في هذه البلاد أقل تقيّداً بالتقاليد بالنسبة لبعض البلاد الأخرى حيث لا توجد عندنا في واقع الأمر جغرافيا أصولية يمكن الاسترشاد بها. فلما ظهرت الجغرافيا الأكاديمية ظهر للجغرافيا مفهوم أوسع وهو أنها علم التوزيعات». ثم يستطرد قائلًا : «إن الجغرافيا لا تهتم بتوزيع عنصر واحد على سطح الأرض بل بتوزيع العناصر كلها»[76]».

لكن زعامة الجغرافيا ستكون بلا منازع لـ**سَارْهَلفورْد ماكِنْدر** الذي يرد إليه الفضل في إرساء قواعد الجغرافيا كعلم يدرس في الجامعات البريطانية. فلقد كانت حياته العلمية متنوعة للغاية فبعد أن ترأس كلية رِنْج الجامعية أصبح مديراً للمدرسة الاقتصادية الكندية ثم عضوا في البرلمان. وهو الذي وضع أساس مدرسة الجغرافيا بأكسفورد عندما كان يعمل بها من سنة 1887 إلى سنة 1905. «وقد دخل ماكِنْدر الجغرافيا من باب علم الاجتماع وتأثر كثيراً بآراء ياتْرِكْ جِدْس وأفكاره عن العلاقة بين البيئة والإنسان»[77]؛ هذه الأفكار التي لا يستطيع أحد أن ينكر دورها الفعال في توجيه الجغرافيا البريطانية الحديثة وذلك بشهادة كل معاصريه الذين أسسوا المدرسة الوطنية مثل **هربرتْسن** و **هْيو رُبَرْت مِل*** و **سْكوتْ كِلْتي*** و **جورج جودي تشيزَلْم***.

من المعلوم أن فترة ما بين الحربين قد شهدت توسعاً هائلًا في الميدان الجغرافي، لا في ألمانيا وفرنسا فحسب، بل حتى في بريطانيا أيضاً بفضل النشاط الدؤوب للرواد الذين كانوا يعلمون بالجامعات والمدارس إذ وضعوا برامج خاصة بطلبة الامتياز كان أولها في جامعة لِيڤرْپُول سنة 1917، ثم في كل من أبِرَسْتُوايذْ ولندن بعد عام فقط، ثم في كَمْبرِدْج ولِيدزْ سنة 1919. كما اضطلع هؤلاء بمهمة التأليف وإعداد الكتب المدرسية. ومن

* Halford Mackinder 1861-1948

74 عينه، ص 67.

* John Andrew Herbertson 1865-1915

75 بعد الدراسة في كل من ألمانيا (**فريبُورْج** Fribourg) وفرنسا (باريس) بدأ هِربِرْتسنْ يعمل في ميدان الأرصاد وعلم البحار. وهو من مؤلفي أطلس «بَرْتُولومِيو» للأرصاد. لكنه بعدما التحق بالجامعة اشتغل بعلم النبات بكلية دَنْدي (Dundee) الجامعية تحت إشراف ياتْرِكْ جِدْس. ثم بعدها عمل بكلية أُووِنْس (Owens) بمانْشِيسْتر ما بين 1894 و1896؛ ثم في أكسفورد. وله عدد من الكتب المدرسية التي ألف بعضها بمساعدة زوجته.

76 ت.و. فريمان، **الجغرافيا في مائة عام**،سابق، ص 88.

* Hugh Robert Mill
* Scott Kiltie
* George Goudie Chisolm

77 محمد عمر الفرا، **اتجاهات الفكر الجغرافي المعاصر**، سابق، ص 68.

أبرزهم ماكِنْدَر وهِرْبرسْتُنْ بمعيه زوجته «ذات الكفاءة العظيمة» و مَارْيِنْ نُيوبِجَنْ «وهي سيدة موهوبة خصصت مجهودها الرئيسي لخدمة الجمعية الجغرافية الملكية الاسكتلندية، ولم تتفرغ في أي وقت من الأوقات لوظيفة جامعية» وتشيزلم[78]، الذي أخرج نسخة مختصرة من «كتابه الخالد» في الجغرافيا الاقتصادية[79]. وقد ساهمت هذه الكتب مساهمة محمودة في الرفع من مستوى الجغرافيا وجعلها مادة جذابة وممتعة للمتعلمين.

ولما أخذ التعليم الجامعي ينمو ويتطور أصبحت الحاجة إلى الكتاب الرفيع المستوى تطرح بإلحاح شديد، الأمر الذي أدى بالضرورة إلى اعتماد عدد كبير من الكتب الفرنسية أهمها كتابي جانْ بْرونْ وفدال دُلَبْلاش في الجغرافيا البشرية ومؤلفات أَلْبِيرْ دمنْجون التي ترجم بعضها إلى الانجليزية ككتاب «اضمحلال أوروبا» (1920) و «الامبراطورية البريطانية» (1923) وهو المرجع الذي ظل الطلاب البريطانيون يلجأون إليه لدراسة جغرافية بلادهم. كذلك فعل الجغرافيون الطبيعيون الذي اتخذوا ألمانيا قبلة لهم فاعتمدوا على كتب **سُوِس**، صاحب مؤلف «وجه الأرض» المكون من أربعة أجزاء (1883 — 1909) والذي ترجم إلى الانجليزية والفرنسية؛ وإنتاج **پِنْك*** و **باسرج*** و **ديفز**.

إن پاتْرِك جِدْس في الأصل عالم نباتي كان يشغل معظم حياته منصباً في جامعة دَنْدي، وهو منصب لم يكن يتطلب التدريس إلا لفترة معينة من السنة، لكنه يعد «رائداً حقيقياً في دراسة المجتمع والذي اتخذه إطاراً للمسح الإقليمي». وأفكاره في هذا الباب شديدة الصلة بآراء بعض المفكرين الفرنسيين وخصوصاً عالم الاقتصاد والمهندس فِردِركْ لُپّلي والجغرافي الثائر إِلزي رُوكْلي. ولقد أسس جِدْس في سنة 1914 رابطة المسح الإقليمي*. وهو يبني مفهومه الإقليمي على معادلة لُپّلي التي تجمع بين المكان والعمل والناس. «وهو يؤمن بأن الفهم الثابت للمجتمع يجب أن يبني على دراسات ضمن إطار مناطق جغرافية واضحة المعالم ومتميزة كأن تكون قطراً أو مدينة»[80] مع اعتبار المكان والعمل والمجتمع مقومات ذات خصائص متميزة يربطها جِدْس بكل من الجغرافيا الاقتصادية والإناسة.

78

تخرج تشيزلم من جامعة إدِنبرة ثم التحق بجامعة لندن ليقضي فيها قسماً كبيراً من حياته كمحاضر. وله كتاب هام في الجغرافيا التجارية نشر سنة 1889. كما تولى تحرير المعجم الجغرافي الذي أصدرته دار لُنْچمان سنة 1895. وفي عام 1908 أصبح أول محاضر للجغرافيا بجامعة إدنبرة. وكانت له عناية كبيرة بالقضايا الاجتماعية. فهو صاحب عبارة «الأنثوغرافيا الاقتصادية» التي كان يقصد بها دراسة تأثير العوامل الجنسية والقومية والاقتصادية على مستويات المعيشة ومشاكل السكان.

79

هذه الأحكام منقولة عن ت.و. فريمان، **الجغرافيا في مائة عام**، سابق، ص 101.

*** Edward Suess 1831-1914**

*** Willian Penk**

*** Siegfried Bassarge**

*** Regional Survey Association**

80

Dickinson (R. E.) **Regional Concept,** The Anglo- American leaders, Routeledge and Kegan Paul, London, 1976.

عن علي عمر الفرا، **اتجاهات الفكر الجغرافي**، سابق، ص 69.

ولذلك فهو يرى أن «من هذا الثالوث الأصلي [...] تنشأ اتصالات جديدة وأفكار حديثة. المكان – العمل هو التعدين والنشاط الغابي أو الصيد البحري : العمل الذي يمكن أداؤه في أماكن مغينة فقط. وشبيهاً بذلك فإن المكان – المجتمع ينطبق على الإسكيمو والأقوام الرحل مثل الفايكنج : أقوام صاغتهم بالتحديد بيئتهم. إلا أن هناك عملا ثابتا ورد فعل، فلو أن هولندا صنعت الهولنديين فإنه ليس صدقا القول بأن الهولنديين صنعوا هولندا»[81].

81
عينه، ص 70.

والأكثر إثارة من ذلك أن جِدْس استخدم دراسته الحيوية أساساً للتخطيط فكان دائما يبتكر الآراء التي تثير التفكير. فكما أن البيولوجي يجب أن يتوصل إلى تعميمات أولية وسريعة معتمداً على خبرته بالطبيعة فإن الباحث الاجتماعي عليه أن يمارس الميدان متوسلا الملاحظة العملية والتسجيل والتعليل. وقد طبق هذا المنهج بالفعل من قبل الجغرافيين ومخططي المدن والأقاليم تطبيقا على أوسع نطاق، خصوصا خلال ما بي الحربين، داخل بريطانيا وخارجها في الهند وفلسطين بالدرجة الأولى. ولا شك أن هذا يعني أن فكرة المسح الإقليمي جاءت لتعطي نفَساً جديداً لمفهوم الاقليمية التي أصبحت ركيزة لإعادة البناء السياسي للتراب.

فلا غرابة إذن إذا انعكست أفكار جِدْس وآراؤه على أعمال كبار الجغرافيين البريطانيين ومشاهيرهم ككتاب ماكِنْدَر الذائع الصيت «المُثل الديمقراطية والحقيقة» ومؤلف **فَوْست*** عن «ولايات انجلترا»[82].

*** Charles. B. Fawcett**

إذا جاز اعتبار جِدْس رائد الجغرافيا البريطانية فماكِنْدَر هو مؤسسها الحقيقي. ولقد تتملذ عليه جيل بأكمله من الجغرافيين الذين ساهموا مساهمة فعالة في بناء هذه الجغرافيا وتطويرها. والجغرافيا بالنسبة له بمثابة الجسر الذي يربط بين العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية من جهة ويصل بين التاريخ والجيولوجيا من جهة أخرى. ومن هنا جاءت فكرته حول «التمحور الجغرافي للتاريخ» التي يستعين بها لشرح شؤون العالم السياسية. وهي في الواقع ليست فكرة جديدة. وهي تفيد أن الحدث التاريخي يتخذ من المكان الجغرافي محوراً له، لذلك اعتبرت الجغرافيا

82
لم يقتصر تأثير جِدْس على الجغرافيين وحدهم بل امتد اشعاعه أيضا إلى غيرهم من المفكرين كـلَوِسْ مَمْفورْد. فلقد استفاد هذا الفيلسوف الاجتماعي الأمريكي كثيراً من فكرة نمو المدينة في ستّ مراحل التي **طورها وعمل على نشرها في العالم أجمع (Necropolis, Tyrannopolis, Megalopolis, Metropolis, Eopolis, Village economy).**

ضرورية للتحليل والفهم التاريخيين. وإلى ماكِنْدر تُنسب أيضاً نظرية القاعدة الطبيعية للقوى في العالم[83]، ناهيك عما ابتدعه من مصطلحات راج استعمالها في الجغرافيا وغيرها من العلوم الاجتماعية[84].

ولقد أوضح ماكِنْدَر تصوره للجغرافيا في محاضرتين : الأولى في عام 1887 في الجمعية الجغرافية الملكية والثانية بعد ثمان سنوات في القسم الجغرافي التابع للرابطة البريطانية لتقدم العلوم. ففي الأولى يتساءل عن موضوع الجغرافيا ومنهاجها ويقول : ما هي الجغرافيا ؟ وجاء رده على مرحلتين. فبعد أن قدم التعريف الشائع الذي يجعل من الجغرافيا العلم الذي يتتبع تفاعل الإنسان في المجتمع وبيئته وبحسب التغير الذي يتعرض له مكانيا، بادر إلى بديل له بقوله : «انها العلم الذي يتتبع تنظيم الأشياء على سطح الأرض» ويستطرد قائلا بأن البيئة المتغيرة هي وظيفة الجغرافيا الطبيعية وعملها. ومن أقواله في نفس المقال : «الجغرافيا كالشجرة التي انقسمت مبكراً إلى فرعين كبيرين لكن أغصانها متداخلة ومنسوجة مع بعضها البعض بطريقة لا تنفصم عراها. وبناءاً عليه ينبغي تدريس الجغرافيا ككل موحد»[85]. ثم يقول : «إن التمييز الصحيح بين الجيولوجيا والجغرافيا كما يبدو لي، هو أن الجيولوجي ينظر إلى الحاضر الذي قد يفسر الماضي، أما الجغرافيا فتنظر إلى الماضي الذي قد يفسر الحاضر»[86].

أما في الثانية فهو يؤكد على المنهج ويوضح كيفية معالجة الحقائق الجغرافية وأسلوب تصنيفها. وهذه الحقائق يمكن معالجتها في نظره بطريقتين إحداها موضوعية والأخرى إقليمية. فالطريقة الموضوعية تصنف الحقائق إلى مواضيع عامة أو ظاهرات كالأنهار والجبال أو المدن مثلا أما الطريقة الثانية فهي معالجة إقليمية على شكل بلدان مثل إيطاليا أو إرلندة أو أستراليا.

إذا كان سَارْ هِلْفورد ماكِنْدَر يعتبر مؤسس الجغرافيا البريطانية فإن **هِرْبِرْتْسُن** يعد هو الآخر شخصية لامعة وقمة علمية في بلده. فهو، وإن لم يعمر طويلا، قد ترك بصماته واضحة على الفكر الجغرافي البريطاني، وإذا كان كلاهما يميل إلى الجغرافيا الإقليمية فهِرْبِرتسُن يأخذ مبدأ الإقليم الطبيعي بدلًا من الوحدة السياسية. وهذه الفكرة التي

83

وهي نظرية قال بها قبل نشوب الحرب بين روسيا واليابان (1904 — 1905) بأسابيع معدودة ثم استخلص منها فكرة «منطقة المحور» Pivot area أو قلب الأرض Heart Land في اليابس، المسمى كذلك بالجزيرة العالمية لغلبة الماء على اليابس.

84

من هذه المصطلحات ما ذكره محمد علي الفرا (**اتجاهات الفكر الجغرافي**، سابق، ص 71) مثل القوة البشرية man power والدفع الاجتماعي Social momentum والاهتمام المستمر going concern والعقدية nodality، وهو المكان الذي تتلاقى فيه جميع الطرق وتخترقه.

85

عينه، ص 72.

86

Dickinson (R.E) **Regional concept** op.cit p 89.

عن محمد عمر الفرا، سابق، ص 72.

يتضمنها كتابه «الجغرافيا الراقية»* المنشور في سنة 1907، والتي أطلق عليها الوحدات الأرقى، ظلت لمدة من الزمن تشكل الموضوع الرئيسي في تطور المفهوم الإقليمي في بريطانيا.

* Senior Geography

والجغرافيا كما يفهمها هِرْبِرتْسُن هي دراسة لطبقات ورتب البيئات الطبيعية والبشرية، وهو يطلق عليها تسميات كالنواحي والمراكز والأقاليم. فهل يكون هِربرتسُن قد تأثر إذن بأفكار هِتْنر الألماني ؟ فكيفما كان الحال فهو يولي عنايته أساساً إلى الوحدات الكبرى في النظام الطبقي الإقليمي التي يصفها على نحو ما يشرحه بقوله : «في تصنيفنا لهذه الوحدات الأكبر قد نختار هذا العمل أو ذاك كخاصية مثلما اختار لِنَّوْس* الأعضاء الذكور في تصنيفه للنباتات المزهرة. أو قد نطبق نظاماً طبيعياً ونأخذ في الحساب جميع الأشكال والأصناف، ومن الممكن تقسيم العالم إلى أقاليم بنوية وأقاليم جبلية، وأقاليم مائية، وأقاليم مناخية، وأقاليم بيولوجية، وأقاليم أنثروبولوجية. ومثل هذه التقسيمات [...] هامة وضروّية للجغرافي والذي يجب أن يفحصها بعناية قبل محاولة تحديد الأقاليم الطبيعية الجغرافية. وذلك بالتركيز على عنصرين أو ثلاثة من العناصر السابقة. ومن الناحية العملية أو التطبيقية فإن من الأفضل اختيار العاملين التاليين كمعيار للتقسيم الإقليمي.

* Linnaeus

أ ــ مظاهر السطح كمؤشر للبنية وللعملية التي صاغت الأشكال السطحية لهذه البنية.

ب ــ الحياة النباتية الطبيعية كتعبير عن نوعية المناخ والتربية.

أما في الدراسة البشرية فهو مع حرصه على عدم إهمال البيئة يؤكد على إدماج الإنسان بماله من دور فعال في الإقليم الجغرافي. فالإقليم ليس مجرد بيئة سلبية بل مسرح عمل الإنسان الذي يتفاعل معه تفاعلا قويّاً»[87].

على الرغم من تأثيرات ألمانية لا تُنكر، فإن الجغرافيا البريطانية وثيقة الصلة بالمدرسة الفرنسية التي ظلت تقتدي بها زهاء أربعين سنة ودون أدنى محاولة جادة للانسلاخ عنها وتجاوزها، اللهم ما كان من تدقيق

87 عينه، ص 73 ــ 74.

مقاييس الدراسة من جهة، والعناية أكثر بالجوانب الاقتصادية والسياسية من جهة أخرى. وستظل الأوضاع على هذا النحو إلى غاية الستينات، إلى درجة أنه يشترط على طلاب جامعتي كَمْبردج وأُكسْفورد الراغبين في التخصص في الجغرافيا إجادة اللغة الفرنسية ![88].

فإذا كان الجغرافيون البريطانيون لا يطمحون بتاتاً إلى تأصيل المادة ولا يسعون إلى ابتكار الأفكار فهم مقابل ذلك حريصون كل الحرص على اتقان «الصنعة» وإحكامها. وهذا بالفعل ما حققه كبار الأساتذة – مثل **آلنْ جِرَانْت أُجِلْفي*** و **بِرْسِي مُودْ رَكْسبي***، الذين عملوا على تخريج أجيال من الباحثين البارعين الذين اغنوا بدراساتهم القيمة وإسهاماتهم المتنوعة الخزانة الجغرافية فأعطوا بذلك انطباعاً طيباً عن الجغرافيا كمادة أساسية وحيَّة.

2.1.3 – من الجغرافيا الروسية إلى الجغرافيا السفياتية

تميزت الجغرافيا الروسية في نهاية القرن الماضي بحيوية كبيرة وشخصية بارزة. وهي تيار تأسس على المزاوجة بين مفهومي المشهد والبيئة، لكن على طراز يغاير ذلك الذي يطبع مدرسة بركلي الأمريكية. لقد أخذ الروس عن الألمان أساسيات الجغرافيا الطبيعية لكنهم طوروها حتى تلائم ظروف بيئتهم الخاصة. وهكذا نجد الباحثين الروس مثلا يولون عناية كبرى لموضوع العلاقة بين التربة والنبات. وهذه العلاقة هي التي ارتكز عليها **دُوكَتْشيِّيف***، رائد الجغرافيا الطبيعية الروسية، لتحديد المشهد ورسم معالم سهول روسيا وفضاءات سيبيريا الواسعة.

وإذا كان الروس يعتبرون، هم أيضاً، أن الجغرافيا هي علم المشاهد، بدليل استعمالهم مصطلح «لاندشفت»، فإنهم بخلاف الألمان يجردون ذلك المفهوم من شحنته السُّلالية التي تعاظم أمرها هنالك في العقدين الأولين من القرن العشرين. ومع هذا فهم يفهمون المشهد كما رآه شلوتَرْ على غرار الطبيعيين، أي كوحدة نشأت عن تفاعل القشرة الصخرية والمحيط الأحيائي والغلاف الجوي والمياه. إلا أن الجغرافيا الروسية وهي تدرس المشهد تهتم أساساً بالتغيرات التي تحدث للغطاء النباتي وتهدوره

88 Claval (Paul), **Geographie économique et humaine contemporaine,** op.cit, p 82.

* **Alan Grant Ogilvie 1887-1954**

* **Percy Mande Roxby 1880-1948**

* **Dukachaev**

بفعل الإنسان. غير أن البحث في أسلوب تعامل الإنسان مع بيئته وطرق التأثير عليها يتم بعيداً كل البعد عن الحتمية السائدة في أوروبا آنذاك. ومن المحتمل جدّا أن يكون وراء طَرق هذا الموضوع، الذي تألق فيه مع بداية القرن أَلِكسَندر فُيْكوف* [89]، دوافع سياسية جعلت الجغرافيين الروس المتعاطفين مع الشعب يوظفون القضية ويتخذونها مطية للدفاع عنه بطريق غير مباشر.

وهذا بالذات ما خلّى الجغرافيا تسترسل وتعيش حتى بعد الثورة البُلشُفية كما يذكر دَيْفَدْ هوزَنْ [90]، لكن بعد أن أُفرغت إفراغاً في قالب الماركسية. ففي 4 ماي من عام 1918 تم تأسيس الجغرافيا السفياتية رسمياً كفرع للجنة المكلفة بدراسة الطاقات الإنتاجية الطبيعية التابعة لأكاديمية العلوم. ولقد خطت الجغرافيا بعد ذلك خطوات حثيثة بفضل كل من بِرْج* و جرِجُرْيِيفْ* و بَرانسْكي. فالأولان يعتبران مؤسسي الجغرافيا الطبيعية السفياتية، بينما يعد الثالث مؤسس الجغرافيا البشرية.

لما تقيد العلم بالمذهب الرسمي للدولة الجديدة وتلون بلون الماركسية اللينينية أصبحت الجغرافيا، كغيرها من العلوم، لا تستطيع التحرك إلا في نطاق المادية الجدلية مع التحرز من الحتمية التي تنافي التصور الماركسي للإنسان؛ هذا الإنسان الذي يقدر على تطوير الطبيعة وتسخيرها خدمة للطبقة الكادحة. أما الحجة التي يقدمها الحتميون بقولهم : «أنه يستحيل زرع شجر الموز بالقطب الشمالي وإنبات فاكهة الأنناس بجريلندا» هي حجة داحضة في رأي الجغرافيين السفيات بأدلة كثيرة ومتنوعة كاستصلاح أراضي كزخستان البكر وبراري آسيا الوسطى الجائعة أو التجهيزات الجبارة ببراتسك وكُوبِشاف أو نجاح الزراعة القطبية أو الملاحة في المياه الشمالية. وعليه فإن كل تصور بيئي حتمي تصور مردود لأنه يعارض المذهب الماركسي اللينيني، الذي يرفض أن يكون الإنسان خاضعاً للطبيعة [91].

ومن المفارقات العجيبة أن تظل الجغرافيا الروسية مع ذلك عاكلفة على دراسة تأثيرات البيئة على تطور المجتمع واعتبارها موضوعاً رئيسيا لعشرات من السنين. ويوعز هذا الاهتمام إلى آراء بعض مؤرخي القرن الماضي

89

Woeikov (Alexander), **De l'influence de l'homme sur la terre,** Annales de Géographie, Vol X, 1901, pp 97-114 et 193-215.

*** Alexander Woeikov**

90

Hooson (David), **The develepment of geography in pre- Soviet Russia,** Annals, Association of American geographers, Vol 58, 10 n° 1, p 41-44.

*** Berg 1876-1950**

*** Grigoriev 1883-1968**

*** Baransky 1881-1963**

91

Sabor (Milos M.) **La géographie soviétique : sur quels principes est-elle actuellement basée ?**Revue canadienne de géographie, 1956, Vol 10, n° 1, pp 41-44.

مثل **مشْنكوف*** حول دور البيئة[92]، وهي آراء تأثر بها المنظرون الماركسيون الأوائل كـ**بِلِخَنُوف***، الذي كان ينظر بالفعل إلى علاقة المجتمع بالمكان من خلال البيئة لأنه اعتبر الماركسية تطبيقا فعليا للنظرية الداروينية في ميدان نمو المجتمع وتطوره. ونظراً لوزنه العلمي وانتمائه إلى الماركسيين المَنْشِفيك لم يتهم بِلِخَنُوف بـ «التحريفية الجغرافية». ولقد تأثر بأفكاره عدد من القادة البُلشِفيك مثل **بُوخَارِين**، الذي ذهب كما هو معلوم ضحية التصفيات الستالينية الرهيبة.

* Mechnikov 1838-1888

* Plekhanov 1856-1918

92

Sanguin (André - Louis) **La controverse Anuchin (1960-1976), tournant dans la pensée géographique en U.R.S.S.** l'Espace Géographique, n° 4, 1979, pp 273 - 278.

وفي سنة 1926 قدم **برانسكي***، أشهر الجغرافيين الاقتصاديين الروس، نظريته حول المجتمع ومحيطه الطبيعي. إلا أن ستالين حسم المسألة في شهر شتنبر من عام 1938 حيث ندَّد بشدة بالآراء البيئية وأنكر دور المحيط في توجيه المجتمع. وهكذا تضاف إلى قائمة «الجرائم البورجوازية» جريمة «التحريفية الجغرافية» التي باتت سيفاً مُصلتاً فوق رؤوس الجغرافيين البيئيين. فما دام الإنسان قادراً، بقوة التقدم الاجتماعي، على التحكم في الطبيعة والسيطرة عليها فلا سلطان لقوانين هذه على ذاك. فجاءت مشاريع ستالين الكبرى وصفقت لها جريدة پرافدا ثم أعلن الجغرافيون سيادتهم المطلقة على الطبيعة !

* Baransky

ومن أهم مخلفات هذه العقيدة أن انقسمت الجغرافيا في الاتحاد السفياتي إلى جغرافيا طبيعية وجغرافيا بشرية تسير في ثلاثة اتجاهات رئيسية : الأول سيعنى بالظروف الطبيعية وما يلازمها من موارد، والثاني بتوزيع الصناعات وقوى الإنتاج، والثالث بالدراسات الإقليمية ووضع الخرائط. ولقد حققت الجغرافيا في الميدان الطبيعي نتائج هامة في فروع المناخ والمياه والبحار والثلوج والجيومورفولوجيا والأتربة والأحياء. كما عملت على صياغة نظرية عامة للجغرافيا الطبيعية ساهم فيها نفر من الباحثين كـدُكَتْشِيف و بِرْج، اعتماداً على تحليل تاريخي للمشهد، و چِرِچُوْيِيفْ* صاحب فكرة الغلاف الجغرافي الطبيعي. أما الاتجاه الثاني، المهتم بتوزيع قوى الإنتاج، فهو يندرج كلياً في الإطار اللينيني وتخطيطه الخمسي للإقتصاد الاشتراكي. وفي

* Grigoriev

هذا الميدان يبرز بَرانسكي و **كُلُفسْكي***، اللذان طورا مفهوم المنطقة الاقتصادية. ولا شك أن الفرع الثالث في هذه الجغرافيا هو الذي يقدم أحسن وأفيد المنجزات التي توصلت إليها الجغرافيا السفياتية بالنظر إلى كثرة الأطالس وتنوعها وتعدد الدراسات الإقليمية وانتشارها.

* Kolovsky 1891-1954

وإلى غاية الحرب العالمية الثانية ظلت الجغرافيا السفياتية تعطي الأولوية للدراسات الطبيعية حتى أحرزت على قصب السبق في بعض فروعها كالأبحاث المتعلقة بالقطبين أو تلك التي تخص الظرء الديوم[93]. أما الجغرافيا الاقتصادية فهي ستنمو بعد الحرب وببطء ملحوظ. فالسفيات ينظرون إلى الجغرافيا البشرية على أنها أولًا وقبل كل شيء جغرافيا اقتصادية بمقتضى الايديولوجيا المعمول بها والتي تجعل من قوى الإنتاج أساس البناء الاشتراكي. وهذا ما جعل الجغرافيا الاقتصادية تتطور في حجر مصالح التخطيط القطاعي والاقليمي وتعالج قضاياها في أحضان المؤسسات الاقتصادية. وذلك هو السرّ في ابتكار الجغرافيا السفياتية مبكراً لكثير من الطرق العملية والأساليب المنهجية في ميدان التخطيط الريفي والحضري.

93
أي المَسَكة الباطنية من التراب المتجمدة على مدار الحول (وهي تسمى بالانجليزية Permafrost وبالفرنسية Pergelisol أو Gélisol).

إن المراقبة الشديدة والحصار الأيديولوجي الصارم الذي ضرب على الفكر بصفة عامة، والعلم بصفة خاصة سرعان ما أبعد عن ساحة البحث كل الجغرافيين «ذوي الميولات البرجوازية». أما أولئك الذين ناصروا أفكار فيبَر ونادوا بتخطيط الصناعة وفقها فكان جزاؤهم الحبس لأنهم بأفكارهم الفاسدة هذه، يعارضون الخطط الخمسية التي أقرها ستالين ويعملون ضد الثورة ! وهكذا بسبب الاضطهاد الفكري من جهة، وشجب كل نزعة بيئية من جهة أخرى، لجأ معظم الجغرافيين إلى الميدان الطبيعي الذي رأوا فيه ملاذاً قد يقيهم شر هذه العقيدة ويعصمهم من بطشها. وبذلكم تنفصم عرى الجغرافيا وتنشطر شطرين متقابلين، دونما أي حرج.

ومن التبريرات التي يقدمها أساطين الجغرافيا المقربين من السلطان لهذا الفصل اختلاف القوانين التي تحكم الفرعين. فإذا كانت الجغرافيا الطبيعية تخضع لقوانين طبيعية، فإن الجغرافيا الاقتصادية بالمصطلح

السفياتي – تخضع لقوانين الاقتصاد الماركسي. ثم أن المزاوجة معرضة في نظرهم إلى خطر الحتمية التي تعد من أقبح عيوب الجغرافيا الغربية. وأخيراً وليس آخراً فقد لا يغيب على أحد ما أصاب شجرة الجغرافيا في الاتحاد السفياتي من تشذيب بالغ لكثير من أغصانها، بل وقطع جائر لبعض فروعها كالجغرافيا التاريخية والجغرافيا السياسية أو الجغرافيا الاجتماعية الخ...

2.3 ــ لمحة عن التيارات الثانوية

1.2.3 ــ باقي أقطار أوروبا الشمالية والشرقية : نزعة ألمانية

لقد تطورت الجغرافيا خارج البلدان السالفة الذكر بالاعتماد كليا أو جزئياً على النماذج السائدة في أوروبا وعلى رأسها ألمانيا وفرنسا. فالمدرسة الألمانية بالغة التأثير في بلغاريا وتشكسلفاكيا وبلندا. بينما رومانيا يلتقي فيها إشعاع المدرستين معاً نظراً لمكانة اللغة الفرنسية فيها من جهة، وانتشار مؤلفات دُمَرْطونْ من جهة ثانية. وقد تقرب سِرْبيا من هذه الحالة بفضل الجغرافي الكبير **يُوَانْ سِفِييتْش*** الذي تلقى تعليمه في فيينَّا بصحبة پِنْك وسَاوِسْ؛ ثم كانت له روابط بدُمَرطونْ الذي أصبح يتزعم المدرسة الفرنسية بعد وفاة دُلَبْلاشْ. ولا شك أن هذه الصداقة هي التي هيأت لـدُمَرْطون ظروف تعميق دراسة الكارست وسمحت لِسِفِييتْش بنشر كتابه الهام عن البلقان في باريس سنة 1918.

* Jovan Cvijic 1865-1928

أما الجغرافيا الاسكندنافية، وخاصة الجغرافيا السويدية، فهي وإن تأثرت بالنموذج الألماني أساساً، ظلت متفتحة للقاحات الروسية التي حملها الفِنْلَنْدِيون الناطقون بلغة جيرانهم. كما أنها أفادت أيضاً إفادة جمة من أفكار الجغرافيين الأمريكيين. والجغرافيون الاسكندناف شأنهم شأن زملائهم البريطانيين، يتقنون العمل ويضبطون المنهج أكثر مما يكترثون بالمفاهيم.

2.2.3 ـ العالم اللاتيني : ميولات فرنسية

إذا كانت المدرسة الألمانية قد ألقت بظلالها على جل أقطار أوروبا، فإن البلدان اللاتينية، أوروبية وأمريكية، تميل ميلا ملحوظاً نحو المدرسة الفرنسية. صحيح أن الجغرافيا الايطالية[94] ذات صلات وطيدة بالجغرافيا الألمانية، بحكم وجود عدد من الباحثين المتخرجين من المعاهد النمساوية، وبالنظر أيضا للنزعة الجرمانية لايطاليا في الثمانينات من القرن الماضي بسبب موقفها من فرنسا، لكنها رغم ذلك عرفت ما بين الحربين توجها واضحاً واهتماماً خاصاً بمواضيع معينة أولتها عناية بلغت حد المبالغة كما هو الشأن بالنسبة للسكن الريفي الذي يعد من أبرز المواضيع التي عالجتها المدرسة الفرنسية كما هو معلوم.

أما شبه الجزيرة الإيبيرية وبلدان أمريكا اللاتينية، التي لم تعرف مدارس حقيقية قبل سنة 1940[95]، فتأثير المدرسة بيِّن فيها لا غبار عليه، خاصة في اسبانيا[96]. وفي البرازيل كان لبعض الاعلام الفرنسيين (**دِفُنْطين***، **مُنْبيج***، **رُولَن***، **لُولَنُو***)· دور حاسم في انطلاق الجغرافيا بهذا البلد في الثلاثينات. فهم الذين أشرفوا على تكوين الرعيل الأول من الجغرافيين البرازيليين وتوجيههم وتدريبهم على العمل الميداني. لكن هذا الدور الفرنسي لم يمنع من تأثيرات أخرى : ألمانية ثم أمريكية، خاصة بعد الحرب العالمية الثانية. فإذا كان الجغرافي الألماني **لِيو هَاينْرِشْ فَايْبَلْ*** عمل على توجيه البحوث نحو القضايا الاقتصادية ودراسة المشاهد، فإن الأمريكيين، وعلى رأسهم **هِلْجَارْد*** و **أُورَيْلي***و **سِتِرْنبِرْج***، قد عاينوا الواقع البرازيلي على ضوء آراء قريبة من تصور مدرسة بركلي.

3.2.3 ـ العالم الأسيوي : التبعية للغرب (حالة اليابان)[97]

إن الجغرافيا العصرية في اليابان شأنها شأن باقي العلوم «بضاعة»، بضاعة جلبت من الغرب بعد ثورة الأنوار (عصر الميجي). لكن الجغرافيين اليابانيين يرجعون تاريخ النشاط الجغرافي إلى ما قبل ذلك بكثير وبالضبط إلى القرن الثامن الميلادي. ففي هذا القرن بالذات عملت السلطات، تأسيا بالتقاليد الصينية، على وضع مصنفات لمجموع أقاليم

94

Gambi (Lucio) **Esquisse d'une histoire de la gégraphie en Italie,** in Travaux de géographie fondamentale, Paris, Les Belles Lettres, 1974 pp 9-39.

95

Capel (Horacio) **Filosofia y ciencia en la géografia contemporanea,** Barcelona, 1981.

96

Ruidor (Lluis). **Les Géographies Universelles et l'approche régionale de la géographie espagnole du siècle dernier,** l'Espace Géographique, n° 3, 1987 pp 185-191.

* **P. Desfontaines**
* **P. Monbeig**
* **A. Ruellan**
* **M. Le Lannou**

* **Leo Heinrich Waibel 1855-1951**
* **Hilgard**
* **O,Reilly**
* **Sternberg**

97

إن ما نتوفر عليه اليوم من مؤلفات حول تاريخ الجغرافيا الحديثة والمعاصرة لاشك أنه رصيد هام، أخذ يتراكم بشكل واضح خصوصاً بعد الحرب العالمية الثانية بفعل أزمة العلوم الاجتماعية التي دفعت جل هذه العلوم، ومنها الجغرافيا ـ إلى مراجعة نفسها وتصحيح مسارها وبالتالي إلى البحث في

البلاد؛ كما عنيت أيضا في الفترة ما بين 738 و 796 م عناية خاصة بإنجاز الخرائط التي شملت ربوع الامبراطورية بكاملها والتي بقيت تستعمل إلى غاية القرن السادس عشر[98].

ورغم العديد من الأبحاث الجغرافية التي تمت قبل عصر الميجي لم تتمكن الجغرافيا العصرية من النهوض بعد. وهكذا ظل هذا الإنتاج الذي نشر في منتصف القرن التاسع عشر لا صدى له في الأوساط التعليمية والعلمية على السواء، وإن كان يلقى استحساناً من قبل النخبة المثقفة. فلا غرابة إذن أن يتأخر تأسيس الكراسي الجامعية إلى بداية القرن العشرين : سنة 1907 بكلية الآداب بطوكيو ثم سنة 1911 بكلية العلوم بنفس المدينة.

إن الجغرافيا الجامعية التي لم تنطلق مبكراً تأسست تحت إشراف البلدان الغربية، سواء عن طريق البعثات العلمية أو بواسطة المطبوعات. ويكاد يتفق الجغرافيون اليابانيون المهتمون بتاريخ المادة في بلدهم على عدم اعتبار الكتابات السابقة للقرن التاسع عشر كتابات عصرية بالقياس على ما جاء به رِتَر وهَمْبُلت. كما أنهم لا يرون في جغرافيتهم المعاصرة أكثر من مجرد نسخة من الجغرافيا الغربية تتجاهل تجاهلاً تاماً وجود إرث عظيم ذي قيمة كبرى[99].

وهذا الانسلاخ في رأي **طَنَبي هِرُشي**[100] لم يفض، كما هو منتظر إلى اندثار الجغرافيا الأصلية واختفائها نهائيا عن الساحة الفكرية، حتى لو أن الجغرافيا العصرية غزت معاهد البحث وسيطرت على الجامعات واحتلت الكراسي. فهذه الجغرافيا التقليدية التي يسميها طَنَبي بـ «الجغرافيا الابتداعية» مقابل «الجغرافيا الأصولية»، ما تزال حية ترزق، تغذيها أبحاث الهواة وطلبة التاريخ والجغرافيا ورجال الصحافة والقصاصين والاداريين الخ...؛ الأمر الذي خلق في رأيه ازدواجية في الجغرافيا اليابانية[101].

فلما كان عصر الميجي وتقرر تدريس الجغرافيا في الطورين الابتدائي والثانوي، وذلك سنة 1872، وهي السنة بالضبط التي تم فيها نفس الاجراء في فرنسا، كان الساسة يرمون من وراء ذلك وبدافع من التعصب، إلى اذكاء الأحاسيس الوطنية والشعور بالانتماء القومي. فكان طبيعيا أن ينطلق التدريس أولًا في المعاهد العليا للتكوين. ولقد

جذورها وتطورها فكراً ومنهجاً. غير أن هذا الإنتاج الزاخر لم يتوَّج حتى الآن، فيما نعلم، بدراسة تأليفية تعاين كل بلدان المعمور. فلعمري هذا عمل جبار لن يقدر عليه في رأينا إلا الاتحاد الجغرافي الدولي الذي قد يجمل به في المستقبل أن يتبنى هذا المشروع. أما ما هو بين أيدينا من بعض المحاولات في هذا الباب، فهو لا يعدو مجرد وصف سطحي وسرد سريع للأحداث يركزان على العالم الغربي ويتجاهلان ما سواه. ولذلك فلا أحد يستطيع للأسف الإفادة من ذلكم الحصاد الهائل المبثوث في بطون الآلاف من المجلات والكتب وراء ستار عشرات اللغات !

فما بالك إذن بباحث يتعيش في بلد استبدل «الفلكلور» بالفكر وفضل المقاهي والحانات على الكليات والخزانات ؟ فمن أين بالمراجع ؟ فليعذرنا القارىء الكريم إذا لم نشف غليله وليقنع بما سمحت به الظروف.

98

للمزيد من المعلومات عن الجغرافيا اليابانية قبل عصر الميجي راجع :

Pinchemel (Philippe) **L'histoire de la géographie Japonaise,** l'Espace Géographique, n° 2, 1982, pp 165 - 171.

99

Tanabé (Hiroshi), **La géographie Japonaise et sa contribution possible,** l'Espace Géographique, n° 2, 1980, pp 85-93.

100

عينه، ص 86.

101

قد لا تكون هذه الازدواجية خاصة بالجغرافيا اليابانية وحدها. فكل ما ذكره

خصص الأربعة الأوائل منها للإناث : اثـنان بطوكيو سنتـي 1886 و 1890 ؛ ثم ثالث بهيروشيما سنة 1906 والرابع بنَارا عام 1910. فما كانت سنـة 1886 حتى أعلن عن البرامج الدراسية ثم شرعت وزارة التعليم ابتداءاً من سنة 1904 فـي طبع الكـتب.

غير أن مهد الجغرافيا الحقيقي قد يكون المدرسة الفـلاحية التي أنشأت سنة 1876. بمدينة صپُّورو، وهي المدرسة التي نشر أثنـان من خريجـها في نفس العام (1894) بحثيـن جاءا يؤكدان أثر المدارس الغربية على الجغرافيا اليابانية الناشئـة : واحد لـ**شِچا شِـچِـطَـكا** (1863 ـ 1927) وموضوعه المشاهد اليابانية؛ والآخـر لـ**أُشِمُـراكَـنْزو** (1861 ـ 1930) حـول الأرض والإنسان وهو عبارة عن عرض لآراء رِتَرْ وجُـوِيُـو ومَارْش وسُمَّرْفِـلْ التي اطلع عليها خلال مقامه لمدة سنتيـن بالولايات المتحدة. وهكذا كان لهذين الرجلين، اللذين شُبها الأول برَتـزَل والثاني برتَرْ، دور كبير في جلب التيارات الكبرى للجغرافيا آنذاك من غائية وبيئيـة وحتمية.

أما الجغرافيا الجامعية فهي كما سبق أن ذكرنا نَمت عن طريق البعثات العلمية إلى أوروبا، وخاصة البلدان الجرمانية وعلى رأسها ألمانيا؛ والولايات المتحـدة. وعلى غرار الجامعات الغربية توزعت الجغرافيا في اليابان على مختلف المعاهد والكليات، الأمر الذي أدى هنا كذلك إلى تفرع البحث وتعدد التخصصات والذي سيـفضي في المستقبل إلى تقسيم العمل بين معاهد الشمال التي ستميل إلى الدراسات «الطبيعية» ومعاهد الجنوب التي ستعنى بالأبحاث البشرية.

إذا كانت المدرسة الفلاحية بـصپُّورو هي التي زرعت البذرة الأولى للجغرافيا اليبانية فإن جامعة طوكيو هي التي أنجبت مؤسسيها الحقيقيين. فبعد تخرجه من قسم الجيولوجيا بجامعة طوكيو سنة 1895 سافر **يَمَزَكي نُوْمَزا** إلى ألمانيا ثم إلى النامسا حيث مكث هناك أربع سنوات. وبعد عودته من أوروبا عهد إليه بتدريس الجغرافيا في كل من المدرسة العليا للأساتذة والجامعة بطوكيو، ثم أسند إليه سنة 1911 كرسي الجغرافيا الذي ألحق بفرع الجيولوجيا. وبعد ذلك بثمان سنوات

طَنَبي بهذا الشأن مصنفا «البحث الجغرافي الابتداعي» إلى ثلاثة أصناف موجود أيضاً في جل الجغرافيات الوطنية. لذلك فإننا لن نعرض لهذه القضية في هذا التقديم الوجيز. أنظر المرجع السابق، ص 89.

أسس معهد الجغرافيا (1919)، الذي سارعان ما ألحق بجامعة بُنِرْكا الفتية التي فتحت أبوابها عام 1929. ولقد كان يَمَزَكي الجغرافي الوحيد المنتمي للأكاديمية الأمبراطورية للعلوم. أما اهتماماته، فهي وإن كانت متنوعة، ظلت تركز على بعض المسائل الدقيقة كالأشكال الجليدية والبنيات الانكسارية في المناطق المعرضة للزلازل.

أما زميله **أَچَاوَا طَاكُوجي** (1870 — 1941) فهو أيضا خريج قسم الجيولوجيا (1895). وهو بدوره سافر إلى الخارج وبالتحديد إلى فيينا حيث تتلمذ على سوِّس وپِنْك. وفي سنة 1907 أسندت إليه شعبة التاريخ بجامعة طوكيو كرسي الجغرافيا فأخذ يهتم بالجغرافيا الاقليمية والجغرافيا التاريخية معاً. لكنه جدد صلته بالجيولوجيا حيث أصبح يدرسها لما فتحت الجامعة شعبة خاصة بها.

بجانب الجيولوجيا التي ساهمت بشكل فعال في وضع حجر الأساس للجغرافيا اليابانية، تجدر الإشارة إلى مساهمتين لا يستهان بهما : إحداهما للتاريخ بفضل العالم الكبير **طُوچُو يُشِدا** (1864 — 1918) والأخرى لتيار ذي نزعة ريفية يهتم بالأجناس والتراث بقيادة باحثين مقتدرين : **كَمِشِطُشي أُدَوشي** (1875 — 1954) وشخصيات لامعة مثل **إِنَزُو نِطُبي** (1862 — 1933)[102].

102 للتذكير فإن نِطُبي قد شغل منصب نائب رئيس عصبة الأمم.

ولما أخذ اليابان يتفتح على العالم الخارجي، بدافع الضرورة ألتجارية والاقتصادية، ظهر في البلاد عدد من المدارس التجارية التي اقتادت بالنموذج الهولندي ثم ما لبثت أن أصبحت مهداً للجغرافيا الاقتصادية خاصة بعد أن ارتقى بعضها إلى مقام جامعة مستقلة.

ولقد تميزت العقود الأولى من القرن العشرين بإصدارات هامة في ميدان الجغرافيا نذكر منها على سبيل المثال «المعجم الجغرافي الكبير لليابان»، الذي يقع في ثمانية مجلدات. وهو من تأليف طُوچو يُشِدا، أستاذ تاريخ اليابان بجامعة وَسِدا؛ و «الجغرافيا الاقليمية لليابان» من عشرة أجزاء (1905 — 1914) بقلمي **يَمَزَكي** و **سَاطو**؛ و «مشاهد

من اليابان» **لأُسُوِي كُجِمَا**، الذي تأثر إلى حد بعيد بآراء رِتِّر وأفكار رَتْزَل.

وتعتبر العشرينات والثلاثينات بداية مرحلة نضج حقيـقي تميزت من جهة بتعدد أقسام الجغرافيـا وانتشارها حتى في الجامعات الحرة[103]، ومن جهة ثانية بتأسيـس جيل آخر من الجمعيات الجغرافية التي كان لكل منها مجلة خاصة. وبهذا يـترسخ العمل الجغرافي ويبرز رعيل جديد من الباحثيـن. ففي طوكيو خلف **تُسُجِمُرا** (المزداد سنة 1890) – وهو جيولوجي متخصص في الانكسارات – **يَمَزَكي** ليصبح من أقطاب الجغرافيا اليابانية حيث شبهـه بعضهم بدُمَرْطون، وإن كان متأثراً أكثر بكارل سَاوِرْ، وهو صاحب أول مؤلف ياباني في الجيومورفولوجيا(1923).

أما **طَنَكا كَـايْـجي**، الأستاذ بالمدرسة العليا للأساتذة، فهو عمل بمساعدة تلاميذه على تأسيس «مدرسة إقليمية» شبيهـة بالمدرسة الفرنسية. وهي مدرسة ما تزال آثارها موجودة حتى آلان. هذا في الوقت الذي عكف فيه **أُشِـدا** على تثبيـت «الجغرافيا المحلية» (كِيُـودوها) على الطريقة الألمانية*، التي تمثل أحد الاتجاهات للجغرافيا التقليدية اليابانية بجانب «المنغرافيات الادارية» (فُودُو – كـي) والدراسات الاقليمية للعالم[104].

ويؤكد مؤرخو الجغرافيا اليابانية أن ما يميز هذه الحقيقة بالدرجة الأولى هو توطيد آصرتها بالخارج وتغلغل التأثيرات الأجنبية فيها حتى أن اهتمام الدارسيـن لم يتجاوز مجرد الاقتباس والمحاكاة للأفكار والمواضيع والمناهج التي أخذوا يطبقونها بـحذافيرها دون مراعاة لخصوصيات بيئتهم. ففي سنـة 1925، حينما كان أَلْبير دُمَنْجُون يقوم ببحثـه الميـداني حول السكن الريفي، سارعت وزارة التعليم إلى إرسال الأستاذ **أَدَوُشي مِشِطَشي** إلى فرنسا الذي لم تمر سنتـان فقـط على سفره حتى نشر كتابا تحت عنوان : «السكن والجغرافيا». ومن يومها اعتاد الجغرافيون اليابانيون السفر إلى باريـس لاستماع المحاضرات التي كان يلقيها جَـان بْرُونْ «بالكـليج دُفـرانس» ومتابعة الدروس

103
لقد تأسـس في هذه المرحلة ما لا يقل عن سبعة أقسام، ثلاثة منها في جامعات حرة.

* **Hermatkunde**

104
Tanabe (Hiroshi) **la Géographie Japonaise et sa Contribution possible** op.cit.

التي كان يشرف عليها أساتذة المعهد الجغرافي كـدُمرْطون و دُمَنْجـون وشُـولي. لكن مع ذلك كله ظل الجرمان يهيمـنون على الجغرافيا اليابانية.

إجمالا يمـكن القول بأن الانتـاج الجغرافي الياباني في هذه الحقبـة الواقعة بين الحربين يماثل إلى حد بعيد الإنتاج الغربي بلونيـه الأوروبي والأمريكي كما تدل على ذلك المواضيع الكبرى المعالجة كموضوع السكن، بشقيـه الريفي والحضري، والجغرافيا التاريخية وتاريخ الجغرافيا باليابان إلخ.... لكن مع حلول سنـة 1937، لما أخذ اليابـان يستعد للحرب، أصبح النشاط العلمي ينحصر وينزوي على نفسه فصار البحث الجغرافي يميـل إلى الجيوبوليـطيقا العدوانيـة كما يتضـح في «بيان حول الجيوبوليطيقا اليابانية» الكتاب الذي أصدره **كُـمَكِـي** سنة 1940، أو في إنشاء الجمعيـة اليابانية للجيوبوليطيقا برئاسة أحد أمراء البحـر في شهر نونبر من سنـة 1941.

ولما انتهت الحرب وانهزمت الامبراطورية شر هزمية واحتلت القوات الأمريكية البلاد اتخـذ اليابان مساراً جديداً سرعان ما انعكست آثاره على الميدان الجغرافي الذي أصبح يوجهه الجغرافيون الأمريكان. ففي سنـة 1947 أسـس معهد الدراسات اليابانية بجامعـة مِشـچان. وفي سنـة 1949 أشـرف **إدْوَرْد أكِرْمان** على إعداد تقرير حول الموارد الطبيعية للبلاد، اعقبته دراسة عن التربة عام 1951.

وهكـذا تمخـض عن الهزيمـة وضع جديد غير من الرجال حيث عملت قوات الاحتلال الأمريكية على إبعاد كل من اشـتبـه في أمره من الجامعييـن[105]. كما أعادت تنظيم المؤسسات التعليميـة وأشرفت على خلق جمعيات جغرافية أخرى أصبحت كلها تعمل على ربط الجغرافيا اليابانية بالجغرافيا الأمريكية ويهيـئها بالتالي إلى استقبال تيار «الجغرافيا الجديدة» بعد الخمسينات.

إن التمايز الذي طبع المدارس الجغرافية، التي ازدهرت في ظرف لم يتجاوز النصف الأول من هذا القرن، لاشك أنه راجع بالدرجة الأولى إلى غياب أساس نظري يلُمُّ الشمل ويوحد الرؤى ويصهر الأفكـار في بوتقة واحدة. ومع ذلك فإن هذا الاختلاف، وإن كان

105 وهكـذا أجبر مثلا كُمَـكِـي وعدد من زملائه بشعبة الجغرافيا بجامعة طوكيو على الاستقالة.

جوهريا، فهو اختلاف قليل التنوع بحكم محدودية المواضيع المطروقة التي لا تسمح إلا بعدد معين من التراكيب.

وكيفما كان الحال، تظل الصبغة القومية إحدى الصفات البارزة للجغرافيا في هذه الحقبة، تبعاً لما يروج في كل قطر من أفكار ويعرض من قضايا. فالجغرافيا الفرنسية توافق البنية الاقليمية للتراب الوطني التي، وإن أخذت تتطور، ما تزال محتفظة بتقاليدها وخصوصيات أقاليمها؛ كما أنها تلائم المجتمعات التي تقوم على وحدة الأرض أكثر مما تقوم على وحدة العِرق، بحيث يتصل الانتماء الجماعي بالوطن أكثر من اتصاله بالرابطة البشرية.

أما الجغرافيا الألمانية، فهي، وإن كانت بدورها تساير التطور وتعتبر التمايز المكاني، تعكس الآية، إذ تقدم السُّلالة على التراب كما يدل على ذلك اعتناؤها بالمشهد الذي أصبح جوهرها وموضوع بحثها المفضل. وكذلك الشأن في معظم بلدان أوروبا الوسطى.

لا شك أن مدرسة مِيدَلْ وِسْت قد أحسنت صنعاً لما ابتكرته من الأدوات والوسائل ما يستجيب لظروف المجتمع الأمريكي الذي أصبح مربوطاً ربطاً وثيقاً بالأسواق والمبادلات. غير أن مسألة توزيع الموارد وما يترتب عنها من حركات، والتي جعلت منها هذه المدرسة موضوعها الرئيسي، غير كافية لدراسة ذلك المجتمع وتفسيره. وبعيداً عن هذه الاهتمامات انصرفت مدرسة بِرْكلي لدراسة المجتمعات الفطرية (البدائية) وهي تنظر إليها نظرة خارجية كما ينظر الباحث الطبيعي إلى الأجسام.

لا جدال في أن هذا الصرح الذي شيدته المدارس الجغرافية شامخ ومعلمة بارزة على درب الفكر الجغرافي. لكنه مع ذلك إنجاز معرض، عاجلًا أو آجلًا، للانهيار بفعل عوامل داخلية وخارجية. فأما العوامل الداخلية فهي تتلخص في حركة التنظير النشطة التي تنزع إلى توحيد المادة؛ وأما العوامل الخارجية فيه فتتمثل أساساً في تطور المجتمعات، وهو ما سيجعل من المفاهيم والأدوات المتداولة أشياء متجاوزة.

من الكبوة إلى الثورة : «الجغرافيا الجديدة»

3. من الكبوة إلى الثورة : « الجغرافيا الجديدة »

لا يخفى على أحد ما صار إليه أمر الدنيا بعد الحرب التي رجت الأرض رجّاً حتى انقلبت الموازين، كل الموازين، واختلت التوازنات : في السياسة والاقتصاد والاجتماع... الخ. وهكذا أصبحت العلوم الاجتماعية، بدون استثناء تواجه واقعاً جديداً ومعادلات أكثر تعقيداً، فراحت تراجع نفسها وترتب أوراقها. والجغرافيا لم تشذ عن القاعدة.

فخلال عقدين من الزمن، من الخمسينات إلى السبعينات، ستعيش الجغرافيا مخاضاً عسيراً، تتجرع مرارة المراجعة وتكابد ألم التمزيق. فمع نهاية الحرب خيم شعور عام بالقلق وعدم الرضى على وضع المادة سرعان ما استحال إلى أزمة حقيقية تمخضت عنها حركة نشيطة تدعو إلى الإصلاح وبناء جغرافيا جديدة[1].

1 «الجغرافيا الجديدة» تعبير جاء على لسان پيتَر چُولْد (Peter Gould) في مقال نشره سنة 1969 تحت عنوان : The new geography : where the action is.

1 ـ أعراض « الأزمة » وعلامات التغيير

1.1 ـ على أعتاب عالم جديد

1.1.1ـ المدارس الجغرافية كيانات آيلة إلى الانهيار

لقد قامت المدارس الوطنية اعتماداً على مفاهيم أساسية زاوجت بعضها ببعض بمقتضى ما يمليه عليها واقعها الخاص. فإذا كانت الجغرافيا الفرنسية تعير اهتماما لقضية الكثافات وتوزيعها وتعطي الأسبقية للريف وتوظف التاريخ باستمرار، فلأن البلاد لم تكتمل بعد مراحل التطور والتحديث بحيث ما تزال تحتفظ بتقاليد إقليمية راسخة. أما الجغرافيا

الألمانية فهي عموماً تعالج مجالات شبيهة لكنها تستبدل التفسير السلالي بالتفسير التاريخي. بينما في أمريكا انصب اهتمام مدرسة مِيدَل وِسْت على أوجه النشاط الاقتصادي وتخصصاته في ظروف لم تتعقد بعد؛ في الوقت الذي جعلت فيه مدرسة بِرْكْلي من تحليل المشهد الحضاري منهجاً فعالًا يعقد المقارنة بين المجتمعات الهندية المعاصرة والحضارات البائدة التي أصبحت الحفريات وعلم الآثار يعملان على بعثها.

فطالما ظلت الأوضاع على حالها كما كانت قبل الحرب، أي طالما لم يطرأ تغيير جذري في المجتمع والمكان، أمكن الاستمرار في تطبيق المناهج التقليدية للبحث. فإذا كان «البِرْكْليون» قد وجدوا في منهج سَاوِرْ ما يغنيهم عن الابتكار والتجديد فإن الفرنسيين، وخاصة منهم أولئك الذي أولوا اهتمامهم للمناطق المدارية، وجدوا أن المنهج الفدالي قادر على توجيه البحث رغم ما يميز هذه المجتمعات المدارية عن الأرياف الفرنسية. فالبحث ينطلق من خريطة الكثافة ثم يتدرج إلى تحليل أنماط العيش ليخلص إلى إبراز المشاهد المطابقة لها. وبذلك تنكشف أسرار التنظيم المكاني. وبالفعل هذا ما قام به بنجاح لا ينكر عدد من الدارسين لبلدان من مختلف القارات[2].

لكن الفقراء وعالمهم الثالث المتخلف الذي وجد فيه الغربيون موضوعاً جديداً وخصباً لن يغني الجغرافيا عن مواجهة الواقع الطارىء والتصدي لرياح التغيير التي أخذت تهز أركان المدارس الوطنية.

2.1.1 ـ مستجدات تحث على التطوير

تمثل المرحلة المتراوحة بين الحرب العالمية الأولى ومنتصف القرن في الغرب مرحلة تنمية بطيئة في الجملة، اللهم ما كان من فترة رخاء نسبي لم تتجاوز عقداً واحداً من الزمن في العشرينات. ويعني هذا أن المجتمعات والأمكنة لم تتعرض لتقلبات فجائية وتطورات عميقة. لذا بات الجغرافيون يمارسون عملهم على طريقتهم المألوفة المبنية على الوصف والتأويل.

لكن عندما يجنح المجتمع إلى التطور ويعمل على مواكبة العصر سيجد هؤلاء الجغرافيون أنفسهم عزَّلًا، لا حول ولا قوة لهم : فلا تحليل

2

من أبرز هؤلاء الباحثين الفرنسيين الذين عكفوا على دراسة مشاكل الأقاليم المدراية.

Robequain (Charles) **Le Than Hoa, Etude géographique d'une région annamite,** Paris, Publications de l'Ecole française d'Extême — Orient, 1929, 2 vol, 636 p.

Gourou (Pierre), **Les paysans du delta tonkinois, Etude de géographie humaine,** Paris, Editions d'Art et d'Histoire, 1936, 666 p; id **L'Afrique,** Paris, Hachette, 1970, id **Leçons de géographie tropicale** Paris, Mouton, 1971, 323 p.

Monbeig (Pierre), **Pionniers et planteurs de Sao Paolo,** Paris, A. Colin, 1952, 367 p.

Pélissier (Paul), **Les paysans du Sénégal, les civilisations agraires du Cayor à la Casamance,** Saint Yrieix, Fabregue, 1966, 939 p.

Sauter (Gilles), **De l'Atlantique au fleuve Congo. Une géographie du sous-penplement,** Paris, la Haye, Mouton, 1966, 2 vol, 1104 p.

Gallais (Jean), **Le delta intérieur du Niger, Etude de géographie régionale,** Dakar, ifan, 1967, 2 vol, 621 p.

أنماط العيش ولا وصف المشاهد الحضارية ولا استقراء خرائط استعمال الأرض بقيت أدوات فعالة. فهي أصبحت قاصرة لا تستطيع استجلاء حقيقة الأمور لأنها لا تلائم التنظيمات الحضرية والصناعية الحديثة التي انطلقت مباشرة بعد الحرب.

ومن أهم المستجدات التي ميزت هذه الطفرة الإنمائية في الغرب : الحاجة الماسة إلى التخطيط. فلا بد من توقع المستقبل والاحتساب له لتفادي المشاكل وتجنب المعوقات وكل ما من شأنه أن يخلخل التوازن؛ ناهيك عن التطورات الهائلة التي يعرفها قطاع التعمير والإسكان وتزايد دور النقل. هذا في الوقت الذي برزت فيه بحدة مشكلة عدم التوازن بين مختلف جهات البلاد : فمنها النشط الذي يستقطب الصناعة ويحقق الرفاهية الاجتماعية، ومنها ما فاته ركب التصنيع فبات إقليمياً متأخراً إن لم يكن فقيراً.

فما موقف الجغرافيين من كل هذا ؟ لعل الشباب منهم أقوى شعوراً وأكثر إحساساً. فهم على بنية تامة من أمرهم. لكنهم بقدر ما يرغبون في الادلاء بدلوهم ومد يد المساعدة لحل المشاكل المطروحة بقدر ما يشعرون بالعجز لقلة تأهيلهم وهشاشة علمهم. ولا شك أن هذا الشعور المَرير كان من بين الأسباب الكبرى التي دفعتهم إلى التفتح لتجديد الزاد، خاصة وأن ظروف مواتية.

3.1.1 ــ انفتاح الجغرافيا وتواصل الباحثين

لقد اقتنع الجغرافيون، أو جلهم، بضرورة الخروج من قوقعتهم وفكّ رباط عزلتهم من أجل حماية جمع صفوفهم والدفاع عن مادتهم فأخذوا ينتشرون وينتقلون أكثر من ذي قبل، خاصة وأن الطيران أخذ يسمح بذلك حيث أصبح من الممكن السفر إلى بلدان نائية قصد البحث أو الدراسة أو كلاهما معاً. وهكذا ذهب الناطقون بالفرنسية إلى ما تبقى من المستعمرات القديمة، بينما استقر عدد كبير من الباحثين البريطانيين ببعض المستعمرات أو راح يقضي بعض الوقت في الجامعات الأمريكية مدرسين أو طلبة.

وقد لا يخفى ما أصبح للغة الانجليزية من شأن كبير في ربط الاتصال بين الباحثين وترويج الأفكار عبر معظم أقطار المعمور. فلأول مرة يتوفر أكبر عدد من العلماء، من مختلف المشارب، يستعملون نفس اللغة. وهذا ما جعل الآراء والمعلومات والمناهج تتداول بكل سهولة. فهل تصمد التقاليد الوطنية بعد هذا ؟

وفي الوقت الذي أخذت تتعدد فيه الروابط بين المهتمين عبر قنوات تتنوع وتتعدد يوماً بعد يوم، خرجت الجغرافيا، وإن على استحياء، من برجها العاجي لتلتقي بغيرها من العلوم، خصوصاً منها الاجتماعية، التي سرعان ما افتتن ببغصها نفر من الجغرافيين المتعطشين إلى التجديد والاصلاح بسرعة.

2.1 ــ البعد الاجتماعي في الجغرافيا

1.2.1 ــ بين النزعة التاريخية والنهج الاقليمي

إذا كان الجغرافيون الفرنسيون والألمان في الثلاثينات يميلون شيئاً ما إلى تناول بعض القضايا الاجتماعية عن طريق اللمس التاريخي[3]، فهذا لن يظل حكراً عليهم وحدهم، بل أصبح أمراً شائعاً أيضاً بين الانجليز تأسياً بأعمال **كْلِفُرد دَارْبي***، الذي وضع منذ سنة 1936 كتاباً حول الجغرافيا التاريخية لأنجلترا ما قبل عام 1800[4]، أو بساوِرْ الذي عُني كثيراً بالمسألة[5]. والحقيقة أنه قد يصعب على الباحث الذي يعرض لتطور الأحداث أن يغفل البعد الاجتماعي لظاهرة التوزيع كما في موضوع الهياكل الزراعية مثلا التي غالباً ما يؤكد البحث على ثباتها وديمومتها. فإذا كان الأمر كذلك أفلا يرد ذلك إلى أوضاع المجتمع ؟

إن الظاهرة الاجتماعية لما كبر شأنها وعظم أمرها أصبحت مدعاة لكثير من الجغرافيين للعودة إلى التأمل في القضايا الجوهرية التي طرحها السابقون في بداية القرن. وهكذا عاد بعضهم في فرنسا إلى التحليل الاقليمي مثل **أَنْدرِي شُلّي***، الذي انكب أيضاً على مسألة تعدد المفاهيم الجغرافية المتداولة محاولًا تنظيمها واستجلاء مضامينها[6]. ونجد نفس الهاجس

3

بالنسبة للجغرافيا الفرنسية يمكن الإشارة في هذا الباب إلى ثلاث دراسات أساسية :

Bloch (Marc), **Les caractéres originaux de l'histoire rurale française,** Oslo Institut pour l'étude comparée des civilisations, 1931, 2eme édit. Paris, A. Colin.

Roupnel (Gaston), **Histoire de la campagne française,** Paris, Grasset, 1932.

Dion (Roger), **Essai sur la formation du paysage rural français,** Tours, Arrault, 1934.
2eme édit. Paris, A. Colin.

هذا ويجدر التذكير بأن فدال دُلبلاش اعتاد، في كل دراساته، وضع الاقليم في سياقه التاريخي.

* **Clifford Darby**

4

Darby (Clifford) **An historical geography of England before A.D. 1800,** Cambridge, Cambridge University Press, 1936.

5

Sauer (Carl), **Foreward to historical geography,** Annals, Association of American Geographers, vol, 31, 1941.

6

Cholley (André), **Guide de l'étudiant en géographie,** Paris, P.U.F. 1942.

* **André Cholley**

عند بعض الأمريكيين ومنهم **دِرْوِنْت وِتْلْسي***، الذي قام بدراسة تعرض فيها لمفهوم الإقليم[7]. وفي الواقع ليس اضطراب المفاهيم السبب الحقيقي في قصور الجغرافيين وعجزهم عن مسايرة المجتمع وانشغالاته، بل السبب الحقيقي يكمن في ضحالة الفكر وغياب تصور متكامل للجغرافيا.

1 . 2 . 2 ـ اجتهادات في التأصيل

شعوراً بهذا القصور نهضت جماعة من الدارسين يعيدون النظر في المادة بغية ضبطها وتدعيم أركانها. ولقد كان هَرتشورْن سباقاً إلى المبادرة حيث فتح باب الاجتهاد منذ سنة 1936 بكتاب طبقت شهرته الآفاق[8]. فهو يستحسن رأي هِتْنِر[9] ويؤكد بدوره على ضرورة التحليل الاقليمي لكن مع مرونة أكبر تبيح الدراسة المنسقة وتشجع على بناء جغرافيا بشرية عامة. ولقد هاجم هرتشورن المدارس التي تعطي الأسبقية للجانب البيئي، الذي يخلق في رأيه التناقضات ويترك الثغرات فتبقى الدراسة حبيسة موضوع العلاقات بين الإنسان وتلك البيئة. كما أنه بيَّن مواطن الضعف في الجغرافيا المشهدية التي قلّما تتجاوز مرحلة الوصف السطحي.

وفي فرنسا نجد **مُوريس لُولانو*** يعبر عن نفس الشعور إزاء الجغرافيا التي تفتقر في نظره إلى الدقة وتشكو من نقائص شتى. لذا نراه يتخلى نهائياً عن فكرة اعتبار الجغرافيا علماً من العلوم الطبيعية، لكن دون أن يجعل منها بالمقابل علماً اجتماعياً. فالجغرافيا عنده تأمل حول مصير الإنسان، أي فلسفة موضوعها الإنسان الذي يعمر هذا الكوكب. ولا شك أن هذا الموقف قريب من بعض الفلسفات الوجودية الرائجة آنذاك، غير أن لُولانو لا يرجع لا إلى **هَيْدِجَر** أو **مِرْلو پُنْتي*** أو غيرهما، بخلاف زميله **إريك دَرْدِل***[10]، الذي تأثر كثيراً بهذه الفلسفات[11]. ومهما يكن من أمر فإن هذه الاتجاهات لا تسير نحو فهم الحقائق ومواجهة متسجدات العصر وبناء علم متفتح على المستقبل. فالأمر يحتاج مزيداً من التعميق والتأمل.

ومن المجتهدين المرموقين الذين عملوا على تطوير الجغرافيا وجعلها علماً متماسكاً الفرنسي **مَاكْس صُور***.وقد يتلخص رأيه في استبدال رؤية تأليفية للمقومات الحيوية للجغرافيا البشرية بالتحليل البيئي التقليدي،

---

* Derwent Wittlesey

7
Wittlesey (Derwent), **The regional concept and the regional method,** in P.E. James, J.K. Wright (edit) American Geography, Inventory and prospect

8
The nature of Geograpy (سابق) الذي راجعه المؤلف في الخمسينات لكن دون مسّ اتجاهاته الأساسية.

9
لقد قضى هِتنر (1859 — 1941)، كما هو معلوم، سحابة حياته العلمية مهتماً بقضية المنهج ومتسائلاً عن غاية الجغرافيا ومصيرها. ونتذكر أيضا أن هتنر يعتبر الجغرافيا وصفا لاختلاف سطح الأرض. فهي في رأيه تاريخ طبيعي (أي دراسة ما يعمر الأرض من كائنات) أكثر مما هي علم عقلي. ويعني هذا أنها دراسة أحادية تبرز الخصوصيات المكانية أكثر مما هي معالجة تعميمية تهتم بالانتظام.

* Maurice Le Lannou

* Merleau Ponty
* Eric Dardel

10
Dardel (Eric), **L'homme et la terre. Nature de la réalité géographique,** Paris, P.U.F, 1952, 134 p.

11
Besse (Jean - Marc) **Lire dardel aujourd'hui,** l'Espace Géographique, n°1, 1988, pp 43-46.

* Max Sorre

وذلك بتنسيق منهجي لكل ما حصلت عليه الجغرافيا، خلال نصف قرن من الزمن، من نتائج في ميدان الدراسات البيئية. فهو إذن يعتبر الجغرافيا مادة تدرس دراسة تأليفية موضوع الإنسان والأرض لكن مع التأكيد على دور التقنيات فيه من جهة، ووضعه في سياقه التاريخي من جهة أخرى، دون إغفال بعض الجوانب الأخرى التي بدونها لا يكتمل فهم توزيع السكان كالنقل وأشكال المخالطة البشرية. ورغم هذه المحاولة الجادة لم يفلح ماكْس صُور في ضم جميع هذه العناصر وتنسيقها ليبني بها صرحا متكاملاً. فهذه الجغرافيا لم ترق إلى مستوى العلم الاجتماعي حتى لو أن صاحبها عمل جاهداً على تحسين الأدوات وضبط المفاهيم حيث نافش مثلا فكرة نمط العيش التي أظهر مزاياها وحدودها.

3.2.1 ـ محاولات التطوير

عرفت بداية الخمسينات من هذا القرن حركة دائبة بذلت فيها جهود ترمي كلها إلى تجديد الفكر الجغرافي. والشيء الذي يلفت النظر أن هذه المساعي كلها على وعي كبير بما يجري على ساحة المجتمع. فإذا كان الألمانيان **هانْس بوبِك*** و وُلفجَنْج هَارْتك يستقرئان المشاهد وتنظيم المكان فيميطان اللثام عن فعل المجتمع بمختلف فئاته وطبقاته، فإن **پيير جوزج*** الفرنسي يسير إلى أبعد من ذلك إذ جعل من تحليل الآليات الاجتماعية شرطاً أساسيا لفهم المدينة وعلاقتها بالأرياف، سواء تعلق الأمر بالبلدان الزراعية التقليدية أو الصناعية المتطورة. ويقوم هذا التحليل على تسخير المنهج الماركسي. وهو منهج ينبه بالفعل إلى عدد من الجوانب المهمولة أو المجهولة، إلا أنه بالمقابل لا يعطي للمسألة الاجتماعية بُعدها المكاني الحقيقي لأن المعالجة الماركسية آنذاك لم تقم وزناً يذكر لعامل المسافة وخصوصية المكان وذاتية إدراكه عند الفرد. فالجغرافي الماركسي يهتم أساساً بتدقيق نمط الإنتاج والتعريف بالطبقات المتصارعة وقياس قوى الإنتاج. وبهذا يتحقق هدف البحث وتكتسب الدراسة القدرة على التفسير الشافي. لكن هذه الجغرافيا البتراء لا تأتي في النهاية بجديد، فأقصى ما

* Hans Bobek

* Pierre George

تبلغه من العلم هو إثباتها لوقائع بادية، إذ من اليسير أن يتحدث أي امرىء عن الفوارق الاجتماعية والحيف والظلم. فهي حينما سلخت الظاهرة الاجتماعية عن المكان حكمت على نفسها بالعقم والفشل الذريع. فأنى لها إذن أن تعطي التفسير وترسم المستقبل !

وعلى كل حال فإن الجغرافيا ما بين الأربعينات والخمسينات ما تزال تبحث عن الطريق لإثبات هويتها. فهي وإن ركبت مطية المجتمع وعنيت بآلياته ودورها الفعال تظل رغم ذلك عاجزة كل العجز عن مراجعة مفاهيمها الأساسية وتقويمها. لذا فكل محاولات التجديد جاءت مخيبة للآمال. هذا في الوقت الذي أصبحت فيه الساحة الفكرية والعلمية تنشط من جديد. فهل تواكب الجغرافيا هذا الركب ؟

2 ـ الجغرافيا في محيطها العلمي الجديد

شهدت الساحة الفكرة الغربية في العقدين المواليين للحرب أحداث هامة وتطورات كبيرة تتلخص إجمالًا في أمرين : استكمال بناء فلسفة جديدة من جهة وإعطاء الأسبقية للتنمية الاقتصادية من جهة أخرى. ولقد طغت هذه الاهتمامات الفلسفية والاقتصادية، منفردة أو مجتمعة، على باقي العلوم الإنسانية. وفيما يخص الجغرافيا فهي تجنح نحو الاقتصاد ولا تولي اهتماماً يذكر بالقضايا الفلسفية.

1.2 ـ غياب عن النقاش الفلسفي

من الأسباب الرئيسية التي أبعدت الجغرافيين في هذه الحقبة عن المشاركة في المناظرة الفلسفية الدائرة آنذاك هو أن الفلاسفة عامة، وفلاسفة العلوم خاصة (الابستمولوجيون)، لا يعتبرون الجغرافيا ركيزة من ركائز العلوم الاجتماعية. وهذا ما حجبها عن الأنظار وجعلها مجهولة لدى أغلبية المثقفين. وإذا وجد جغرافي متبصر يعنيه أمر الفلسفة الجديدة وما تطرحه من أفكار فعليه بالصبر كي يتحمل مشقة تناول مؤلفات صعبة قد تبدو

له عديمة الصلة بعمله. فقليل هم أولئك الذين كلفوا أنفسهم هذه المشقة وإن كانوا في الحقيقة يقصدون إشباع رغبة شخصية أكثر بما يرمون إلى تجديد رصيدهم العلمي. صحيح أن زمرة من الجغرافيين الشباب، كغيرهم من المثقفين، تحمسوا لمشاهير فلاسفة عصرهم أمثال **هسّرْل** و **هيدجر** **وسارتر*** و **فوكو**، لكن لم تنعكس قراءاتهم على أبحاثهم العلمية. وحتى إذا ما حقق بعظهم ذلك مثل إريك دَرْديل، الذي أغراه مذهب الظاهريات[12]، فالأمر يبقى مجرد حالة شاذة لا وقع لها في الفكر الجغرافي.

كما أن التيار الفلسفي الذي ظهر في العشرينات والمعروف بدائرة فيينا وهو الاتجاه الفكري الذي جاء يعدل الموقف حيال العلوم، لم يفلح رغم انتشاره في جل أرجاء العالم الأنجلو سكسوني، خاصة بعد 1935، في اقتحام قلعة الجغرافيا التي ظلت موصدة في وجهه إلى غاية الستينات. وربما يكون الأمريكي **فِرِد شايْفَر*** الجغرافي الوحْيد الذي عمل على توظيف الفلسفة الجديدة كما هي عند كارْل پوپّرْ وفلاسفة دائرة فيينا[13]. ولولا المقال الذي كتبه هَرتشُون يحاج فيه شايْفَر ويناقشه لباتت هذه المحاولة مجهولة. ثم بعد عشر سنين يأتي **وِلْيَم بُنْجي*** ليؤكد أهمية الحدث[14] وإن كانت آثاره أصبحت سارية المفعول.

ومع ذلك فلا يمكن أن نتحدث عن حركة تجديد حقيقية. فكل ما في الأمر أن بعض الجغرافيين من أمريكا وبريطانيا أخذوا، عند منتصف الستينات، يستندون هم بدورهم إلى الوضعية المنطقية الشائعة* أي مذهب دائرة فيينا الذي يعرف أيضاً بالتجريبية المنطقية[15]. وهو مذهب يعنى بلغة العلوم التي اعتبرها مسألة جوهرية لأنها هي التي يعتمد عليها العقل في تنظيم الملاحظات التجريبية. ورغم ذلك ظن البعض أن الجغرافيا تعيش ثورة علمية حقيقية. وأول من حاول من الجغرافيين تطبيق هذا المنهج الذي أخذ الكثير ينسج على مواله لم يفعل ذلك إلا في سنة 1969، وهو **دَيفِدْ هارْفي*** حينما نشر كتاباً نظر فيه إلى الكيفية التي يستفيد بها الباحث في الجغرافيا من المكتسبات المنهجية للعلوم الأخرى[16]. وهذا الانفتاح الجزئي، وإن كان غير قادر على تجديد الفكر الجغرافي، قد ساهم على كل حال في تطوير العادات لا سيما بعد نشر **طُومَس كُونْ*** مؤلفه المشهور

12

مذهب الظاهريات أو علم الظواهر «هو الدراسة الوصفية لمجموع الظواهر كما هي عليه في الزمان والمكان، وهو مختلف عن دراسة أسباب هذه الظواهر وقوانينها المجردة الثابتة، أو عن البحث في الحقائق المتعالية المقابلة، أو عن النقد المعياري لمشروعيتها».

«أ ــ إذا أطلق علم الظواهر على الدراسة النفسية أو الأحوال الشعورية دل على وصف المعطيات النفسية كما تبدو لنا بالفعل. ويختلف هذا العلم عن علم النفس القديم لحرصه على التقيد بالواقع وبعده عن كل تصور سابق أو غرض فلسفي».

«ب ــ وإذا أطلق اصطلاح علم الظواهر على دراسة ظواهر الوجود عامة، كان الغرض منه تحديد بنية الظاهرة ومعرفة الشروط العامة لحدوثها. ولهذا العلم مرحلتان : الأولى دراسة الظاهرة الواقعية دراسة وصفية وتحليلية، والثاني تفسير تكوين الظاهرة وبيان ماهيتها.»

«ج ــ وعلم الظواهر المتعالي (Phénoménologie transcendate) عند هسّرل هو الطريقة التي توصل العقل بالتحليل المتعالي إلى محاذاة شطر الشعور المحض المستقل عن المعطيات التجريبية أو إلى محاذاة شطر (الأنا) في سبيل تجديد بناه الأساسية وتبيين الخصائص الذاتية لكل ما يمكننا معرفته».

*** Phénoménologie**

*** Jean-Peaul Sartre 1905-1980**

*** Michel Foucault 1926**

*** Fred Schaefer**

*** William Bunge**

*** Positivisme logique**

*** David Harvey**

*** Thomas Kuhn**

«بنائية الثورات العلمية»[17] سنـة 1962، الذي لم ينـقل إلى الفرنسية إلا بعد عشر سنوات من صدوره[18].

2.2 ـ الاقتصاد يلقح الجغرافيا.

1.2.2 ـ بوادر الاقتصـاد الجغرافـي

أظهر علماء الاقتصاد* كما هو معلوم، اهتمامهم بقضية توزيع الأنشطة منذ القرن الثامن عشر. لكن عدد هؤلاء المهتمين تقلص بشكل ملحوظ خلال القرن الموالي حتى انحصر في فئة قليلة من المتخصصين. ثم أصبح الموضوع يطرح من جديد في صدر القرن الحالي، خاصة بألمانيا والبلدان الاسكندنافية.

لكن الرؤية إلى الظواهر الاقتصادية ستظل رؤية جزئية تعنى بقطاع معين إذ المشكلة إذاك تتلخص في اختيار الموقع الأمثل للصناعة أو تعيين المكان المناسب للتجارة أو تحديد النظام الملائم للضيعة[19]. غير أن الأبحاث سرعان ما أخذت تتطور في الثلاثينات. وهكذا انكب بعض الباحثين على دراسة أنشطة القطاع الثالث التي كانت مهملة. وبالفعل استطاع الجغرافي الألماني **فَلْتِر كرِسْتَلِر*** والاقتصادي **أُجُسْت لوش*** لفت الأنظار، ولو بعد حين، إلى أحد الجوانب الأساسية للاقتصاد الجغرافي، حيث ظهر جلياً ما لقطاع الخِدْمات من دور فعال في هيكلة المجال الجغرافي. وهكذا يكتشف الاقتصاديون أهمية البعد المكاني وبالتالي البعد الإقليمي للحركة الاقتصادية. وهو أمر لم يعهد إلا في جماعة قليلة من الاختصاصيين الألمان.

لكن علم الاقتصاد سيشهد خلال الحرب العالمية الثانية، وهو يسير على منهج **كَيْنز***، تطورات هائلة من جملتها تحسين وسائل المحاسبة الوطنية التي تعاين الانتاج والدخل والتوزيع، وهي نفس التقنيات التي صارت تطبق في الخمسينات على وحدات ترابية أدنى كالأقاليم والمدن. وهذا ما جعل الاقتصاد يدرك أكثر ما للبعد الجغرافي من أهمية في مسألة التوزيع. ثم إن بعض علماء الإحصاء سبق أن تنبهوا مبكراً إلى ظاهرة الجذب الجغرافي كما

«د ـ ويطلق علم ظواهر الفكر (Phénoménologie de l'esprit) عند هيجَل على تحليل المراحل التي يمر بها الشعور في انتقاله من المعرفة الحسية إلى معرفة الذات حتى يبلغ درجة العلم المطلق».

«هـ ـ وعلم الظواهر الوجودي (Phénoménologie existentielle) هو العلم المشتمل على وصف ما يحيط بالمرء من شروط واقعية تحدد موقفه، وهو مقابل لعلم الظواهر المتعالي.» جميل صليبا، **المعجم الفلسفي**، سابق، الجزء الثاني، ص 35.

13

Schaefer (Fred K.) **Exceptionalism in geography. methodological examination.** Annals, Association of American Geographers, vol 43, 1953; William Bunge, **Fred K. Schaefer and the science of geography,** Annals Association of American Geographers, Vol 45, 1955.

* **Walter Christaller**
* **August Lösch**
* **John Maynard Keynes 1883-1946**

14

Bunge (William), **Theoretical geography,** Lund, C.W.K, Glerrup, 1962, XOII, 210 p.

15

«الوضعية المنطقية اتجاه فلسفي معاصر يقوم على أساس التجربة ويعدها المصدر الوحيد للمعرفة، وليس للعقل من عمل إلا مجرد تنسيق معطياتها وتنظيمها (نظرية إمكان التحقيق)، ثم تحولت إلى دراسة تحليلية للغة العلم لتحقيق وحدة مشتركة بين فروع العلم المختلفة». أحمد زكي بدوي، **معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية**، سابق، ص 322.

في الهجرات مثلا، فربطوها بقوانين شبيهة بقانـون الجاذبيـة[20]. فهناك من انـطلق من هذا الحدس محاولًا تحديد نطاق النفوذ التجاري للمدينة كما فعل **وِلْيَمْ رِيْلِي** سنـة 1929. كما أن تـوزيع المدن وترتيبها أصبح أحد المباحث الهامة خصوصاً بعد وضع قانون التراتب حسب الحجـم المعروف بقانون **زِيف*** سنـة 1949.

غير أن هذه المجهودات ستـظل مبعثرة إلى غاية الثلاثينات حيث قام لُـوشْ بجـمعها وتلخيصـها ودمجها في النـظرية الاقتصادية العامة[21]. وقد تجـدر الإشارة إلى العمـل الذي قام به الأمريكي **إِدْجَرْ هُـوفَـرْ***. وهو عمل وإن كان متواضعاً نسبيـاً فهو خليـق بأن يلفت إليه أنظار الجغرافييـن، لا سيما وأنه يعرض لمشاكل النقل والكلفـة المترتبة عنه، وذلك ببساطة ووضـوح. هذا في الوقت الذي يتناول فيه عالم الاقتصادي الفرنسي **كـلُودْ بُنْـصار*** الموضوع تناولًا نـظرياً أكثر منه معالجة تطبيقية، ساعياً بذلك إلى الخروج بنـظرية عامة حول المواقع وهيكلة المجال الاقتصادي[22].

2.2.2 ـ « علـم الأقاليـم » يَـحْـفِز البحث الجغرافي

إذا كان لهؤلاء الباحثيـن البارزيـن فضل لا ينـكر، ليس على علم الاقتصاد فحسب، بل كذلك على الجغرافيا، فكلاهما ربما يدين بأكثر من ذلك لعالم الاقتصاد الأمريكي **فَلْتَر إِزَرْد***، الذي استـفاد من أعمال لـوش وأخذ عن هُـوفَـر منهجـه في تحليل موضوع كلفـة النقل ثم أغنى ذلك كله بأفكار جديدة حول الاقتصاد الكلي والمحاسبة الاقليمية ومسألة المضاعف الاقتصادي[23] من جهة، وطعمه بالنماذج الانجذابية من جهة أخرى، وهكذا نشأ علم «جديد» اصطلح عليه إِزَرْد بـ «علم الأقاليـم»*، الذي يجمع بين التنـظير وإمكانية التطبيق عن طريق تهيئـة التراب وإعداده.

وفي سنة 1956 أسس إِزَرْد جميعة للتعريف بالاتجاه الجديد ونشر المعلومات المحصل عليها. وهكذا انضم إلى الجمعية كل من له صلة بالمكان الجغرافي وقضاياه، اقتصادياً كان أو معمارياً أو مخططـاً أو جغرافياً، وإن كانت الجمعية في البدايـة لا تولي الجغرافيا الاقتصادية ما تستـحق من

---

* William Reilly
* Zipf
* Edgar Hoover

16

Harvey (David), **Explanation in geography**, Arnold, London, 1969.

17

يتمتع طومَسْ كُون (المزداد سنة 1922) بتكوين علمي فذ يجمع بين تاريخ العلوم وفلسفتها. وذلك ما أهله لمناظرة الفلاسفة والهجوم على آرائهم ونظرياتهم حول العلوم. فهو يعارض معارضة شرسة أنصار التجريبية المنطقية الذين طغت أفكارهم على الأوساط الجامعية الأمريكية ولا يعير اهتمامه إلا لـكَارْل پُـوپِر الذي يقبل في الجملة تصوره لقضية تطور العلم (وهو تعبير أصـح في نـظر كُون من تقدم العلم). وهو تصـور لا يتحقق في رأي كُون إلا في فترات وجيزة في تاريخ النشاط العلمي. ويعتبر كُون هذه الفترات الفريدة «فترات تأزم» و«توتر» نزاعة إلى «الثورة العلمية» ويقابل هذه الحركة «الشاذة» المسار العلمي «العادي». وهكذا مقابل الواحدية المعيارية (monisme normatif) عند پُوپِر يقترح كُون ثنائية «العلم العادي» التي

* Claude Ponsard
* Walter Isard
* The Regional Science

يؤسسها على مفاهيم «الشكل التحليلي» (أو النظرية النموذجية ـــ paradigme ـــ أي الرسم الذي يوضح باختصار شديد المفاهيم الأساسية في موضوع ما، مما يساعد على تقريبها للذهن) والحركة العلمية الفريدة والطفرة التي تواكبها.

إن الحركة العادية للعلم تتم بواسطة شكل تحليلي يتفق عليه في زمان معين

العناية. وهذا بالذات ما جعل الجغرافيين ينشطون أكثر داخل الجمعية ويجتهدون. فكانت ثمرة جهدهم تأسيس الجغرافيا الاقتصادية الرياضية التي صارت إحدى مباحث الجغرافيا النظرية. ولقد كان لهذا اللقاء بين الاقتصاد والجغرافيا وما رافقه من تلاقح الأفكار كما يقول جَرِّسَنْ[24] انعكاسات طيبة جددت الأفكار وطورت وسائل البحث كما تدل ذلك بالفعل الأطروحات التي نشرها فرع الجغرافيا بجامعة شيكاچو ابتداءاً من سنة 1948.

3.2 ـ تجديد العلوم الاجتماعية ونزعة نحو التنظير

1.3.2 ـ ظروف الحرب تطور العلوم الاجتماعية

باستثناء الاقتصاد، عاشت العلوم الاجتماعية، إلى أن اندلعت الحرب، في قطيعة تكاد تكون تامة مع العلوم التجريبية كالإحصاء والرياضيات والفزياء والهندسة. ولا شك أن لهذه القطيعة أسباب شتى. غير أن صعوبة التنظير المنهجي في العلوم الاجتماعية تبدو أهم هذه الأسباب. لكن الوضع سيتغير مع الحرب التي استوجبت تسخير كل الطاقات وحشد جميع الامكانات المادية منها والمعنوية. وعليه أصبح العسكريون يستعينون بذوي الخبرة في ميادين الاقتصاد والإحصاء والرياضيات وغيرها لحل بعض المشكلات المعينة.

وبطبيعة الحال فإن عمل هؤلاء العلماء «الميدانيين» يختلف كل الاختلاف عن عمل زملائهم «الأكاديميين». فإذا كان هؤلاء لا يهتمون أساسا بتفسير الواقع ورسم صورته المثلى، فإن الآخرين منوطون بمهمة محددة تتلخص في المشاركة في تخطيط العمليات العسكرية والاعداد لها بدقة وعناية وتحديد كيفية استخدام الجند واستعمال العتاد المتوفر لتحقيق أهداف معينة. وهكذا استطاع المهندسون مثلا تطبيق بعض الأساليب الخاصة بالميدان التقني في المجال البشري كحساب الاحتمالات في تنظيم عمليات إنزال الجيوش. ولما انتهت الحرب استمر هذا التواصل بين العلوم التجريبية والعلوم الاجتماعية ليتعزز بفضل التقدم الباهر الذي أخذ يتحقق في ميدان المعلوميات إذ جاء الحاسوب يزود البحث الاجتماعي بطاقة جبارة

ومكان معين أعضاء محفل علمي معين فتكون تلك النظرية المهيمنة نموذجاً وبناءاً فكريا متماسكاً يجعلون منه أداة فاعلة في مواجهة القضايا والمشاكل التي تعرض لهم في الواقع. غير أن النظرية النموذجية المعمول بها معرضة باستمرار إلى التصادم مع حالات غير مرتقبة تستدعي الملاءمة والتطويع حتى يتقلص «الشذوذ» ويذوب بالتدريج في النظرية النموذجية. لكن قد يتصلب ذلك الشذوذ ويستعصي فيهدد النظرية النموذجية القائمة بالانهيار. وهنا تحدث «أزمة» تترتب عليها «حركة علمية غير عادية» تقوم ببناء شكل تحليلي بديل. وبالطبع فإن من شأن هذه الثورة العلمية أن تغير من نظرة الناس إلى العالم.

*** Torsten Hägerstrand**

18

Kuhn (Thomas), **La structure des révolutions scientifiques,** Paris, Flammarion, 1972, 246 p.

19

كما يدل على ذلك أبحاث **فُنْ تُونَنْ** **(Von Thünen)** حول توزيع المزروعات (1826) واهتمامات **مَاكْس فِيبَرْ** بمواقع الصناعة (1909). ومن المعلوم أن لكل واحد منهما نظرية في الموضوع لن نحتاج لبسطهما في هذا المقام لكثرة شيوعهما وطرحهما في المؤلفات المتداولة بين الباحثين والطلاب.

20

Ravenstein (E. G), **The laws of migration,** Journal of the Royal statiscal Society, vol 48, 1885; vol 52, 1889.

21

Lösch (August), **The economies of location,** New Haven (Con,) Yale University Press, 1954.

لا عهد له بها ويمد الدارسين بنموذج منطقي ميسر.

ثم إن الأبحاث التي أجريت في الميدان العسكري أثبتت قدرتها على حل كثير من المشاكل التنظيمية كتسيير الموانىء والمطارات وخزن السلع والمؤن والتنبؤ بالحاجيات والمطلبات المقبلة، وذلك بتطبيق نظرية المحاكاة التي تكشف عن منطق اتخاذ القرار وان خفيت نوايا أصحاب القرار. وبجانب هذا فتح علم التنظيم الذاتي أو السبيرناطيقا*[25] آفاق أخرى في ميدان البحث. فعلاوة على التساؤلات الأولى التي أثارها حول النظم[26] وإمكانية الافادة منها بالنسبة لكل العلوم، ظهر على التنظيم الآلي كوسيلة فعالة في تدقيق الظاهرة الاجتماعية وضبطها.

ولعل هذه الاتجاهات الجديدة في ميدان البحث الاجتماعي تفيد الجغرافيين وتساعدهم على حل ما تراكم أمامهم من قضايا كقضية المواقع وتنظيم النقل أو تفاعل الأنشطة داخل بيئتها مثلا.

2.3.2 ـ الآمال العريضة

إن الأثر الحاسم لهذه الظروف لا ينحصر في تلك الانعكاسات التي سبقت الاشارة إليها بل يكمن بالدرجة الأولى في ترسيخ الاعتقاد بقدرة العلم الذي أسس بنيانه على نموذج الفيزياء. أفلا يمكن إذن، والحالة هذه، نسج ثوب للعلوم الاجتماعية على نفس المنوال فنعمم نفس المنهج ونطبق نفس الأساليب في البحث.؟ لا سيما وأن هناك من الوسائل ما يسمح بذلك فالحاسوب يقوم بعمليات الفرز أحسن قيام، في حين تسمح الرياضيات والاحصاء العصري بصياغة الفرضيات وتدقيقها وفق النسق الفرضي الاستدلالي[27]، الذي أتى أكله في العلوم التجريبية.

فأين نحن من المنظور التقليدي للظواهر الاجتماعية وخصوصياتها التي لا تقبل التبسيط والاختزال، خاصة عند الجغرافيين ؟!

3.3.2 ـ البلدان الأنجلوسكسونية تتزعم القافلة

قد يجدر بنا أن نؤكد أن محاولات التطوير والتجديد التي ستشهدها الساحة الجغرافية بعد الحرب قد انطلقت من العالم الأنجلوسكسوني. ولا

22

Ponsard (Claude), **Economie et espace**, Paris, SEDES, 1955.

23

نظرية المضاعف نظرية اقتصادية مفادها باختصار شديد أن كل زيادة في حجم الاستثمارات المنتجة تترتب عنها زيادة للطلب تفوق كلفة الاستثمار.

24

Garrison (W.L), **Spatial structure of the Economy**, Annals, Association of American Geographers, 1959-1960.

25

علم التنظيم الذاتي Cybernétique هو «العلم الذي يدرس عمليات التحكم والتوجيه والحركة في الكائنات الحية والآلات على السواء. وبهذا العلم استطاع الإنسان أن يربط بين النظم الحية والنظم التكنولوجية وأن ينتج آلات تقوم ببعض العمليات الذهنية والعقلية التي كان ينفرد بها الإنسان دون غيره من الكائنات الحية».

«وعلى العموم فالسبيرناطيقا تقوم باستخلاص وتحديد وتصنيف وتعديل وإقرار قوانين الحركة التي تحكم نشاط الآلات والكائنات الحية، كوسيلة لاكتشاف وتصميم آلات تنهض بعمليات التوجيه الآلي، وتملك القيام بوظائف في بيئات وأوقات مختلفة تحول حدود وكفاءات الإنسان البيولوجية دون القيام بها.» أحمد زكي بدوي، **معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية**، سابق، ص 94.

26

عرَّف برْتَلَنْفلَاي Ludwig Von Bertalanfly، وهو أول من صاغ نظرية الأنظمة العامة سنة 1950، النظام بقوله : «هو مركب من تفاعل عناصر «ب 1» و «ب 2» و «ب 3». والتفاعل يعني أن هذه العناصر تشترك في علاقات معينة (ر). وبهذا فإن سلوك العناصر في (ر)

غرابة في ذلك إذ في هذه البلدان بالذات أنجزت تلك الأبحاث خدمة للحرب. وهي أبحاث غيرت تغييراً جذرياً الرؤية إلى العلوم الاجتماعية وأعطت لقضية المنهج اهتماما خاصا، وإن كان شيئا ما على حساب الظاهرة الاجتماعية نفسها. وقد يرد هذا الأمر على ما يبدو لسببين رئيسيين : الأول يتمثل في سير المجتمع الأمريكي في اتجاه معاكس للنموذج التقليدي تحت تأثير أفكار **فرويْد** التي انتشرت انتشاراً وتغلغلت في أعماق المجتمع برمته، أما الثاني فهو التفاؤل المفرط الذي خيم على العلماء الذين راح جلهم يؤمن إيماناً قوياً بقدرة التكنولوجيا على مد المجتمع بكل ما يحتاجه وحل مشاكل كل شرائحه دونما اضطراب أو عنف. ويرى بعض الدارسين في هذا التصور تطبيقا صريحاً للمذهب السلوكي*[28]. وهو تصور ذو شقين : أحدهما منهجي والآخر نظري. وبهذا يحدث الانفصال بين الفكر الاجتماعي الأنجلوسكسوني والأوضاع الأوروبية ذات النزعة التقليدية. فلابد إذاً من استحضار هذه الحيثيات إن نحن أردنا فهم حركة التجديد.

3 ـ ملامح الجغرافيا الجديدة

1.3 ـ التباشير

كان فِردْ تشايْفَر أول من أقدم في بداية الخمسينات على نقد الجغرافيا التقليدية نقداً منهجياً من خلال كتاب خلف صدى عميقاً، خاصة في نفوس الباحثين الشباب[29]. ثم إن السويد التي لم تكتوِ بنار الحرب عرفت تطوراً ملحوظاً في ميدان العلوم الاجتماعية كما هو الشأن بالنسبة للاقتصاد الجغرافي الذي أصبح بين الحربين مادة يهيمن عليها السويديون والألمان. ولقد دأب الباحثون في هذا الميدان على تدقيق المراجع والمعلومات والاعتناء بتحليل الظواهر من حيث سياقاتها وآلياتها.

وفي خضم هذه الاهتمامات التي تشكل مدرسة حقيقية، يبرز عَلم من أعلامها الكبار وهو السويدي **هاجَرسترانْد***، الذي أخذ منذ الأربعينات يهتم بقضية هامة تتلخص في علاقة الريف بالمبتكرات التقنية وكيفية انتشارها. ولدراسة هذه الظاهرة الجغرافية جمع هاجرسترند

مخالف عن سلوكها في حالات أخرى (ر 1) مثلا»

Bertlanfly (L. Von), **The theory of open system in Physical and Biology,** Science III, 1950.

عن محمد علي الفرا، **مناهج البحث في الجغرافيا بالوسائل الكمية**، الوكيت، وكالة المطبوعات، 1983، ص 290.

27

المنهج الفرضي الاستدلالي ويسمى أيضا في العلوم التجريبية الشرطي الاستدلالي هو المنهج الذي يطرح في البداية قضية أو جملة من القضايا على اعتبارها فرضيات تترتب عنها بالضرورة سلسلة من الاستنتاجات العقلية. ويعد هذا الاستنتاج في العلوم التجريبية، الذي يربط الاستدلال بالتجربة، وسيلة لتحقيق الفرضيات.

أما عند الجغرافيين المحدثين فالمنهج الفرضي الاستدلالي «تحليل ينطلق من نماذج مبنية على فرضيات».

A. Bailly et al, **Les concepts de la géographie humaine,** Paris, Masson, 1984 p.20.

28

المذهب السلوكي أو السلوكية **Behaviorisme ou Behaviourisme** «إسم مشتق من السلوك ويطلق على النظرية التي وضعها **واطسن** الأمريكي **John B. 1878—1958 Watson** عام 1912 إثر اطلاعه على تجارب **بختروف** و **بافلوف** في دراسة الأفعال المنعكسة الشرطية. وهي تفسر سلوك الإنسان والحيوان بإرجاعه إلى ردود فعل ناشئة عن تأثير الأسباب الخارجية.»

*** Torsten Hagerstrand**

«والواقع أن السلوكية طريقة علمية ومذهب فلسفي معاً. فهي أولًا طريقة

معلومات دقيقة حول عدد من المؤشرات كالسيارة وحقن الأبقار بالسِّلين والمزروعات العلفية. ثم انطلق يحدد رقعة انتشارها في القسم الداخلي من منطقة سْكانِيا أي أقصى الجنوب من البلاد وأغناها زراعياً. ويؤول هاچرسترنَد هذه الخرائط على أساس تسلسل فرضي من حلقتين تقابل كل واحدة منهما مرحلة معينة. فالمرحلة الأولى مرحلة توزيع عشوائي للفلاحين الذين يجلبون الابتكارات الحديثة، ويرى هاچرسترند أن هؤلاء الفلاّحة غالبا ما يكونون على علاقة مع أصحاب الحضر أو بالأوساط المثقفة. أما المرحلة الثانية فهي مرحلة الانتشار ودبيب الأفكار عن طريق المشاهدة والتشبه. ولقد تمكن هاچرسترند، بواسطة وسائل المحاكاة، أن يضع خرائط نظرية جاءت مطابقة للخرائط الأصلية ومصدقة بالتالي الفرض. ولقد كان لهذه الأعمال وقع كبير على الجغرافيا الجديدة. حتى لو لم يحدث ذلك إلا في بداية الستينات وفي مكان غير مرتقب.

2.3 ـ اعتناء بالمنهج واستعارة للنماذج الاقتصادية.

إذا كانت اهتمامات بعض الجغرافيين الأفذاذ قد أرصهت، قبل الحرب، بحدوث شيء ما في الجغرافيا، وإذا أخذ البعض الآخر يلح على مراجعتها وإصلاحها، فإن حركة التجديد لن تنطلق إلا في الخمسينات بالولايات المتحدة وبجامعة سياطل بالتحديد، وذلك بفضل أحد أقطاب الجغرافيا الأمريكية المعاصرة **إدْورْد أُلمان***. وأُلمان هذا من طينة أولئك الباحثين الموهوبين ذوي الفكر المتوقد والنظر البعيد. ألم يحاول كما حكى هو نفسه وضع نظرية للمكان المركزي قبل أن يطلعه لُوشْ، الذي قدم إلى الولايات المتحدة، على عمله الشخصي ويخبره بأمر كريستَلِر من قبله ؟ ألم يقدم في الأربعينات بمعيه زميله **شاوْنسي هارِس*** تأويلا جديداً حول تنظيم المدينة ؟ (نموذج المراكز المتعددة). ثم ألم يهتم كذلك بوضع نظرية المدينة ؟

ونتيجة لكل هذه التأملات نجده في السنوات الأولى من الخمسينات ينبه إلى إغفال الدور الذي تلعبه العلاقات بين الناس في اختيار المواقع. صحيح أن المدرسة الفرنسية تثير هذا الموضوع، لكن ذلك

علمية لأنها تنسج على منوال العلوم الطبيعية في تطبيق المنهج التجريبي، وتقصر موضوع علم النفس على دراسة السلوك دراسة موضوعية، باعتباره استجابة فسيولوجية لمنبهات خارجة أو نتيجة تأثير متبادل بين الكائن الحيّ وبيئته.

وهي ثانيا مذهب فلسفي ينكر قيمة الاستبطان والشعور، ويرد العمليات الذهنية إلى حركات جسمانية ويقول بالحتمية والتطور، ويرجع السلوك إلى مجرد التكيف الآلي، ويجعل الظواهر النفسية ظواهر ثانونية ناشئة عن أسباب مادية.» جميل صليبا، **المعجم الفلسفي**، سابق، الجزء الأول، ص 671.

29

Schaefer (Fred K.), **Exceptionalism in geography,** op, cit.

* **Edward Louis Ullman 1912-1976**

* **Chauncy. D. Harris**

لا يعدو مجرد إيحاءات يطغى عليها الاهتمام بمسألة العلاقات مع البيئة. لذا فإن أُلْمان يؤكد على قضية المواصلات ويوجه إليها الاهتمام لكي تصبح مبحثاً رئيسيا وموضوعاً بارزاً في العمل الجغرافي. وتطبيقا لهذا قام أُلمان بدراسة تدفقات السلع، بالولايات المتحدة فاستخلص منها فكرتي التخصص والتكامل.

وكان أُلْمان في هذه الحقبة بالذات يتعامل مع كوكبة لامعة من الجغرافيين الشباب الذين استطاع قسم الجغرافيا بسياطل التابع لجامعة ولاية واشنطن استقدامهم[30]. ولا مراء في أن أُلْمان هو صاحب الفكرة التي تقول بتجديد الجغرافيا بجعلها علماً يدرس مظاهر التباعد ودور المسافة. وهذا بالفعل ما عكف على تحقيقه أولئك الباحثون الشبان حيث راحوا يوظفون الاقتصاديات الجغرافية ويطبقونها على الأقاليم، معتمدين في ذلك على فرضيات الاقتصاديين ومنهجهم.

وهكذا خلال بضع سنين فقط، ما بين 1955 و 1960، رسمت معالم «الجغرافيا الجديدة».

ويعتبر كلَفالْ[31] أن التجديد تم بالرجوع إلى الأصل أي إلى تعميق إرهاصات فدال دُلبلاش، إلا أنه لم يكن تجديداً كاملًا متكاملًا بسبب قصر الاهتمام على عنصر واحد وهو عنصر المسافة. وإذا كان هناك تجديد حقيقي فهو الذي يتجلى في استخدام الأساليب النظرية التي طالما نبذها الجغرافيون، وإن كانت جماعة سياطل لم تجتهد ولم تبتكر في هذا الميدان لأنها وجدت في اقتراحات الاقتصاديين ما يلبي رغبتها ويكفي حاجتها. فهي في رأيهم تقدر على التفسير وتقبل التطبيق. ولا شك أن في هذا شيء من التجوز بل العسف الصريح لأن علم الأقاليم الذي تقتدي به الجغرافيا الجديدة، وإن كان يعطي الصدارة لقضايا النقل، لا يكاد يعبأ بمسألة المواصلات رغم أن السبرنطيقا وأهمية المفعول الرجعي في أمور الحياة الاجتماعية كانا جديرين بلفت الأنظار إلى ذلك.

وخلاصة القول فإن التحولات التي تمت بسياطل بزعامة أُلْمان هي في الحقيقة محاولة أخرى لرفع الجغرافيا إلى مراتب العلم وذلك عن طريق الحسم في قضية المنهج الذي يوفر الوسائل اللازمة فيسمح من جهة

---

30 من أشهر هؤلاء :
وِلْيَم جَرِسُن **William Garrison**
و رِتْشَرد مُرِّل **Richard Morrill**
و فرِدْنِسْتُيَنْ **Fred Nystuen**
و برَايَنْ بِرّي **Brian Berry**
البريطاني الأصل.

31 Claval (Paul), **Geographie humaine et économique contemporaine,** op. cit, p 99.

باستغلال الرصيد الهائل المتوفر من المعلومات، ومن جهة أخرى باختبار الفروض على غرار العلوم التجريبية. وبناءاً عليه فإن الجغرافيا الجديدة أصبحت تعنى بالتفسير المنطقي أكثر مما تعنى بالاسترداد التاريخي الذي طغى على عمل الباحثين حتى الآن، أي أنها تطمح في تقديم تصور نظري للظواهر الجغرافية وللمبادىء التي تساعد على استجلاء بنيتها وفهم حركتها واستنباط منطقها الذاتي. وتحقيقا لهذه الغاية استبدلت الجغرافيا الجديدة المنهج الفرضي الاستدلالي بالمنهج الاستقرائي[32]، الذي قاد الجغرافيا التقليدية. ويعنى هذا أن عمل الجغرافي أصبح عملًا مزدوجاً يشتمل على طرح نظري محض يتبعه اختبار وتجربة بواسطة النماذج[33] المتنوعة تأسيا بالعلوم الطبيعية التي وجدت في هذه النماذج وسيلة ناجعة للإلمام بالظواهر البيئية المتعددة واختزالها.

3.3 ـ بين التكميم والتنظير : الجغرافيا «التعميمية»

إن جماعة سياطل التي تكونت في ظروف خاصة[34] لم تعمر طويلا إذ سرعان ما تفككت فتفرق أعضاؤها في نهاية الخمسينات. فمنهم من التحق بجامعة شيكاجو كبرايَن بِرّي ومنهم من ذهب إلى نُورْث وِسْتَرن. وما هي إلا أعوام قليلة حتى أخذت أفكارهم تنتشر لتغزو جل جامعات مِيدَل وِسْت التي سارعت إلى الترحيب بها نظراً للمناخ العلمي السائد بها والذي تميز كما هو معلوم منذ العشرينات باعتنائه بالقضايا المنهجية من جهة، وباهتمامه بالأسس والمقومات للمادة من جهة أخرى في أعقاب ما جاء به هَرْتشورن من أفكار بين مؤيد ومعارض.

وبسرعة أصبحت الوسائل الكمية تدرس في كثير من الجامعات مثل آيوا و مِشِجان وأُهايو. أما في جامعات الواجهة الشرقية ـ باستثناء جامعة ينسِلفانيا ـ التي لم تكن تتوفر إلا على عدد قليل من فروع الجغرافيا، فهذه الوسائل الجديدة لم تلق نفس الترحاب ونفس التحمس. وهكذا طلعت على الساحة الجغرافية وجوه وشخصيات جديدة منها على سبيل المثال **ماكْ كارْثي***، الذي ساهم بنشاط في توجيه عدد من المنجزات الاقتصادية بولاية آيو، و **مَايْكَل دَاسِي***، الذي عمل على ربط

32
الاستقراء طريقة يمكن الوصول بها إلى أحكام عامة بواسطة الملاحظة والمشاهدة الحسية، والاستقراء عماد العلوم الطبيعية في وضع نواميسها، وهدفه تكوين حكم عام مبني على حقائق جزئية.

33
النموذج هو : « 1 ــ الشكل الذي يحمل أخص الصفات التي يتميز بها معظم أفراد فئة ما، وتعتبر «عينة» مختارة من هذه الفئة وهو بمثابة مثال لها في مجموعها. 2 ــ نمط من العلاقات المتصورة التي يشاهدها الإنسان في ملاحظته للعالم كأنماط السلوك الاجتماعي أو أنماط البناء الاجتماعي ».

«وقد حاول العلم تنظيم الحقائق الخاصة بالمجتمع باستخدام النموذج التطوري والنموذج السببي والنموذج الرياضي. وقد تكون النماذج بسيطة للغاية أو معقدة جداً حيث أن العالم الذي نلاحظه لا يمكن أن نلاحظه بكليته، ولذلك فإن كل نموذج يعكس جانبا محدوداً من العالم بأجمعه. كما أنه لا يوجد نموذج يبين الحقيقة كاملة بل يقتصر على إظهار جانب منها. وتنحصر قيمة النموذج في منفعته في الدراسة وفي وضع النظريات والتفسيرات والتنبؤات وفي التقدم العلمي بوجه عام.» أحمد زكي بدوي، **معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية**، سابق، ص 272.

34
يذكر پول كلفال عن فرِيزَرْ هارْت Frazer Hart ان تشكيل هذه الجماعة يرجع فضله إلى هودْسَنْ G.D Hudson رئيس قسم الجغرافيا بجامعة سياطل، الذي استطاع بواسطة المنح المغرية والتشجيعات المادية استقدام أولئك الجغرافيين الشباب من داخل الولايات المتحدة وخارجها.

* **Mac Carthy**
* **Michael Dacy**

البحث الجغرافي بالاحصائيات الرياضية و **فالْدو طُبْلِر***، الذي اهتم بتطوير وضع الخرائط بواسطة الوسائل الكمية الجديدة.

وظهر بجانب هؤلاء الرواد، الذي نشطوا في الخمسينات، جيل آخر من الجغرافيين تألق فيه اسمان بارزان : **پيتَرْ جولْد*** و **وِلْيَم بُنْجي**. والحقيقة أن أغلبية هؤلاء الباحثين يكتفون بتوظيف النظريات المكانية التي يضعها علماء «الاقتصاديات الاقليمية» (علم الأقاليم). لذا فإن عملهم عمل منهجي أكثر مما هو عمل تنظيري. صحيح أن بُنْجي نشر سنة 1962 كتابا تحت عنوان «الجغرافيا النظرية»[35]، وهو الكتاب الذي لاقى الترحيب والاستحسان، لكن هذا المؤلف، رغم عنوانه الجذاب ورغم النظرية التي جاء يعرضها، لم يهتم بما فيه الكفاية بتحليل السياقات الاجتماعية والاقتصادية في بعدها الجغرافي، بل قدم تفكيراً منهجياً حول الخصائص الهندسية للأنظمة الطبيعية والاجتماعية أكثر مما حلل طرق وأساليب استغلالها. وبعبارة مختصرة فإن بُنْجي اعتنى بالمظهر أكثر مما اهتم بالمخبر.

وهذه الأبحاث التي ينجز جلها في سياق النزعة الاقليمية السائدة أفادت بالدرجة الأولى الدراسات الحضرية التي ظلت موضوعاً غير متماسك لم يحظ بعد بالعناية الكافية. فالباحث فيه لا يتوفر على تصور شمولي ومبادىء واضحة. وانطلاقا من نظريات قديمة كنظرية المكان ونظرية الأساس الاقتصادي للمدينة ونظرية المضاعف الحضري[36] تجددت دراسة الشبكات الحضرية. وبجانب هذا قام برايَنْ بِرّي بتحليل بنية الحواضر الكبرى ملتقيا بذلك بالاهتمامات البيئية الاجتماعية التي شغلت پارْك وبرْجَس من قبل في العشرينات. وبفضل وسائل التحليل العاملي[37] استطاع بِرّي ومساعدوه من الحصول في ظرف وجيز على نتائج هامة سمحت بطرح جديد لمسألة مواقع الأنشطة، وخاصة منها المُكاسرة (التجارة بالتقسيط) وتوزيع الفئات الاجتماعية داخل المدينة.

ولما انعقد المؤتمر الجغرافي الدولي سنة 1960 بستكهولم نظمت ندوة خاصة بالجغرافيا الحضرية بمدينة لُنْد حضرها جل الباحثين الأمريكيين المهتمين بالتمدين، الساهرين على أمر تجديد المناهج وتطوير

---

* **Waldo Tobler**

* **Peter Gould**

35 Bunge (William), **Theoretical geography**, op. cit.

36 نظريتا الأساس والمضاعف نظريتان اقتصاديتان تطبقان على المدينة وتعرضها بتفصيل أدبيات الاقتصاد وبعض المؤلفات الجغرافية. راجع العرض الوجيز الذي يقدمه **أنطوان بَيّي Antoine S. Bailly** في كتابه :

L'organisation urbaine, théories et modèles, Centre de Recherche d'Urbanisme, Paris, 1975, p. 73-78.

37 التحليل العاملي تقنية إحصائية تهدف إلى اختزال كمية من البيانات بعد إقصاء المعلومات المتكررة والابقاء على المتغيرات الدالة.

الأفكار. ولقد كان هذا اللقاء فرصة سانحة جمعتهم بزملائهم البريطانيين والسويديين، كما اطلع الجميع عن كثب على أعمال هچر سترند حول مفهوم الانتشار واستعمال وسائل المحاكاة في البحث.

ولقد وجدت هذه الأفكار الجديدة صدى عميقا في بريطانيا خصوصا عند الشبان الذين أخذوا يهتمون بالسبرنطيقا والمحاكاة والرياضيات. ولقد برز من بينهم بوجه خاص : **پيتَر هاچِتْ*** و **مايْكَل شِيشُلْم***و **رِتْشَرد شورْلي**، الذين قادوا «التيار النظري الرياضي» وطعموه بمؤلفات حاسمة [38].

إن رياح التجديد التي اجتاحت العالم الانجلسكسوني فأثارت الزوابع ونفضت الغبار عن الجغرافيا التقليدية هبت نسيما على البلدان الأخرى التي لن تتأثر بلقاحها إلا بالتدريج. وكان البولونيون أول من تفتح في أوروبا الشرقية على هذه المستجدات وظلوا على ذلك إلى غاية السبعينات تقريبا، وإن كانت اهتماتهم تعنى أساسا بالمدن وقضايا العمران. أما في باقي الغرب فإن الوضع يختلف من مكان إلى آخر علماً بأن الصبغة الوطنية والمنهج الاقليمي وتحليل المشهد كلها تصورات تتعارض تعارضاً تاماً مع النظرة الجديدة للبحث الجغرافي. لكن بعض الباحثين من الشباب أخذوا في الستينات يتفتحون على التيار الجديد. وهكذا وضع **دِيَترش بَرْطَلْس*** الجغرافيا التقليدية في الميزان ثم انصرف إلى الاهتمام بمقومات الجغرافيا العصرية وأسسها، فكانت له اجتهادات منهجية لا تنكر. أما زميله **جِرْهَرْد هارْد*** فهو يستعين باللسانيات من أجل تعميق مدلول مفهوم «اللاندسكيب».

أما في فرنسا فإن حركة التجديد تمت على مرحلتين. ففي أوائل الستينات صار عدد من الباحثين كذلك ينهل من معين النظريات الاقتصادية، إلا أن مرجع الجغرافيين الفرنسيين لم يكن لُوشْ أو إِزَرد وإنما أعمال كلُود پُنْصار [39] أو الأبحاث الخاصة بالنماذج الحضرية المبنية على مفهومي الأساس الاقتصادي والشبكة الحضرية (التنظيم الهرمي للمدن) [40]. كما أن هناك من حاول الاستفادة من أبحاث اقتصاديين فرنسيين آخرين اهتموا بتفاوت التنمية وأقطابها الجهوية وقضية الوفورات [41].

38

من أهم المؤلفات التي وضعت في هذه الحقبة وما تزال توجه تفكير عدد من الجغرافيين عبر العالم :

Chisholm (Michal), **Rural scettlement and land use,** London, Hutchinson University. Library, 1962.

Chorley (Richard), **Geomorphology and general system theory,** U.S Geological Survey, Professional Paper, 500, B, 1962.

Haggett (Peter) **Locational analysis in human geography,** London, Edward Arnold, 1965.

Chorley (Richard), Peter Haggett (edit) **Frontiers in geographical teaching,** London, Methuen, 1965.

Chorley (Richard) Peter Haggett (edit.) **Models in geography,** London, Methuen, 1967.

* **Peter Haggett**

* **Michael Chisholm**

* **Richard Chorley**

* **Dietrich Bartcls**

* **Gerhard Hard**

39

Ponsard (Clande) **Economie et espace,** Paris, S.E.D.E.S, 1963

40

من الأعمال التي تعكس هذا الاهتمام مثلا كتاب :

Pinchemel (Philippe), **Le fait urbaine un France,** Paris, A. Colin, 1963.

41

من أبرز الباحثين الاقتصاديين الذين

أما الوسائل الكمية فإن استعمالها لن يشيع إلا بعد سنة 1968 في أعقاب الاصلاحات الجامعية التي ترتبت عن انفجار الأزمة الاجتماعية الحادة التي هزت البلاد في هذه السنة. لكن هذا الاتجاه سيبقى رغم ذلك نظريا أكثر منه كمياً بالمعنى الحقيقي بالمقارنة مع البلدان الأنجلو سكسونية. هذا وتجدر الإشارة إلى أن «العدوى» جاءت وتوطنت هنا عن طريق كِبيك التي عمل بها جماعة من الأساتذة الفرنسيين ما بين سنتي 1960 و 1970.

إن النجاح البين الذي حققته حركة التجديد في نهاية الستينات حمَّس أنصار الاصلاح وشجعهم على نشر أفكارهم وشرح آرائهم عبر إصدارات متخصصة. وهكذا طلعت الجغرافيا على الناس عامة، والمحافل العلمية خاصة بوجه جديد كل الجدة. وبهذا الصدد يعد المقال الذي كتبه پيتر ﭽولد[42] مقالًا حاسماً جاء ليعرف بالجغرافيا في جميع الدوائر الثقافية والعلمية بالولايات المتحدة.

ولا شك أن هذه التحولات بحجمها وسرعتها تبعث على الدهشة والاستغراب، لذلك ساد الشعور آنذاك باندلاع ثورة علمية حقيقية تخطو بثبات خطواتها الأخيرة نحو النصر والتفوق. والجيل الذي يصنع هذه الثورة هو الآن في طور النضج ويتأهب في مطلع السبيعنات إلى إقامة صرح جغرافي جديد والدخول – بعد حالة تأزم كما يقول طُماس كُون – في مرحلة التطور «العادي» على هدي نظرية نموذجية جديدة. وفي هذا السياق بالذات تندرج مساهمة دَيفَد هارفْي الذي استند إلى الإبستمولوجيا الوضعية الجديدة، فراح يبرر الوجهة الجديدة ويدافع عنها حتى بدت الجغرافيا الجديدة مكسباً لا رجعة فيه.

لكن الرياح تجري بما لا تشتهي السفن، فمعظم الجغرافيين ما يزالون يباشرون العمل كالمعتاد. زد على هذا أن أغلبهم ليسوا على استعداد فكري لمراجعة تصوراتهم وطرق عملهم، وهي لا شك مراجعة لا يقوى عليها إلا أولو العزم. كما أن البعض لم يطق اطلاقا هؤلاء «المجددين» المتشدقين الفرحين بما لديهم والراضين على أنفسهم ! وكيفما كان الحال فلا أحد يستطيع نكران الأيادي البيضاء التي أسدتها الجغرافيا الجديدة ولو اقتصر الأمر فقط على تنشيط المناظرة وإذكاء الحوار بين الجغرافيين، إذ

أغنوا العمل الجغرافي في فرنسا خلال الستينات.

Boudeville (Jacques), **Problems of regional economic planning,** Edinburgh University Press, 1966; id **Aménagement du territoire et planification,** Paris, M. Th. Génin et Litec, 1972.

Perroux (François) **La notion de pôle de croissance, Economie appliqué,** vol. 8, 1955.

42

Gould (Peter), **The new geography : Where the action is,** Harper's Magazine, 1968.

أقدم البعض على النظر مجدداً في المادة، محاولًا التوفيق بين الحاضر والماضي؛ هذا في الوقت الذي ظهرت فيه عدة تيارات موازية.

4.3 ـ الجغرافيا بين المذهب السلوكي والتوجه الاجتماعي

لما جعلت الجغرافيا من الوضعية الجديدة مرجعها الفلسفي ومن الاقتصادي معينها النظري انصهر فكرها في قالب ضيق جداً ليس بوسعه أن يستوعب كل القضايا الجغرافية التي أصبحت المسألة الاقتصادية تشكل محور رحاها. ولا شك أن هذا الاختزال لقضية غاية في التشعب وتبسيطها وعرضها بواسطة التكميم – كما حدث في كل العلوم الاجتماعية بدون استثناء – هو الذي يفسر بالدرجة الأولى تفوق الجغرافيا الجديدة وإقبال المهتمين عليها. ومع ذلك ورغم التحصن بالمنهج العلمي فإن الجغرافيا الجديدة معرضة للهجوم والطعن.

1.4.3 ـ النزعة السلوكية

إذا كان السواد الأعظم من الباحثين الأمريكيين يأخذ بالنماذج الاقتصادية المهيمنة، على عواهنها، ليطبقها بحذافرها دونما تمحيص وتقليب فإن البعض الآخر التزم الحذر والحيطة لاعتبارهم تلك الفروض فروضاً لا تطابق الواقع إذ تتنافى مع حركة المجتمع. فهل يعقل مثلا أن نفترض أن الناس يقررون في مختلف شؤونهم وهم على بينة تامة من كل الامكانات المتاحة ؟ وهل صحيح أنهم يسعون كلهم دائما إلى تحقيق الربح الأقصى ؟ وهل صحيح أيضاً أن الزبناء يحتاطون دوماً للتقليل من التنقل لتقليص كلفته والحصول مقابل ذلك على قدر أكبر من السلع والخدمات ؟ أفلا يجمل بنا، على حد قول المعارضين، قبل الأخذ بهذه الفروض الضمنية التي يتركز عليها الاقتصاد الجغرافي، أن نهتم أولًا وقبل كل شيء بسلوك الناس والاطلاع على أفعالهم عن كثب ؟

ومن المعلوم أن هذه الانتقادات التي أصبحت توجه إلى النماذج الاقتصادية التقليدية تنساق في تيار السلوكية التي تقوت في الخمسينات. ولم يجد الجغرافيون الأوائل الذين ساروا في هذا الركب أدنى مشقة لإثبات

نسبية «عقلنة» القرارات التي يتخذها الناس[43]. وهكذا فتح المجال لتساؤلات أخرى مفادها أن القرارات تؤخذ على أساس تصور الواقع أكثر منها على الواقع نفسه[44]. ويعني هذا أن على العلوم الاجتماعية ألّا تغفل مسألة الادراك، بل عليها أن تجعل منها إحدى اهتماماتها الكبرى. ولتحقيق هذه الغاية صار الباحثون يسترشدون علم النفس مطبقين منهجه، مستعرين نماذجه.

ولا شك أن اجتهادات پيتر چولد، الذي ابتكر طريقة بسيطة لوضع الخرائط الذهنية عرفت نجاحاً كبيراً، عملت على تقوية التيار السلوكي ضمن البحوث الجغرافية[45]، خاصة وأن الدراسات السلوكية قد أبانت على قدرتها في إلقاء ضوء جديد على موضوع توزيع الخدمات. لكن معظم الجغرافيين الذين انساقوا وراء المذهب السلوكي لم يدققوا النظر فيه حتى يعلموا أنه لا يكترث كثيراً لقضية التنظيم الاجتماعي، بل ساد الاعتقاد لديهم أن السلوكية لا تعدو مجرد تعديل طفيف للنماذج الاجتماعية المعمول بها، بينما هي في الحقيقة فلسفة ذات تصور اجتماعي معين.

وبجانب هؤلاء الجغرافيين السلوكيين الذين جعلوا من الادراك الحسّي قضيتهم الكبرى، هناك جماعة أخرى سارت على نفس المنهج، وإن اختلفت الغاية. فهؤلاء استهوتهم تحليلات **كِفِن لِنْش*** [46] إذ رأوا فيها وسيلة مفيدة لدراسة الحيز الحضري؛ بينما انصرف فريق ثالث، ومن نفس المنطلق، يبحث عن أسباب إخفاق سياسات الوقاية من الكوارث الطبيعية التي يكمن في رأيهم في التمادي في الثقة بالنفس لدى المسؤولين.

43

Wolpert (Julian), **The decision process in spatial context,** Annals, Association of American Geographers. vol 54, 1964, p. 537-558.

44

Boulding (Kenneth), **The image, knowledge and life in society,** Ann Arbor, University of Michigan Press, 1955.

45

Gould (Peter), Rodney White, **Mental maps.** Harmonds worth, Penguin Books, 1974.

46

Lynch (Kevin), **Limage de la cité,** Paris, Dunod, 1971.

* **Kevin Lynch**

2.4.3 ـ علامات المنحى الاجتماعي

أما في بلدان أوروبا الغربية فالموقف يختلف تماماً، فالباحثون هنا، بخلاف زملائهم الأمريكيين، لا يعيبون على الاقتصاد ونماذجه إغفال الجوانب النفسية، بل يرمونه بعدم الاهتمام الكافي ببعض الآليات الفعالة المنظمة للمجتمع. أما المال، وإن كان أحد لا ينكر أهميته، فهو لا يمثل أكثر من عنصر من جملة عناصر أخرى يقوم عليها بناء المجتمع وتلاحمه

كدور الحظوة والنفوذ داخل المجتمع وأشكال التنظيم التي توجه الحركة البشرية.

سواء أقررنا بحدوث ثورة أو لم نقرر فإن الستينات ستظل تمثل بالنسبة للجغرافيا منعطفاً خطيراً رافقته تطورات هامة. فالجغرافيا الجديدة التي أخذت تتشكل على النموذج الذي اعتبره المذهب الوضعي الجديد نموذجاً عاما ليست علماً اجتماعياً بالمعنى الصحيح. فهي لا تعير الظواهر الاجتماعية ما تستحقه من اهتمام وعناية، وإن أولت بعض الانتباه إلى مسألة الادراك الحسّي التي لم تتناولها بعمق ومع ذلك فإن الجغرافيا لم تبرح حظيرة العلوم الإنسانية والاجتماعية، بل تلتقي ببعضها أحيانا كعلم النفس والاقتصاد نظراً للتكامل الحاصل بينها في طرق البحث. إلا أن هذا الانتماء يبقى انتماءاً «فطرياً» يغيب فيه الشعور بالموضوع وتنعدم فيه الأهداف.

فلا غرابة إذن إذا كان هذا البنيان هشّاً، معرضاً للانهيار، رغم أنف من أقاموه.

فها هي ذي السبعينات حبلى بالأحداث !

المخاض العسير

4. المخاض العسير

بعد التقلبات الهامة وحركة التجديد الناشطة التي عرفتها الجغرافيا خلال الخمسينات والستينات ظهرت المادة في ثوب قشيب خلع عليها مسحة من القوة والتماسك. فمعظم الباحثين في الستينات يباركون الثورة ويعملون على إنجاحها بقناعة تامة وعزم لا يلين. كما أن النتائج المحصل عليها لا تخلو من إغراء وربما من أهمية يشدان الاهتمام بعد فترة هجران. ثم إن الدقة العلمية التي أصبحت تطبع البحث الجغرافي أخذت تجلب إلى المادة احترام التخصصات الأخرى واعترافها بها.

لكن هذه المكتسبات سرعان ما ضاعت وتبخرت كحلم جميل بسبب تفرق المجددين أنفسهم وانقسامهم. ففي الوقت الذي اعتقد فيه الجميع أن هؤلاء أصبحوا حقا أمة واحدة موحدة تتشوف إلى غد مشرق بفضل منهجها العلمي الرصين وتصورها الجغرافي الواضح، جاء الواقع يخيب الآمال ويرد الاحتمال. فالمصلحون ليسوا سوى أهل بيت فتفرقوا شَذَر مَذَر، فتعالت أصواتهم متضاربة وعمَّ الاضطراب وزاد التردد واستقر الشك إلى درجة تلاحق «الثورات» بإيقاع لم يعد فيه للنظرية المعيارية معنى !

فما هي أسباب هذه النكسة الخاطفة والكبوة المباغثة ؟ لعل الأسباب تكمن إجمالا في تغير الأوضاع التي يمكن تلخيصها في أمرين اثنين : أما الأول فيرجع إلى التطور العميق الذي عرفه المجتمع الغربي الذي بات يكل من «حضارة الأشياء» ويلفظها شيئا فشيئاً بحيث أصبح الرأي العام وكل وسائل الاعلام تشجبها وتدعو إلى التنصل من إيديولوجية التقدم والتنمية التي كانت شعار العقدين الأخيرين. وفي هذا السياق، وهذا

هو الأمر الثاني، كان حتماً أن تتغير تماما النظرة إلى العلوم الاجتماعية التي عملت الفلسفة على تطويرها. فلا مناص إذاً من الأخذ بعين الاعتبار كل هذه الحيثيات لكي نفهم كيف تسلل الشك وانتشر التردد في مادة تبدو محكمة البنيان، متينة الأركان.

1 ـ مدنيـة الغرب والحقائق المرة

بمجرد أن وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها شرعت أوروبا في تضميد جراحها وإعادة بناء كيانها. وإلى غاية الستينات كان هناك إجماع لدى الرأي العام على اعتبار التنمية الاقتصادية أهم قضية على الاطلاق. وبالفعل عرفت هذه البلدان طفرة اقتصادية جبارة لو لم تتم للأسف على حساب البيئة الطبيعية من جهة والتوازن الاجتماعي من جهة ثانية. وإذا كان الشعور بضرورة المحافظة على الطبيعة والاعتناء بها شعوراً قائما في مستهل القرن وحتى في فترة ما بين الحربين، فهو سرعان ما أخذ يتراجع بعد الحرب أمام فكرة «التقدم والبناء والتشييد». فكل شيء يهون في سبيلها. فالمنشآت العصرية بسدودها الضخمة وأبراجها الشاهقة وطرقها الساخبة رسمت للإنسان الغربي محيطاً جديداً قوامه الحديد والخرسانة وباتت في أعين الساسة والعامة منجزات جميلة ومعابد تمجد آلهة التنمية التي نسيت أو تناست أمر الانسان، فاحتدمت الفوارق الاجتماعية وضاعت حقوق الضعفاء.

1.1 ـ مشكل البيئة الطبيعية

إن الفساد الذي حدث بفعل التقدم المزعوم والذي عمّ كل مناحي الحياة وأثر بشكل فاضح في المحيط الطبيعي للإنسان، أعقبته ردود فعل سارت تطالب بتدارك الوضع ومراجعة الموقف. ولقد كانت للولايات المتحدة وبلدان أوروبا الشمالية قصب السبق في هذه المبادرة التي وجدت هنا الآذان الصاغية والاستجابة التلقائية[1]. ولعلنا نتذكر أن الاهتمام بالبيئة في الولايات المتحدة اهتمام قديم يرجع إلى القرن الماضي وذلك بفضل حركة

1 ربما تعود هذه الاستجابة السريعة إلى التقاليد البرتِستّانية عند اللوثيريِّين فإذا كان الكاثوليك يشددون على علاقة الإنسان بالإنسان، دون أن يجعلوا من علاقته بالبيئة أمراً واجباً، فإن البروتِستّنت ينظرون إلى الطبيعة نظرة إجلال واحترام، بحيث لا يجوز الإخلال بها والتعدي عليها لأنها من خلق الربّ. ولا بأس بهذه المناسبة أن نذكر أن الإسلام يجمع بين الموقفين معاً ضمن منهج متكامل قوامه وحدانية الخالق.

التوعيـة النشيطة التي قادها جماعة من المهتميـن بشؤون الغابة مثل **جِفُرْد پِنْشت*** والتي تلاحقت على فترات كانت أولاها تلك التي دشنها الرئيس **ثِيُدورْ رُوزْفِلْت*** سنة 1901 واستمرت إلى غاية الحرب العالمية الأولى، وإن كان الاهتمام بالبيئة قد تراجع لفائدة الانسان الأمريكي الذي أصبح عرضة لأخـطار الادمان على الخمر من جهة و «تكاثر الأجناس السافلة» من جهة أخرى ! لكن الانفراج الاقتصادي الذي عرفته البلاد في العشرينات أرقد هذه المخاوف فترة وجيزة لتنهض من جديد على مشاكل أخرى كمعضلة انجراف التربة الذي اتخذ حجم كارثة حقيقية، إذ من المعلوم أن التعرية أصابت في ولايلتي أُكْـلَهُما وتِكْساس وحديهما ما لا يقل عن 50.000 كلم² لم يمر على استغلالها سوى أربعين سنة فقـط ![2] كما أن الأبحاث أظهرت خطورة الوضع بالمناطق الجنوبية التي تتعرض باستمرار إلى التخديد وإفقار التربـة. وهكذا اضطرت السلطات الفدرالية إلى اتخاذ التدابير اللازمة وطرح مشروع تهيئة حوض نهر تِـنِسي* على عهد الرئيس **فرانكْلِن رُوزفلت***. لكن الحرب العالمية الثانية، ثم الرخاء الذي عم البلاد في الخمسينات وجها الاهتمام إلى قضايا أخرى مع متابعة المشاريع القديمة. وهكذا تأسست جمعيات صرفت مجهوداتها على المحافظة على الأنواع المهددة بالانقراض[3]. كما سخـر بعض الأدباء والكتاب أقلامـهم للتعريف بالمشكلـة والدفـاع عـن الطبيـعة[4]. ومما لا شك فيه أن هذه المساهمات جميعاً عملت على توعية الجمهور بأهمية القضية وحقيقة الخطر المحدق بأكثر المناطق الزراعية غنىً وأكثرها تعرضاً للتدهور والخراب، هذا في الوقت الذي غدت فيه أشباح الـذرة المرعبة تلـوح في أفـق حالك. فاستدراكاً للوضع ودرءاً للأخطار ظهرت في الستينات بالولايات المتحدة أول جماعات لحماية البيئة، ثم تلتها بعد بضع سنيـن بلدان أوروبا الغربية.

* **Gifford Pinchot**

* **Thedore Roosevelt**

* **Tenessee Authority Valley**

* **Franklin D. Roosevelt**

2 المقصود بهذا تلك الظاهرة المعروفة بالعجاجة أو «حوض التـــراب» (Dust bowl).

3 من جملة هذه المبادرات يمكن ذكر حماية أشجـار «السِّيكـويا» العملاقة بمنطقة كَلِفُرنيا والمواقع الجبلية مثل «سِيرًا كلوب» (Sierra Club).

4 ونذكر منهم على سبيل المثال

Leopold (Aldo), **A sand country almanac,** New york, Oxford University Paris, 1949.

Carson (Rachel), **Printemps silencieux, Paris, Plon, 1963.**

2.1 ـ مسـألـة العدالـة الاجتماعيـة

إذا كانت الثورة الصناعية الجديدة التي حققها الغرب بعد الحرب قد أصبحت تكلفه من جراء العبث بالطبيعة حتى عمَّ الفساد البر والبحر ثمنا باهضاً وتعرضه لمخاطر لا قبل لبنـي الانسان بها، فإن النماء الاقتصادي

الذي واكبها أخذ هو الآخر ينقلب من نعمة عابرة إلى نقمة ناغضة على إثر تحريك غير مضبوط للمجتمع، إذ تزعزت أركانه وتفككت عناصره حتى تباعدت شرائحه وتكرست طبقاته. وهكذا، وفي الوقت الذي تعالت فيه أصوات أنصار الطبيعة، انطلقت صيحات الراديكاليين من كل جهة تندد بالعاهات الاجتماعية وتستنكر الفوارق الطبقية وتطالب بتطبيق العدالة الاجتماعية كما فعل **مَايْكل هارِّنْتَن***، الذي استطاع أن يهزّ الضمير الأمريكي حينما كشف عن الوجه القبيح لأمريكا ومدى مشكلة الفقر في أغنى بلدان العالم على الإطلاق ![5] فكيف يستسيغ المرء الفقر المدقع والحرمان التام اللذان يحاصران الملايين من الناس في أقوى دولة في الدنيا وأكثرها تقدما ؟[6]

ولا شك أن المسألة الاجتماعية، التي لا تزيد مع الأيام إلا تعقيداً، هي التي حولت الرأي العام في السبعينات عما كان عليه في العقدين السالفين، الأمر الذي جعل الباحثين من الجغرافيين يتساءلون عن دورهم في هذه المعمعة وما عساهم أن يقدموه. فهل من الصواب أن يقضي الانسان سحابة عمره ويصرف جل جهده في فحص النظريات وتقليب المقولات بينما تستصرخ الدنيا ويستنجد الانسان ؟

إن مشكلة البيئة وما يترتب عنها من أخطار حقيقية ومسألة المجتمع وما يتولد عنها من متاعب متزايدة قضيتان قمينتان بقلب المفاهيم ومراجعة المواقف وتجديد الرؤى؛ غير أن هناك مسألتان أخريان ستهزان، بدرجات متفاوتة، المجتمع الغربي وتجعلانه يعمق تساؤلاته حول نفسه وحول العالم.

3.1 ـ أزمة الطاقة والخوف من المستقبل

إن ما أسماه الغرب في أعقاب حرب أكتوبر 1973 بين المسلمين وأعدائهم على أرض المشرق العربي بأزمة الطاقة كان حدثا ذا بال أجج ولا شك من حدة الشعور بوطأة المسألتين السالفتي الذكر إلى حدّ أمست فيه بعض الأوساط تتساءل عن سلامة الاختيارات وتتحدث بصوت عالٍ عن مزالق التنمية الطائشية التي قد تلقي بالجميع إلى التهلكة، أغنياء وفقراء على حد سواء !

---

* **Michael Harrington**

5 Harrington (Michael), **The other America. poverty in the United States,** New York, Macmillan, 1962, traduction française, **l'Autre Amérique : La pauvreté aux Etats-Unis,** Paris, Gallimand, 1967.

6 بالنسبة لأوروبا أنظر مثلا :
Mathieu (Gilbert), **la disparité croissante des revenus en France,** Le Monde, 12-13 dec. 1965. p. 11.

ثم أن أزمة الطاقة هذه كشفت للغرب ضعفه وأثبتت له مدى ارتباطه بالعالم الخارجي. وهكذا بات الغرب يتشكك في قيمه السائدة، تلك القيم التي تم حولها الإجماع والتي على أساسها بني المجتمع؛ حتى أن هناك من المفكرين من أصبح ينادي بالعدول عنها والتخلص منها لفائدة مجتمع يتلاءم وطبيعة الانسان[7]. ومعنى هذا أن هناك إدانة شاملةً ورفضاً باتّاً لهذه المدنية الآلية التي جاءت تشوه كل شيء من عمران وتصنيع... الخ.

وفي غمرة هذه الصحوة أخذ الغربيون يعضون على أصابعهم ويندمون على تصرفاتهم الحمقاء التي اقترفوها باسم التطوير كتلك التي تمت مثلا في المدن العتيقة التي تعرضت إلى تحطيم شنيع لإقامة مشاريع فاشلة. وعليه لم يعد الرأي يتباهى بالمنجزات العصرية ويفاخر. كما أن المسؤولين على التعمير ساروا يتراجعون بسرعة عن تحطيم الأحياء القديمة التي أصبحت محط عناية بالغة واهتمام متزايد بغية ردّ الاعتبار إليها بالترميم والتجميل واسترجاع الفئات الموسرة التي كانت قد هجرتها من قبل.

4.1 ـ احتدام التباين العالمي

إن التفوق الاقتصادي الهائل الذي أحرزه الغرب والرفاهية المادية التي واكبته ثمار حلوة لكفاح مرير وجهد جهيد من أجل تحصيل العلم وتنظيم الانتاج. ومع ذلك فهل ننسى أن تلك الغِلال جاء كثير منها عن طريق الاستغلال ؟ ألم تتعال منذ الستينات أصوات منصفة وأقلام نزيهة وتستيقظ ضمائر حية تفضح الاستعمار الجديد الذي خطط لـ «نهب العالم الثالث»[8] والسطور على خيراته واسترقاق أهله ؟

وبفضل هذه الحملة التي قادها رجالات الفكر والسياسة في كل أنحاء العالم أصبحت مسألة التفاوت بين الأمم والشعوب هاجسا آخر لدى الرأي العام الدولي[9]. لكن القضية اتخذت بعداً أوسع لما انطلقت بعض الدوائر المختصة تحذر من الخطر الداهم الذي يتهدد البشرية بسبب التنمية المفرطة وغير المتبصرة كما يقول تقرير ميداوْز المعروف[10] والذي هو عبارة عن دراسة، كان لها وقع كبير على الرأي العام الدولي في السبعينات، تنطوي

7

Schumacher (E.F.), **Small is beautiful, une société à la mesure de l'homme,** Paris, Le Seuil, 1978.

8

«نهب العالم الثالث» تعبير لأحد أولئك المفكرين. وهو عنوان لكتاب مشهور صدر في منتصف الستينات :

Jalée (Pierre), **Le pillage du Tiers Monde,** Paris, Maspero, 1965.

9

يشكل موضوع التفاوت بين شعوب العالم أحد المواضيع البارزة المطروقة في السبعينات. ونظراً للعدد الكبير في الدراسات في مختلف التخصصات فقد تتعذر الإشارة إليها، لذلك نحيل القارىء إلى كتاب إيف لكوسْت الذي يذكر أهمها

Lacoste (Yves), **Géographie du sous-développement,** Paris, P.U.F, 3e édit., 1976.

10

Meadows (Donella H.) et al, **Halte à la croissance,** Paris, Fayard, 1973.

على رؤية متشائمة جداً بالنظر إلى محدودية موارد الأرض التي تسير إلى النفـاد، الأمر الذي قد يؤدي إلى ما لا تحمد عقباه بالنسبـة لكل سكان المعمورة.

2 ـ طـروحات جديدة في فلسفة العلوم

بعد النجـاح الباهر الذي حصلت عليه المناهج المستوحاة من الأبحاث التطبيقية والوسائل الكمية التي لم يعد أحد يماري في شأنها، راح عدد متزايد من العاملين في حقل العلوم الاجتماعية يسعى إلى تطبيق نفس المنهج المطبق في العلـوم «التجريبيـة» كالفزياء والطبيعيات. وهذا الطموح العِلـموي، أو بالأحرى الحلـم العِلمـوي، الذي طالما راود الجغرافييـن، هو الذي سيلـقي ببعض هؤلاء في أحضـان الوضعية الجديدة التي رفع لواءها ونادى إلى اعتناقها **دَيْـفـد هَـارْفي**[11].

1.2 ـ «مـدرسـة فرانكفورت» والانتقـادات الأولـى

لكن إذا كانت الجغرافيا قد أخذت تنسـاق لتيار الوضعية الجديدة رغبة في تحقيق مشروعها العلمي، فـإن بعض العلوم الاجتماعية الأخرى كالتاريخ والإناسة ظلت تطرح عموما نفس القضايا التي كان يعالجها كبار فلاسفـة العلوم الانسانية الألمان أمثال **فيبر** و **رِيكَرْت** **وسِمَّـل** و **دِلْتي** و **درويْسَـن**[12]. غير أن تلك التساؤلات مـا لبثت، بين الـحربين، أن اتجهت، وان على استحـياء[13]، شـطر الماركسية بتشجيـع من ثلاثي مدرسة فرانكفورت الشهير : **تِيـودور أَدُرْنـو***، **مـاكس هورْكايْمر*** و **هِربِرْت ماركوز*** فلما انتصرت النازية وأغلقت أبواب معهد فرانكفورت للأبحاث الاجتماعية الذي كان يعد من أهم المنتديات الفكريـة بألمانيا وقتـذاك، اضطر هؤلاء اليهود الثلاثة على الهجرة إلى الولايات المتحدة. وإذا كانـوا في البداية قد أعجبوا بعلم الاجتماع الأمريكي، فإنهم سرعان ما تنكبوه ثم أخذوا مع الخمسينات يتصدون له بالنقـد والتجريـح.

فهل يعقل أن يكون البحث العلمي، على حد قول أَدُورنـو، مجرد وصف للواقع كما لو كان هذا العالم المحيط بنا هو الصورة الوحيدة لـه ؟ ألا

11
Harvey (David), **Explanation in geography,** op. cit.

12
راجـــع «الثـــورة المحافظـــــة» (الفقرة 3.1.2.2 من الفصل الثاني : ازدهار المدارس) التي تميز بين العلوم «العقلية» أو «الروحية» والعلـوم الأخرى، والتي تـؤكد على عدم جدوى المنهج الوضعي بالنسبة للأولى.

* **Theodor Adorno 1903-1969**
* **Max Horkeimer 1895-1973**
* **Herbert Marcuse 1898-1079**

13
إن «النـظرية النقـدية» التي تقوم عليها «مدرسة فرانكفورت» ظلت رغم انتمائها الصريح للماركسيـة، حريـصة على نبذ بعض معتقـداتها الأصولية وتجاهل منجزاتها التاريخيـة، خصوصا منها تلك التي تتـصل بالنـظام الستاليـنـي.

تـكتسي، والحالة هذه، تلك المناهج التي تـدعي الموضوعية لمجرد توظيفها وسائل التكميم المتنوعة من اختيار العينات وجرد المعلومات، ألا تكتسي إذاً صبغة أيديولوجية معينة تزكي في نهاية الأمر الوضع القائم ؟ تلكم هي بعض القضايا الجوهرية التي سيعرض لها الفيلسوف الموسيقي أُدُرْنو بعد عودته من المهجر. وهي مواضيع مثيرة من شأنها أن تستهوي طلاب ماركوز الذي بقي يعمل بجامعة بِركلي. ومع مطلع السبعينات جاء **يورْجَنْ هابِرْماص***، وهو فيلسـوف وعالم اجتماعـي يتزعم «الجيل الثاني» للمدرسة ويطمح إلى جمع شتات العلوم الاجتماعية وضمها في كيان موحد[14]، انطلاقا من نفس القناعات الماركسية، لكن بعد تنقيتها من شوائب القرن التاسع عشر التي ظلت عالقة بها[15]، الأمر الذي ساعد كثيراً على انتشار تلك الأفكار.

2.2 ـ الحركة النقديـة بالولايات المتحدة

إذا كانت المناظرة في أوروبا تدور أساسا حـول القضايا الفلسفية والمذهبية الماركسية فإن الجدل في الولايات المتحـدة يتنـاول مسألة المؤسسات عبر الانتقادات التي سارت توجه إلى علمي الاقتصاد والاجتماع بالخصوص. ولعهل من أبرز تـلك الانتقادات الملاحظات الوجيهة التي أبداها **جون جَـالْبرايْث***، الذي يعيب على الاقتصاديين خلطهم للقضايا وعدم التمعن فيها، إذ لا يميزون بين مركبات الصناعات الحربية الجبارة صاحبة النفـوذ الواسع وعالم الاقتصـاد الحرّ الذي، وان سيـطرت عليه المنافسة الضارية، لا يشكل بأي حال من الأحوال الميدان الوحيد للتنـظير الاقتصادي[16].

أما من ناحية علـم الاجتماع فها هو **أَلْفِن جُولدنرْ*** يدعو ثبوراً ويحذر من أزمة قادمة تصيب السوسيولوجيا الغربية[17]. هذا فـي الوقت الذي شرعت فيه السوسيولوجيا الوظيفية[18] تتسـاءل بإلحـاح عن إمكانية التوفيـق بين الأنظمـة التقليدية والمستجدات الطارئة، إذ لا يجوز بتاتا التغاضي عن التوترات والتطورات التي باتت تعصف بالمؤسسات الموروثة وتكسر قوالب التفكير الحالية.

14

Habermas (Jürgen), **Knowledge and human interest,** London, Heineman, 1972.

15

Huisman (Denis), **Jürgen Habermas, in Dictionnaire des philosophes,** Paris, P.U.F, 1er édit. 1984, p 1123 et suiv.

16

Galbrailh (John Kenneth), **Le nouvel Etat industriel,** Paris, Gallimard, 1968.

17

Gouldner (Alvin), **The coming crisis of Western sociology,** London, Heineman, 1971.

* **Jürgen Habermas 1927**
* **John Galbraith**
* **Alvin Gouldner**

18

الوظيفية في علم الاجتماع هي نـظرية أو مجرد فرض أخـذا عن الإنـاسة (الانتروبولوجيا) (راجع الفقرة 1.2.3.1. من الفصل الثاني) لتفسير الواقع الاجتماعي ومكوناته والأدوار التي تلعبها والوظيفة التي تقوم بها بالنسبة لهذا المجتمع الذي ينـظر إليه كنظام متماسك. وهكذا فإن التحليل الوظيفي في السوسيولوجيا يرمي إلى تفسير السلوكات الخاصة داخل المجتمـع على أنها حصيلة متوازية لعدد من الأنـظمة المعيارية المعمول بها داخـل ذلك المجتمـع.

ويتم المنهج الوظيفي على مرحلتيـن : ففي الأولى يعمد الباحث إلى تحديد أنـظمة أولية يبلورهـا تواطأ الأدوار التي تخلق داخل المجتمعْ مواقع معينة تتنـاسق فيما بينها. أما الثانية فهي تأخذ المكونات أو الأنظمة الفرعية المحصل عليها لتبـني بها المجتمع برمته.

3.2 ـ محاسبة الكميين

إن التأملات الفلسفية والتحليلات الابستمولوجية وما صاحبها من انتقادات لم تنحصر في الواقع في دائرة معينة من التخصصات كالاقتصاد أو علم الاجتماع كما ذكرنا قبل قليل، بل شملت أيضاً جلّ العلوم الاجتماعية، هذه العلوم التي افتُتِنت، بدون استثناء وأيما افتتان، بالوسائل الكمية التي لا تقل، في رأي بعض المفكرين، خطراً عن مواقف المنظرين في مختلف العلوم لأن الذين يوظفون هذه الوسائل عادة ما يشتغلون بالتخطيط، ومن أجل ذلك يضعون نماذج للتوقع قد تكون أدوات خطيرة. ومع ذلك لا تستطيع السلطات الاستغناء عنها من أجل تحديد سياستها الاقتصادية والاجتماعية من جهة، والتحكم في مشاريع التهيئة المكانية من جهة أخرى.

فهل يعقل اعتماد هذا الأسلوب الذي لا يعدو، في النهاية، أن يكون مجرد إسقاط ورجماً بالغيب ؟ وحتى لو سلمنا، يقول المفندون، بسلامة التنبؤات المستنبطة من النماذج، فهذا لا يبرر الاختيارات ولا يضفي عليها الشرعية. ثم هل التطور العفوي للأشياء يعني بالضرورة أمراً مرغوباً فيه، أو حتى حتمية لابد من قبولها ؟ وبما أن العلوم الاجتماعية تعمل فقط على مدّ الحكام بأدوات التخطيط وتزودهم بالمعلومات الضرورية لتلبية الحاجيات المرتقبة للسكان فهذا يعني أنها تزكي النظام القائم ولا تسعى أبداً إلى انتقاده.

4.2 ـ تجاوز السلوكية ومفارقة الوضعية

إن الحكم بالفشل على النظريات الاجتماعية والاقتصادية التقليدية وما يترتب عنها من آثار سيئة في نظر كثير من الفلاسفة جعلهم بالطبع تجتهدون لطرح بديل لها. فهل يرضون بالسلوكية بديلا ؟ كلا لأن السلوكية بالنسبة للإبستمولوجيين المحدثين، وإن كانت تنتقد تلك النظريات، فهي لا تسعى إلى نقضها. فكيف تفعل هذا وهي تتأثر بها وتأخذ عنها الكثير ؟ غاية ما في الأمر كما يذكر هؤلاء الابستمولوجيون أن السلوكية حاولت أن تنقح صورة الانسان التي رسمتها النماذج الاقتصادية والاجتماعية الجاري بها العمل. وهو تنقيح يستعين بالبحث النفساني الذي تأثر بالوضعية المنطقية أكثر مما تأثر بها علم الاجتماع.

:

وفي سياق هذه الاتجاهات الفكرية التي اصطلح عليها في العلوم الاجتماعية بالثورة على المذهب السلوكي، أصبح من الضروري البحث عن حل مُرضٍ ظن الكثير أن مفاتيحه بيد الفلاسفة الألمان الذين عاشوا في أواخر القرن الفائت والذين كانت تعاليمهم تنص على مسألة هامة مفادها أن الأنظمة الاجتماعية ومنطقها تظل مستغلقة مادامت القيم التي تحرك تلك الأنظمة مجهولة. لكن كيف تتحقق هذه الغاية ؟ وبعبارة أخرى كيف يمكن استجلاء ما لا يستطيع البحث الموضوعي إدراكه ؟ الجواب : أن يأخذ منهج العلوم الاجتماعية بأساليب الترميزية*[19] وطرقها وبفن تأويل النصوص على غرار ما اعتاده اللسانيون والمؤرخون منذ زمن طويل حيث أن تأمل الكلمة ومقارنتها بغيرها من الألفاظ تسمح تدريجيا بتقمص شخصية الكاتب والنفاذ إلى منطقة. ومعنى هذا أنه بالامكان أن نتصور العلوم الاجتماعية وتطبيقها على نسق آخر كما يرى **جورج هانْرِك فُنْ رايْت***[20].

غير أن الأمريكيين يردون الفضل في هذه الاجتهادات إلى **ألفرِد شُتز***[21]. ومهما يكن من أمر تظل الفلسفة الألمانية السائدة في العقدين الأولين من القرن المرجع الأساسي وليست أفكار دِلْتي أو سوسيولوجيا فيبر. وهذا ما جعل الظاهريات، على مذهب **هسْرل**(1859 — 1938)، أي الظاهريات المتعالية* تأتي بالجديد في دراسة خصوصيات الظواهر الانسانية والاجتماعية، إذ تعمل الظاهريات المتعالية كما نعلم على توصيل «العقل بالتحليل المتعالي إلى محاذاة شطر الشعور[22] المحض عن المعطيات التجريبية إلى محاذاة (الأنا) في سبيل بناه الأساسية وتبيين الخصائص الذاتية لكل ما يمكن معرفته»[23].

فالظاهريات إذاً تقف موقفاً مقابلاً للعلوم الوضعية التي لا هدف لها. ولهذا وجب على العلوم الاجتماعية اعتبار الملاحظة الابستملوجية الآتية : وهي أن عالم الإنسان عالم القصدية وليس عالم الأشياء الذي يتصف بالموضوعية وبمعنى آخر فإن المذهب الوضعي عاجز كل العجز على استيعاب الواقع البشري، هذا الوضع الذي اختزلته الوضعية وراحت تنظر إليه كمجرد نظام آلي.

19

الترميزية هي النظر في قيمة الحكم والاستدلال، مضموناً ومصدراً. القضايا الناتجة عن التأويل والنقد، أي المفهوم وهو ما يمكن تصوره، وهو عند المنطقيين، ما حصل في العقل ويخص كل الآثار المكتوبة ثم كل أشكال التعبير الإنساني مكتوبة أو غير مكتوبة، وبالتالي مفهوم الوجود الإنساني

*** Herménentique**

Georg Henrik von Wright

*** Alfred Shutz**

20

Von Wright (Georg Henrik), **Explanation and understanding,** Ithaca.
New York, Cornell University Press, 1971.

21

Shutz (Alfred), **On phenomenologie and social relations,** Chicago, Chicago University Press, 1970.

*** Phénoménologie transcendentale**

22

«يبحث هسرل في بنية الشعور فيميز بين الأنا المتعالي، أي الموجود في طبيعة العقل، وبين الأنا النفسي. وفي سبيل ذلك يستخدم عملية ستلعب دوراً بارزاً في ظاهريات هسرل وهي عملية «الايبوخيه» أي تعليق الحكم. يقول هسرل : «بواسطة الإيبوخة الظاهرياتية أرد أناي الانساني الطبيعة والحياة النفسية — وهما ميدان التجربة النفسانية الباطنية — إلى أناي المتعالي الظاهرياتي. والعالم الموضوعي الذي يوجد بالنسبة إليّ، والذي وُجِدَ أو سيوجد بالنسبة إليَّ، هذا العالم الموضوعي بكل

5.2 ــ بديل الماركسية

لما أكدت الابستمولوجيا عجز الوضعية وعدم قدرتها على بلوغ الحقائق البشرية إلتفت البعض إلى الماركسية وتوسموا فيها خيراً، حتى لو لم تكن المادية الجدلية[24] وما يستنبط منها من نماذج في الخمسينات، من المراجع المعتمدة بكثرة؛ اللهم ما كان من الستالينيين الذين أخذ عددهم يتزايد في كل من فرنسا وإيطاليا. أما بالنسبة للفلاسفة فهم لا يعتدّون في هذه الفترة بماركس بقدر ما يعتدّون بهيچل. ومع ذلك فهم يرون أن الماركسية لو تخلت عن المقولات الشائعة للمادية الجدلية التي يرددها «الأصوليون» لاستطاعت أن تنتقد العلوم الوضعية بسبب موقفها من الطبيعة البشرية ونظرتها للتاريخ الذي اعتبرته كمجرد تسلسل آلي للأحداث.

ومع ذلك فإن النزعة الماركسية أخذت تتقوى في نهاية الخمسينات خصوصا بعدما التقت بعلم النفس الفرويدي (وإن كان أصلًا برجوازياً) هذا اللاشعور الذي يرده الماركسيون إلى الاغتراب الاقتصادي[25]، ويرجعه علماء النفس إلى الكبت (الليبيدو)[26]، ويربطه اللسانيون بالقيود المفروضة علينا والتي تحد من حريتنا في التعبير.

ومن المعلوم أن مساهمات بعض الباحثين اللامعين أمثال **لوسْيان جُلْدمان*** في التاريخ[27] و **كلود لِيفِي سْتَراوْس***[28] أو **لُوي أَلْتوسَر***[29] في البنيوية[30]، عملت كثيراً على تلميع صورة الابستملوجيا الماركسية بنفس الفعالية التي تميزت بها كذلك مدرسة فرانكفورت وفلاسفتها كهِبَرماس و مَرْكوز المقيم آنذاك بالولايات المتحدة.

6.2 ــ تأثيرات جانبية

رغم الانتشار السريع الذي عرفته الماركسية والترحاب الحار الذي لقيته في كثير من الأوساط الفكرية، ورغم جاذبية الظاهريات ومكانتها، فإن أغلبية الباحثين الجغرافيين لا يميلون أو لا يقدرون على تناول مؤلفات مستعصية تعسر قراءتها ويصعب فهمها. وهذا ما جعلهم يعزفون عن

موضوعاته يستقي من ذاتي، كما قلت آنفاً ــ كل المعنى وكل القيمة الوجودية التي له بالنسبة إليَّ، إنه يستقيها من أناي المتعالي الذي تكشف عنه الإپوخيه الظاهرياتية المتعالية». وبعد أن رد الأنا هذا الرد وجد أن التركيب الموحد في الأنا هو الإحالة المتبادلة، أو القصدية (التي هي وحدة بين من يفكر فيه)». عبد الرحمان بدوي، **موسوعة الفلسفة**، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الأولى، 1984، ص 540ــ541. وهذا يعني أن «الادراك لا يتم بتأثير العقل وحده، بل يتم بتأثير العاطفة والوجدان» جميل صليبا، **المعجم الفلسفي**، سابق، الجزء الثاني، ص 194.

23

راجع الهامش 12 من الفصل الثالث.

24

«المادية الكلاسيكية» وهي مذهب (ابيقورس) في العصور القديمة ومذهب (لامترى) و (دولباخ) في العصور الحديثة لا تنسب إلى المادة إلا تغيرات كمية، على حين أن المادية الجدلية (وهي مذهب ماركس وأنجلس) تدخل على المادة حركة جديدة تجمع بين التغيرات الكمية والتغيرات الكيفية، وتؤدي في نهايتها إلى قيام حياة روحية مستقلة عن الظواهر المادية، وإن كانت في بدايتها ناشئة عن المادة. وبيان ذلك أن العالم في نظر الماديين الجدليين كل مؤلف من مادة متحركة ذات تطور صاعد على مستويات متتالية، متزايدة التعقيد، في الكم، حتى إذا بلغت هذه المستويات أعلى درجات التعقيد نشأ عنها بالضرورة تحول مفاجىء وتغيرات كيفية جديدة». جميل صليبا، **المعجم الفلسفي**، سابق، الجزء الثاني، ص 309 ــ 310.

المذهبيـن للاقتباس من العلوم التي استطاعت أن تحـقق نوعاً من التطوير والتجديد كما هو الحال بالنسبة للمدرسة التاريخيـة الفرنسية، مدرسة الحوليات التي تأثر بها عدد من علماء الاجتماع والجغرافيا على حد سواء. في حيـن انصرف البعض الآخر ينهل من معين الإناسة (الانثروبولوجيا) التي أولت، أكثر من غيرها، اهتماماً لمسألة تعدد الجوانب البشرية، طارحة في نفس الوقت قضية الرؤية الذاتية للموضوع في بعض مراحـل البحث.

إن التطـورات العميقة التي أخذ الغرب يتعرض لها انطلاقا من عقد الخمسينات وتسارع الأحداث التي شهدتها مجتمعاته خلقت في السبعينات مناخاً متميـزاً خيم عليه شعور عام، سواء لدى المفكرين أو عامة الناس، بأزمة القيّم في المجتمع العصري، الأمر الذي جعل الغرب يشـك بمرارة فيما حققه من انتصارات مادية، ثم بات يتوجس خيفة من المستقبـل وبدأ يـحترس من علومه التي مكنته من الدنيا دون نفسه !

ومن المؤكد أنه كان لـكل هذه الملابسات تأثيرات بليغة على الجغرافيا التي أصبحت منذ الخمسينات تتطور بإيقـاع سريع جعلها تتـنحى تدريجيا عن العلوم الطبيعية التي تربت في أحضانها لتقترب أكثر فأكثـر من العلوم الاجتماعية. ومن المؤسف جدا أن تتـزامن هذه الخطوة مع انفجار أزمة هذه العلـوم نفسها وانهيار نموذجها الذي ترغب الجغرافيا في توظيفه.

3 ـ الجغرافيا في السبعينات : في مهبّ الرياح الفكرية

مما لا شك فيه أن التـردد والقلاقـل التي اجتاحت الساحة الفكريـة في العشرين سنة المنصرمة كانت لها انعكسات مباشرة على مسار الجغرافيا التي أصبحت تتحرك في خطـى غير ثابتة. فبجانب المذهب السلوكـي الذي دشّـن في الستينات حركة النقد، تعالت أصوات تنادي بالإسراع في إصلاح المجتمع وتنقيتـه من الأدران التي علقت به؛ ثم جاء البعض الآخر يؤكد على مسألة التفاوت الطبقي وما يترتب عنها من حيف ومخاطر.

25

«تذهب الماركسيـة في تفسير الاغتراب إلى أن بعض الأفراد يغتربون عن أعمالهم لأسباب موضوعية كامنة في علاقات الانتاج، ونسق السيادة الطبقي. مما يؤدي إلى انفصـالهم عن العمل أو نتاجه. كما يؤدي في نفس الوقت إلى اغترابهم عن الطبيعة وعن ذواتـهم. ومعنى ذلك أن العمل يعتبر شيئاً خارجاً عن العامل وليس جزءاً من طبيعته، مما يخلق عنده شعوراً بالبـؤس وعدم الرضا فـلا يستطيع أن ينمي بحريته طاقته الفسيولوجية أو العقلية ويفقد حريته واستقلاله الذاتي ويـصبح ملكا لغيره أو عبداً للأشياء المادية يتصرف أصحاب السلطة فيه تصرفهم في السلع التجارية». أحمد زكي بدوي، **معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية**، سابق، ص 15 ـــ 16.

26

«يطلق العالم «سجمند فرويد» إسم ليبيدو على الحيوية للغريزة الجنسية، وقد حرص على أن يؤكد أن الليـبيدون لا يشمل غير طاقة الغريزة الجنسية فحسب...» عينه، ص 246.

27

Goldman (Lucien), **Marxisme et sciences humaines,** Paris, Gallimard, 1970.

28

Lévi-Strauss (Claude), **Anthropologie structurale,** Paris, Plon, 1958.

29

Althusser (Louis), Etienne Balibar, **Lire «le Capital»**, Paris, Maspero, 1968.

1.3 ـ بين الماركسية والتصورات الإنسية

1.1.3 ـ التيار الراديكالي

في خضم هذا التشتت الذي طبع الفكر الغربي ورغم تنوع مشاربه وتعدد اتجاهاته التي اكتسحت ميدان الجغرافيا كما اكتسحت باقي العلوم الاجتماعية، راح البحث الجغرافي في السنوات الأولى من السبعينات يستند أكثر فأكثر على المذهب الماركسي كما فعل **ديفد هارفي** لما عكف على دراسته المدينة. فمن خلال هذه الأبحاث التي استغرقت عدة سنوات وقف هارفي في النهاية على نتيجة اعتبرها أساسية تتمثل في الميز الاجتماعي الذي يشكل أبرز سمات العمران بالولايات المتحدة نتيجة للاختلال السوق العقارية. ولقد دون هارفي هذه النتائج وهذه الأفكار في كتاب شهير تحت عنوان «المدينة والعدالة الاجتماعية» صدر سنة 1972[31]. وتتألف هذه الدراسة من جزئين أبرز المؤلف في أولهما ظاهرة الميز الاجتماعي الذي يطبع المدينة، بينما انكب في الثاني على تحليل الموضوع مستعملا في ذلك الأدوات والمفاهيم الماركسية التي تمثل في رأيه المفتاح الوحيد لفهم منطلق النظام الحضري الحالي، مادام هذا النظام وليداً للرأسمالية.

لكن الجغرافيا الماركسية، أو على الأصحّ بوادرها، كانت قد تجلت قبل ذلك في الخمسينات بفرنسا وإيطاليا وبلدان أمريكا اللاتينية التي اشتد فيها عود اليساريين نقابات وأحزاباً. أما السبعينات فهي العصر الذهبي للماركسيين البريطانيين والأمريكان الذين نجد من بينهم عدداً كبيراً من الجغرافيين المنحدرين من أصل بريطاني[32]. والحديث عن الجغرافيا الماركسية فيه ملحظ إبستمولوجي هام يوحي بالدور الفعال الذي لعبه هذا المذهب في توثيق الصلة بين مادتنا وباقي العلوم الاجتماعية الأخرى التي راح جمهور عريض من الجغرافيين يعب من معينها ويسترشد بها، فكراً ومنهجاً، وإن كانت الكفة في هذه المرحلة ترجح بعض الشيء لفائدة الاقتصاد وعلم الاجتماع الماركسيين اللذين نهضا لإنقاد المجتمع وتقويم اعوجاجاته[33]. ومع ذلك فإن التيار الجغرافي الراديكالي ليس وليد الماركسية بالضرورة، كما أنه لا يطابقها في كل الأحوال. فقد يتعلق الأمر أحيانا

30

البنيوية Structuralisme أو المذهب البنيي أو البنيانية أو التركيبية هي: «مجموع الأفكار التي تطبق بنوع خاص على علوم الإنسان كعلم النفس وعلم الاجتماع. وتهدف إلى محاولة تفسير الظواهر عن طريق فكرة البنيان أي المجموع المكون من عناصر متصلة ببعضها البعض قادرة على التغير والتشكيل». أحمد زكي بدوي، **معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية**، سابق، ص 411 ــ 412.

31

Harvey (David), **Social justice and the city,** London, Arnold, 1972, id **Environnement construit et création de l'espace dans la société capitaliste,** l'Espace géographique, n° 4, 1978.

32

Peet (Richard), **Radical geography,** Chicago, Maaroufa Press, 1971; id, **The development of radical geography in the United States,** Propress in Human geography, vol 1, 1977; id, **Societal contradiction and marxist geography,** Annals, Assocaition of American Geographers, vol 69, 1979.

Blaut (James M.) **The dissenting tradition,** Annals, Association of American Geographers, vol, 69, 1979.

Duncan (James), **Radical geography and marxism,** Area, vol 11, 1979.

33

لقد نشطت هذه الدراسات الاقتصادية والاجتماعية ذات الاتجاه الراديكالي خصوصاً بعد سنة 1968 في أعقاب أحداث ماي الشهيرة التي عرفتها فرنسا والتي كان لها وقع عميق وصدى واسع خاصة في بلدان

بماركسيين أصوليين متشـددين وملتزمين قلباً وقالباً، وأحياناً أخرى بمجرد «متمركسيـن» أو يساريين يميلون إلى التلفيـق[34] أو إلى التوفيق[35].

فبجانب الرعيل الأول من معتنقي الماركسية أمثال ديفد هارفـي و **رِتْشَـرد پيت*** ظهرت كوكبة ثانية أخذ عددها يتزايد سنة بعد سنة وكان من أبرز وجوهها الأمريكيان **كِـڤِن كُـوكْس*** و **إِدْوَرد سُوِيا***، زيادة على جماعة ثالثـة تتحدث لغة الماركسيين لكنها لا تسلم بكل معتقداتهـم. وإذا كانت بلدان أوروبا الشمالية عرفت نفس التطور فإن الوضع يختلف شيئا ما في أوروبا اللاتينية التي لم يحظ فيها التيار الراديكالي في البداية بنفس الاهتمام لأن المذهبية الماركسية هنا خدشتها التجربة الأليمة للنظام الستاليني الكالح، لكن سرعان ما انشرت الراديكالية وتغلغلت في كل الأوساط حتى كادت مع نهاية السبعينات تعلن سيطرتها المطلقة.

3.1.2 ـ النزعات الظاهرياتيـة

لقد كادت الساحة في آخر السبعينات، كما ذكرنا، تخلو للاتجاه الراديكالي الذي بات موقنا بثقله الكبير وأهميتـه المتنامية؛ وإن لم يكن فـي الواقع يشـكل تياراً متجانساً واحداً وموحداً. ولكن هذا التنوع لم يمنع من ظهور اتجاه منافس حتى لو اختلفت أشكاله وتعددت ألوانه لدرجة يصعب معها وضعه تحت لواء واحـد. فمع بداية السبعينات وفي الوقت الذي انتصر فيه التيار النقـدي، بدأ اهتمام الجغرافيين بالظاهريات يتزايد بعد أن كان من قبل محصوراً في فئـة قليلـة من الرواد[36]. لكن هاهو ذا **إِدْوَرْ رِلْـف*** ينشر سنة 1970 مقالا يدعو فيه بإلحاح إلى تطبيق المنهج الظاهرياتي في البحث الجغرافي[37]. ثم يليـه **يي فو تُوان*** ليدلو بـدلوه هو الآخر في نفس الموضوع موضحاً ما لهذا المذهب في رأيه من قيمة فـي فهم الطبيعة البشريـة[38]. ولقد سارع إلى الاستجابة لدعوتهما جماعة من الجغرافيين الأستراليين بزعامة **مَارسَر*** و پُـوِّل اللذين توسعا بعض الشـيء في الموضوع في دراسة نشرت في السنـة الموالية لمقال تُـوان[39].

وهكـذا تجلى منذ السنوات الأولى من السبعينات اهتمام متنام بمسألة علاقة الناس بالمكان، خاصة بالولايات المتحدة حيث درج الباحثون على

أمريكا اللاتينية التي غادرها طوعاً أو كرهاً عدد كبير من الباحثيـن كالجغرافي مِلْطَن سَانْطُـسْ Milton Santos أو عالم الاجتماع مَنويل كَسْتِلْـس Manuel Castells الذي تألق نجمه بسرعة مباشرة بعد نشر كتابه المعروف : La question urbaine, Paris : Maspero, 1972 الذي ترجم إلى عدة لغات ليصبح نموذجاً يحتذى به عند تناول موضوع التمدين.

* **Richard Peet**
* **Kevin Kox**
* **Edward Soja**

34

«التلفيـقية Syncrétisme هي : «الجمع بيـن عناصر متميزة عن بعضها البعض مستمدة من أنساق مختلفة ووضعها في نسق واحد كصهر فكرتيـن أو نسقيـن دينييـن مختلفين متناظرين عادة، أو إدماج أجزاء أو مبادىء أو ثقافات مختلفة متعارضة مع بعضها البعض لتكون مذهباً واحداً، وقد لا يتمشى ذلك مع القواعد السليمة.» أحمد زكي بدوي **معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية**، سابق، ص 419.

* **Edward Relph**
* **Yi Fu Tuan**
* **D.C. Mercer**

35

«التوفيقية أو المذهب التوفيـقي Electisme يقابل التلفيقية وهو «لا يجمـع من الآراء إلا ما كانت وحدته مبنيـة على أساس معقول. الجمع بين آراء أو مذاهب مختلفـة ومحاولة التأليف بينها لتكون مذهبا واحداً» عينـه، نفس الصفحة (419).

36

ونذكر منهم على سبيـل المثال

التساؤل حول مدلول هذا المكان. فشتان إذاً ما بين هذه الجغرافيا والتي سبقتها في الستينات ! فإذا كانت الجغرافيا التي تميل إلى الوضعية الجديدة تهدف إلى إبراز انتظام الظواهر وتقعيدها، طارحة جانباً كل الاعتبارات الذاتية التي من شأنها أن تمس بالطابع العلمي للمادة، فإن الجغرافيا الظاهرياتية على العكس تلح على ضرورة ردّ الاعتبار إلى تلك المظاهر النوعية والعينية والاهتمام بالأشياء الفردية والعناية بأحاسيس الناس وشعورهم إزاء الأمكنة حتى نعلم ما يجعلهم يميزون بينها ويدفعهم إلى التعلق بها أو النفور منها.

ولا شك أن الحالة النفسية التي صار المجتمع الغربي عموما، والأمريكي خصوصاً، يعيشانها تحت وطأة المادية العارمة والفراغ الروحي كان من بين العوامل الرئيسية التي مهدت الطريق لانتشار التيار الظاهرياتي الذي استهوى حتى أكبر المتخصصين في الجغرافيا التاريخية، خاصة الأنجلوسكسون منهم كـ **كَارل ساور** الأمريكي أو **كلفورد دارْبي** البريطاني. لكن هذا التيار يتجلى بصورة أوضح في الدراسات الحديثة[40] التي جاءت كرد فعل على المبالغة في التكميم واستعمال لغة الأرقام اللذين يفرغان المواضيع من مادتها البشرية إفراغاً. والتصور الظاهرياتي لم يعمل على تجديد الجغرافيا التاريخية وحسب بل ساهم أيضاً مساهمة فعالة في تطوير الجغرافيا الحضارية[41]. ومن النتائج الكبرى أيضاً لتأسيس الجغرافيا الظاهرياتية أن أصبح بعض الباحثين يولون اهتماماً أكبر للإنسان كفرد كما فعل يـي فُو تُوان سنة 1976 حينما نشر مقالاً يتحدث فيه عن «الجغرافيا الإنسية»[42] التي تجعل من الانسان محور الرحى ومحط كل عناية.

لكن هناك من لم يعجبه هذا الثوب الفضفاض الذي حاكته الظاهريات فراح يطرح لها البديل كما فعل **لِيونَرد جِلْك*** الذي وجد ضالته في المثالية[43] التي، بخلاف الحيثيات المادية والاعتبارات الاقتصادية أو حتى الاجتماعية، تحب أن ترفع من شأن مسؤولية الإنسان وتحدد بالتالي ما يجب أن يكون موقفه من مسألة تنظيم المكان[44].. في حين اعتنق **مَارْوِنْ سَامُولس*** الوجودية[45] وأضحى يستجلي من خلال بعض المشاهد بصمات الشخصية المؤثرة فيها[46].

Dardel (Eric), **L'homme et la terre. Nature de la réalité géographique,** Paris, P.U.F., 1952.

Lawenthal (David), **Geography experience and imagination : towards, a geography epistemology,** Annals, Association of American Geographers, vol 51, 1961; id **Past time, present place : landscape and meaning,** Geographical Rewiew, vol 54, 1964.

Wright (John. K.), **Human nature in geography,** Cambridge (Mass.) Harword University Press, 1966.

Gallais (Jean), **Le delta intérieur du Niger, Etude de géographie régionale,** Dakar, Ifan, 1967.

37

Relph (Edward), **An inquiry into the relation between phenomenology and geography,** Canadian Geographer, vol 14, 1970.

38

Tuan (Yi Fu), **Geography, Phenomenology and the study of human nature,** Canadian Geographer, vol 15, 1971.

39

Powell (Joseph Michael), **Phenomenology and related non positivies viewpoints in the social sciences,** Monash publications in Geography, n° 1, Melbourne, Monash University, Departement of Geography, 1972.

* **Leonard Guelke**
* **Marwyn S. Samuels**

40

أنظر مثلا : Harris (Cole), **Theory and synthesis in historical geography,** Canadian Geographer, vol 1, 1971.

إن التيار النقدي (الراديكالي) والاتجاه الإنسي (الظاهرياتي)، اللذان انطلقا كلاهما في غرة السبعينات، يرسمان خطين متوازيين لا يقبلان في صيغتهما الأصلية التلاقي. فالجغرافيا الظاهرياتية لا تعبأ بحل المشاكل التي تطرحها قضية العدالة الاجتماعية التي تحرك الراديكاليين وتوجههم. وهكذا فإن الجغرافيا الظاهرياتية محاولة لفهم الشخص في حد ذاته دون الالتفات كثيراً إلى العِرق أو الجماعة أو الأمة أو الوطنية التي ينتمي إليها ذلك الشخص. فالذي يهمها في المقام الأول هو إعطاء مدلول لهذا الشخص قبل العناية بمحيطه المادي. وباختصار شديد فإن الراديكالي يهتم بالظرف الراهن بينما يعني «الإنسي» بالحياة مطلقاً.

ولقد أفضى هذا التعارض إلى احتدام صراع حقيقي عند منتصف السبعينات بين التيارين. فالراديكاليون يرفضون رفضاً باتاً التصور الظاهرياتي ويذهبون إلى حد وصفه بالسذاجة واتهامه بالترويج لأفكار البرجوازية. ورغم مقاومة المتشددين وعناد المتزمتين من الماركسيين، أخذ بعض الباحثين ينفتح على الظاهريات ويصغي إلى ما تثيره من قضايا وتساؤلات. ولقد تبلور هذا التيار «المخضرم» بوجه خاص لدى المهتمين بالجغرافيا التاريخية بقيادة **ألَنْ بَيْكَر*** الاستاذ والباحث بجامعة كمبردج[47].

3.1.3 ـ التعقيد بدل التقعيد

قد يكون من الخطأ الفادح والغفلة حصر الفكر الجغرافي المعاصر، كما تذهب إليه بعض المؤلفات والمقالات الأنجلو سكسونية الشائعة اليوم، في نطاق الأحداث التي ميزت عقد السبعينات. فهذه الأحداث التي لا ينكر أحد خطورتها على الساحة الجغرافية لا يجوز أن تحجب عنا ما جرى ويجري خارج الولايات المتحدة وبريطانيا اللتين قادتا الجغرافيا في هذه المرحلة الحساسة. ويكفي أن نذكر حالة استراليا مثلا لإثبات هذا الرأي. فهذا البلد بحكم انتمائه الثقافي للعالم الأنجلو سكسوني كان وما يزال وسيظل يستلهم كثيراً من الأفكار ويستورد العديد من التقنيات وأساليب البحث من الولايات المتحدة وبريطانيا، ومع ذلك ظل يتميز بخصوصيات لا يعرف عنها الجغرافيون في الجانب الآخر من الكرة الأرضية إلّا النزر القليل !

Prince (Hugh. C.) **Real, imagined and abstract worlds of the past,** in C. Baarcl and al, Progress in Geography 3, London, Arnold, 1971.

41

ويتجلى هذا التأثير بصراحة في الانتقادات التي أعرب عنها البعض أمثال :

Harris (Cole), **The historical mind and the practice of geography,** in David Ley, Marwyn Samuels, ed, **Humanistic geography, Prospect and problems,** London, Croam Helm, 1978.

Cosgrove (D.), **Place, landscape and the dialectics of cultural geography,** Canadian Geographer, vol 22, 1978; id, **The myth and the stories of Venice: an historical geography of a symbolic landscape,** Journal of historical Geography, vol 8, 1982.

Duncan (James), **The superorganic in american culturel geography,** Annals, Association of American Geographers, vol 70, 1980.

* **Alan Baker**

42

Tuan (Yi Fu), **Humanistic Geography**, Annals, Association of American Geographers vol 66, 1976.

وللمزيد من الاطلاع على الموضوع راجع :

Entrikin (s. Nicholas), **Contempory humanism in geography,** Annals. Association of American Geographers, vol 66, 1976.

Sanguin (André-Louis), **La géographie humaniste, ou l'approche phénoménologique des lieux, des paysages et des espaces,** annales de Géographie, vol 90, 1981.

Pocok (Douglas), **La géographie humaniste,** in Les concepts de la

ثم إن التركيز على المستجدات فقـط قد يجرنا لا محالة إلى كتابة تاريخ مبتور للجغرافيا واغفال الأعمـال التقليدية كالجغرافيا التارخية أو الدراسات الإقليمية التي ما برح جمهور كبيـر من الجغرافيين يمارسونها حتى تومنا هذا؛ ناهيك عن حركة التكميـم ومحاولة التنظير التي شهدها عقد الستيـنات. ومن المحتمل جداً أن يوعز هذا التعميـم غير المقصود إلى الاهتمام المفرط الـذي أولاه الإبستمولوجيون ومؤرخو الجغرافيا إلى مسألة «المنظومة المعيارية» التي أصبحت الشغل الشاغل لكل العلوم الاجتماعية. وهكـذا فإن هذا الإغفال من شأنه أن يخـفي حقيقة أساسيـة لابد من التنبيـه لها : ألا وهـي تعدد الرؤى الذي بات يشـكل أبرز سمات الفكر الجغرافي حالياً.

2.3 ـ العمل الجغرافي : تعدد الاهتمامات

1.2.3 ـ تجديد الصلـة بموضوع البيئة

من مميزات العلوم الاجتماعية عموما . والجغرافيا خصوصاً، في السبعينات، تقربها إلى المجتمع والانكباب على همومه والاطلاع على مشاكله بغيـة المشاركة في تصور الحلول لها. لكن هذا الاهتمام لم يشمل في الواقع كل القضايا التي كانت تشـغل بال الرأي العام، بل كاد ينحـصر في قضية كبرى : قضية العدالة الاجتماعية، فراح الجغرافيون يستنـكرون الميز المـكاني المتفاحش ويندون بالأنظمة المسؤولة عن ذلك. وقد يعجب المرء من تثاقل هؤلاء عن تناول موضوع البيئة الذي أصبح كما نعلم من مشاغل المجتمعات العصرية وأحد مصادر قلقهـا الكبرى، خاصة إذا تذكرنا أن الظروف، قبيـل اندلاع الثورة الكمية، كانت مشجعة جداً للقيام بهذا العمل والمساهمة فيه بفعالية؛ حيث اطلع الأمريكان على الجهود الطيبة التي قام بها **مَارشْ**، منذ ما يـزيد عن قرن من الزمن، من أجل التعريف بمشاكل البيـئة[48] التي ظـل **سَاوِرْ** بعده ينبه إليها ويدافـع عنها. ثم هل نـنسى المناظرة الشهيرة التي عـقدت سنة 1956 بمدينة شيـكاجو لتدارس هذا المشـكل بالذات الذي أصبح يهدد الأرض ؟

géographie humaine, A. Bailly et al, Paris, Masson, 1984.

Fel (André), **La géographie humaniste,** l'Espace géographique, Tome x, n° 4, 1981, p. 299-301.

Levy (Bertrand), « **Humanistic geography** » **ou le pari humaniste de la géographie anglo-saxonne,** l'Espace géographique, Tome x, n° 4, 1981, p. 301-304.

43

المثالية Idéalisme «اتجاه فلسفي يشمل جانبا كبيـراً من المذاهب الميتافيزيقية والعقلية التي ترى أن العقل أو الفكـر هو الحقيقة النهائية أو أساس التجربة والمعرفة».

«فمثالية كَنْط ترى أن إدراكنا للعالم الخارجي واعتقادنا أنه حقيقي أو صادق يعكس التنظيم الداخلي للعقـل ولعمليات الفـكر».

«وتتـفق مثالية هيـچل مع مثالية كنـط وترى أن من المستحيـل اعتبار وجود الأشيـاء بعيدة عـن مفهومها وتعمل على إبعاد ثنائية العقـل والأشيـاء بالنظر إلى الأخيرة كتعبيـر عن فكرة أساسية».

أحمد زكي بدوي، **معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية**، سابق، ص 203.

44

Guelke (Leonard), **An idealist alternative in human geography,** Annals, Association of American Geographers, vol 64, 1973, id **Historical Understanding in geography, an idealist approach,** Cambridge, Cambridge University Press, 1982.

45

راجع الهامش 2 من الفصل الثاني (ازدهار المدارس).

إلا أن هذا الموضوع الذي يمثل أحد الاهتمامات التقليدية للجغرافيا سرعان ما تراجعت أهميته بعد انتصار الجغرافيا الجديدة التي ألقت على الساحة بكم كبير من المشاكل الطارئة. وفي أعقاب هذا الانحسار انصرفت دراسة البيئة إلى طرق مواضيع محددة يدور أكثرها حول مشكلة الطاقة بدءاً بالحرارة الشمسية وانتهاءاً إلى تحويل المواد العضوية. وبالطبع فإن هذه المواضيع التي أملتها الظرفية الاقتصادية لا يجد فيها الجغرافيون مادة خصبة تغذي بحوثهم.

وهذا ما جعلهم يعملون على تدارك الموقف ويعودون لربط الصلة من جديد بالموضوع موضوحين موقع المجتمعات ضمن الأهرام البيئية من جهة، ومحللين طرق استعمال الطاقة وما يترتب عنه من آثار من جهة أخرى. ولقد وجدت الجغرافيا الطبيعية، التائهة بين أروقة الجغرافيا الجديدة، في هذا الموضوع فرصة سانحة ومطيبة طيعة لتحقيق ذاتها والانفصال أكثر عن الجغرافيا البشرية حيث صارت ترمم بناءها اعتماداً على التحليل البيئي بواسطة المنهج النظامي، سواء تعلق الأمر بوحدات طبيعية أصيلة أو طارئة. كما أن المناطق التي تتعرض فيها البيئة إلى التدهور السريع بسبب خصائصها المناخية جعلت بعض الباحثين ذوي الاهتمامات الاقتصادية أو التاريخية يولون الانتباه إلى تصرفات الإنسان وسلوكه في هذه الأوساط العطوبة المهددة بالخطر.

إن التيار البيئي، وإن كان تياراً هادئاً لم يحدث ضجة كتلك التي أحدثتها الاتجاهات الأخرى، يعد مساهمة حميدة تستحق التنويه إذ شاركت، وربما بنفس القدر الذي ساهم به التيار الراديكالي والتوجه الإنسي، في تجديد المادة؛ هذا في الوقت الذي مازال فيه الاتجاه الكميّ مستمراً.

2.2.3 ــ استثمار الوسائل الكمية

بعد النجاح الباهر الذي حققته في السيتنات لم تعد الطرق الكمية تحتل الصدارة عند الجغرافيين. فرغم افتتان البعض بها والمغالاة فيها فإنه لا يخطر على بال أحد اليوم أن يجعل من الجغرافيا «ذيلاً» لعلم

46

Samuels (Marwy. S.), **Existentialisme and human geography,** in D. Ley, S. Samuels (editi), Humanistic geography, op. cit. cit.

47

Baker (Alan R.H.) **Historical geography : a new begining,** Progress in human geography, vol 4, 1979.

48

راجع الفقرة 1.3.2. من الفصل الثاني (ازدهار المدارس).

الهندسة أو الاحصاء. ومع ذلك فلا يمكن بأي حال من الأحوال ضرب الصفح عنها أو حتى التقليل من شأنها. فالوسائل الكمية حينما يحسن توظيفها قد تصبح من أقوى أدوات البحث وأمضاها. فبفضلها تنوعت أساليب التعبير الخريطي وتيسَّرت، وبفضلها أيضاً تجلت البنيات المكانية وتدققت؛ ناهيك عن قدرتها على مد الباحث بعناصر تفسيرية لم تكن لتخطر على باله بالضرورة. ولذلك باتت غالبية الجغرافيين مقتنعين بضرورة الأخذ عنها والانتفاع بها. فلم يبق إذاً إلا العمل على تطويعها واستثمارها على الوجه المطلوب خدمة الأغراض البحث الجغرافي وتحقيقاً لأهدافه.

3.2.3 ـ مساهمات في التنظير

مهما بلغت درجة اهتمام الجغرافيين بالتكميم وشدة حرصهم على الإفادة منها بأكثر قدر ممكن، فإنهم قد لا يقوون على الاجتهاد والابتكار في هذا الميدان إلا بالقدر الذي يسمح به تكوينهم من جهة، وظروف نشاطهم العلمي من جهة ثانية. ولهذا كان الاجتهاد أكبر في النظريات منه في التطبيقات. فإذا كانت أغلبية الباحثين في الستينات يقنعون بما يقدمه لهم الاقتصاديون من نظريات، مكتفين بتطبيقها دون تمحيص، فإن الوضع بدأ يتغير بشكل محسوس في العقد الموالي.

1.3.2.3 ـ في القضايا الاقتصادية

إن اجتهاد الجغرافيين في موضوع الاقتصاد لا يعني تخطي النظريات القائمة؛ فهي ستظل منطلق بحثهم، إلا أنهم أصبحوا يشاركون في النقاش ويدلون بدلوهم فيه. لقد اعتاد الاقتصاديون منذ الخمسينات استعمال مفهوم الاستقطاب والبحث عن أشكاله، غير أنهم لم يفلحوا أبداً في بناء نظرية مرضية حول التنمية التراكمية المتصلة به. وربما رجع هذا التصور إلى إهمال بعض الجوانب من مسألة الوفورات الاقتصادية الخارجية[49].

صحيح أن هذه الوفورات تشكل كما هو معلوم آلية قوية تستقطب

49
الوفورات الاقتصادية الخارجية أو وفورات الحجم أو المقتصَدات Economies externes, externalités هي اقتصاديات التركز الحضري وتنقسم إلى :

أ ـ اقتصاديات الموقع : وهي المزايا والمنافع الاقتصادية في المنطقة التي تتركز فيها مجموعة من الأنشطة الاقتصادية المتماثلة والتي تعمل من خلال تلك المزايا على خلق ظروف اقتصادية مشجعة على تطوير تلك الأنشطة وجذب أنشطة أخرى تتكامل معها. مثال ذلك سهولة الحصول على اليد العاملة الماهرة والخدمات الصناعية الاختصاصية والتسويق والبحوث الصناعية المشتركة وبرامج التدريب... الخ، بما يحقق التقليل من كلفة المنتج النهائي.

ب ـ الاقتصاديات الحضرية وهي تمثل المنافع الاقتصادية المقدمة إلى النشاطات الاقتصادية المتمركزة في المدينة من خلال المزايا الاقتصادية للمدينة وهي : الأسواق الكبيرة، تطوير سوق العمل الحضري، الخدمات التجارية والمصرفية والتمويلية، الاقتصاديات المرتبطة بخدمات النقل، اقتصاديات الاتصال.

الاستثمارات، لكنه من الضروري وضع هذه المسألة في محيطها الجغرافي لنراها تتفاعل مع معطيات لا تقل عنها أهمية كأنماط المدن وحيويتها وشبكات الاتصال ونشر المعلومات. وبفضل هذا التصور الشمولي خلص الجغرافيون إلى صياغة نظرية تأليفية حول المدن ونطاق نفوذها من جهة، وأقطاب التنمية والشبكات الحضرية من جهة أخرى[50]. وعلى صعيد المدينة تناولوا المواضيع التي سبق للإقتصاديين طرحها في الستينات ثم أخذوا يعمقونها كما فعل ديفد هارفي[51] ثم كيفِن كُكْس[52] بعده، ممَيِّزين كليهما مدى علاقة السياسة بالاقتصاد من جهة، ودور الوفورات في تنظيم المدن الكبرى من جهة أخرى.

ولا يفوتنا بهذا الصدد أن نؤكد كذلك على مساهمات الدراسات الماركسية، جغرافية وغير جغرافية، في تجديد مواضيع الاقتصاد وإغنائها، وذلك بفضل فحص دقيق وبحث معمق لمسألة السوق العقارية مع التأكيد على دور الدولة فيها من ناحية، وتقويم أهمية الريع في النظام الاقتصادي من ناحية ثانية[53]. وكيفما كان الموقف من هذه الآراء فلا أحد ينكر أهمية هذه القضية أو يستطيع التغاضي عنها.

غير أن مساهمات الجغرافيين لم تنحصر في هذه المواضيع فقط بل شملت أيضا معضلة التخلف التي بدأ بعضهم يناولها منذ الخمسينات وإن كان ذلك من منظور اقتصادي بحث، لكن خلال العقدين الأخيرين أخذت هذه المساهمة تنشط أكثر فأكثر لتقدم التفسيرات وتقترح التأويلات، منها ما يعتمد على النظريات الليبيرالية ومنها ما يرجع إلى الطروحات الراديكالية التي تقول بثنائية المركز والهامش[54].

2.3.2.3 ـ في السياسة والاجتماع

إذا كان للجغرافيين بعض الإسهامات التنظيرية في الاقتصاد فلأن صلتهم بهذا الميدان صلة قديمة نسبياً توطدت بوجه خاص مع تأسيس «العلم الاقليمي». ودراسة مواقع الأنشطة الاقتصادية والبحث عن العوامل المتحكمة فيها يجران حتماً إلى ربط هذه الظواهر الاقتصادية بالمسألة الاجتماعية بشقيها السوسيولوجي والسياسي. وهذا ما عبر عنه منذ الستينات

50

للاطلاع على هذه المساهمات الجغرافية أنظر :

Richardson (Harry W.) **The new urban economics and alternatives,** London, Pion, 1977.

Claval (Paul), **La logique des villes,** Paris, Litec, 1981.

51

Harvy (David), **Social justice and the city,** op. cit.

52

Kox (Kevin), **Conflict, power and politics in the city,** New York, Mac, Graw-Hill, 1973.

53

Castells (Manuel), **La question urbaine,** Paris, Maspero, 1975

Lipietz (Alain), **Le capital et son espace,** Paris, Maspero, 1977.

Harvey (David), **The limits to capital,** Chicago, University of Chicago Press, 1982.

54

تشكل الأدبيات التي تتناول هذا الموضوع خزانة هائلة يتعذر حصرها. غير أن هناك عدداً من المراجع المتداولة التي يمكن الاشارة إليها :

Amin (Samir), **L'accumulation à l'échelle mondiale,** Dakar, Ifan, 1970.

Brook field (Harold), **Interdependant development,** London, Methen, 1975.

Emmanuel (Arghiri), **L'échange inégal,** Paris, Maspero, 1969.

Frank (Gunder A.) **Capitalisme et sous-developpement en Amérique Latine,** Paris. Maspero, 1969; **Le développement du sous - développement,** Paris, Maspero, 1970.

بعض الدارسين الذين استشعروا ما للأنظمة السياسية وشبكة الإعلام من أهمية في تنظيم المكان[55]. ولا شك أن هذه التصورات هي التي كانت وراء محاولة تجديد الجغرافيا السياسية التي أقدم عليها بعض الأمريكيين. أما الدراسات الجغرافية التي تناولت بعض الجوانب الاجتماعية فجلها ظل يهتم بالوصف ويستخدم من أجل ذلك التحليل البيئي العاملي[56] كما دأب على ذلك برايَنْ بِري في معالجته للحيز الحضري[57].

إلا أن هناك من حاول تجاوز هذه المرحلة فجاء يقدم التفسير للظواهر المدروسة. ومن بين هؤلاء مثلا رُوبَرْت مارْدي*، الذي يعلل البنية الحلقية التي تتميز بها جل الحواضر الكبرى بردها إلى تعاقب أطوار الحياة من جهة، وربطها بتوزيع الدخل للساكنة من جهة أخرى.[58] وهكذا فتح باب الاجتهاد فأخذ الباحثون يعرضون لقضايا مجهولة ويبتكرون ما يناسبها من وسائل وأدوات مثلما فعل سْتُوارْت شاپِنْ* حينما ربط بنية المدينة باستعمال الزمن[59] وهي فكرة استحبها الجغرافيون بجامعة لُونْد السويدية، فتبنوها ثم توسعوا فيها ودققوها حتى تبين لهم ما لمفهوم «المسافة القصوى»[60] من أهمية بالغة في فهم بعض الظواهر الجغرافية، خاصة الاقتصادية منها.

ولما أخذت الجغرافيا الاقتصادية في الخمسينات والستينات تهتم أكثر من ذي قبل بالبعد المكاني ظهر لها جلياً ما لهذا المفهوم من قيمة في تنظيم عملتي الانتاج والتوزيع. وبالفعل إذا كانت هناك وحدات اقتصادية، إنتاجية كانت أو استهلاكية، لا تقوى على الفصل الجغرافي، توجد أخرى لا تتضرر بذلك طالما بقيت تكاليف النقل في حدود معينة. وهكذا أصبحت مسألة الكلفة أساساً لكل دراسة حول المسافة القصوى ودورها في تنظيم المجال الاقتصادي.

وعلاوة على ذلك فإن الجغرافيين عملوا أيضاً على استثمار هذا المفهوم في ميداني الإعلام والتنظيم السياسي والاداري. ولما كانت المنافسة عقبة تحد من تلك القدرة وتعمل على تقليصها فإن المؤسسات تجنح عادة إلى التجمع حتى لو لم تتوفر هناك مقتصَدات مغرية. ومن هنا ظهرت بوادر جغرافيا سياسية - اجتماعية عامة توضح ما للمؤسسات

Lacoste (Yves), **Géographie du sous-dévelopement,** 3° édit, Paris. P.U.F. 1976; **Unité et diversité du tiers monde,** Paris, Maspero. 1980, 3 vol.

55

Douglas Jackson (W.A.), **Politics and geographie relationships. Toward a new focus,** Englewood Cliffs, (N.J.), Prentice- Hall, 1964.

* **Robert A. Murdie**
* **Stuart Chapin**

56

التحليل البيئي العاملي طريقة توظف أساليب وتقنيات علم الاحصاء التي تسمح باختزال كم من المعلومات، بحيث لا يبقى منها إلا ما كانت له دلالة قوية، فتعالج عدداً من المتغيرات التي تهم سكان مدينة ما من حيث خصائصهم الديمغرافية والاقتصادية والاجتماعية والسكنية... الخ. ضمن وحدات التقسيم الاحصائي الرسمي لتلك المدينة.

57

Berry (Brian J.L.). Katherine S. Smith (edit), **City classificaton hand book : methods and applications,** New York, John Wiley, 1972.

58

Murdie (Robert), **Factorial ecology of metropolitan Toronto, 1951-1961, an essay on the social geography of a city,** Chicago, Departement of Geography, Rescarch Paper n° 116, 1969.

59

Chapin (F. Stuart), **Human activity patterns in the city. Things people do in time and space.** New York, John Wiky, 1976.

الاجتماعية والسياسية وشبكات الاتصال المترتبة عنها من دور حيوي في تنظيم المكان[61]. وبهذا تكون الجغرافيا الاجتماعية قد خطت خطوة واسعة تجاوزت بها مرحلة الوصف وتحديد مواقع الأحداث الاجتماعية كتوزيع أنماط الأسر والجماعات البشرية أو النطاقات اللغوية أو الهيئات السياسية أو التنظيمات الدينية أو الطبقات الاجتماعية... الخ؛ فأخذت تنظر إلى هذه الظواهر نظرة جديدة تجعل منها لبنات لهندسة اجتماعية تكون هي المفتاح الصحيح لفهم بنية المكان وهيكلته.

ولقد ترتب عن اكتمال النظرية السياسية الاجتماعية ثم تكاملها مع النظرية الاقتصادية تحول كبير في كيفية طرح المواضيع والنظر إلى الأشياء. فطالما اقتصر البحث عن نقل السلع ومسألة الأثمان كان من الممكن استعارة منهج العلوم البحتة وتطبيقه، لكن الوضع يختلف تماماً بمجرد اعتبار الأنظمة السياسية والاجتماعية التي تنطوي على أبعاد أخرى لا تعالج بنفس الطريقة. ومعنى هذا أن الاهتمامات بالجوانب النفسية والمعتقدات والايديولوجيات غدا، لمن أراد فهم المكان على حقيقته، أمراً لا فكاك منه.

لعل ما ميَّز العمل الجغرافي في هذه العقود الأخيرة الحافلة بالأحداث هو اهتمامها المتزايد بمسألة التنظير التي طالما شكلت إحدى نقط الضعف في المادة. وإذا كان قصب السبق يرجع بدون منازع إلى الجغرافيين الأنجلوسكسونيين والاسكندنافيين الذين ظلوا يتزعمون الحركة منذ اندلاع الثورة الكمية إلى بداية السبعينات، فإن التعميق الذي طبع الحقبة الموالية كان في الحقيقة من نصيب الدول الأوروبية التي لم تعرها وسائل الإعلام الجغرافي الأنجلو سكسوني المهيمن أي اهتمام يذكر.

4 ـ نحو مشروع جغرافي جديد ؟

إذا كانت الخمسينات تمثل بحق منعطفاً خطيراً وتحولًا حاسماً في مسار الفكر الجغرافي فإن أهم ما يميز هذا التطور إلى يومنا هذا هو بلا ريب انسلاخ الجغرافيا عن الطبيعيات التي اتخذها الجغرافيون منذ البداية قدوة لهم ونبراساً لتصبح بالتدريج علماً اجتماعياً صرفاً يصبو إلى تحقيق

60

المسافة القصوى Portée-limite, maximale هي المسافة التي يتعذر بعدها كل اتصال، إما بسبب ارتفاع كلفة النقل فتصبح مساوية لقيمة السلعة أو الخدمة المطلوبة، وإما بسبب انعدام المواصلات ووسائل الإعلام.

61

Claval (Paul), **Principes de géographie sociale,** Paris, M. th. Génin et Litec, 1973; **Espace et pouvoir,** Paris, P.U.F, 1978; **Les cadres conceptuels de l'analyse des situations de conflit en géographie politique,** l'Espace geographique n° 4, 1987.

Jones (Emrys), John Eyles, **An introduction to social geography,** London, Oxford University Press, 1977.

Ley (David), **Social geography and social action,** in D. Leyard, M.S. Samuels (édit), **Humanistic géography,** op, cit.

Muir (Richard) **Modern political geography,** London, Mac Millan, 1975.

Pepper (David), Alan Jenkis, (edit), **The geography of space and war, Oxford, Blackwell, 1985.**

Prescott (J.R.V.), **Political geography,** London, Methuen, 1972.

Raffestin (Claude), **Pour une géographie du pouvoir,** Paris, Litec, 1980.

Taylor (Peter J.) **Political geography, world economy, nation state, Locality,** London, Longman, 1985.

غايات أخرى. لكن هذه التحولات الجذرية، التي لم تنته بعد، لم تكن شيئاً يسيراً لأنها طرأت في ظرف عصيب كانت فيه العلوم الاجتماعية الأخرى هي بدورها في مخاض عسير، تراجع نفسها وتحدد موقعها من علوم الطبيعة التي كانت وما تزال تؤثر فيها.

1.4 ـ تعاقب «الثورات» وتراكم النظريات

لما اندلعت الثورة الكمية في الخمسينات ثم انتصرت بفعلها الجغرافيا الجديدة اعتقد السواء الأعظم من الجغرافيين أنهم يعيشون ثورة علمية أصيلة وفقاً لما طلع به **طُومَسْ كُون** حول تطور العلوم. ثم قالوا نفس الشيء في السبعينات، وإن كانت الأحداث هذه المرة متزامنة وعلى نفس القدر من الأهمية. لذلك راح البعض يتساءل عن حقيقة هذه «الأزمات العلمية» التي تنفجر بين عشية وضحاها ! لكن أغلبية الدارسين يحصرون هذه المستجدات في حدثين بارزين : قيام الجغرافيا النقدية من جهة وانطلاق جغرافيا ظاهرياتية من جهة أخرى. وإن دلت هذه الإزدواجية على شيء فإنما تدل على عجز الفلسفات القائمة على استيعاب كل الأحداث وجمع شتاتها. وهذا ما استحث المفكرين على طرح البديل للخروج من المأزق.

1.1.4 ـ تصنيف هابِرمَاصْ للعلوم

ينتمي **هابِرْمَاصْ** كما نعلم إلى «مدرسة» فرانكفورت ويعد من ألمع مفكري «جيلها الثاني». وهو ليس فيلسوفا فحسب بل عالماً اجتماعياً أيضاً يطمح إلى لمّ شتات العلوم الاجتماعية. ويؤسس هابرماص عمله الابستمولوجي هذا بدءاً بمناقشة الثنائية الكنطية الجديدة الشهيرة التي تقابل التفسير السببي الذي هو قوام العلوم الطبيعية بالفهم الترميزي[62]، الذي يميز «العلوم الروحية» كما يراها **دِلْتي**. ويرمي هَابرْماص من وراء هذه المناقشة أساساً إلى التصدي للوضعية العِلْمَوية ودحض مزاعمها بأن لا معرفة خارج العلوم الطبيعية التجريبية. فهَبرْماص، وفقاً للتقاليد الألمانية التي تعطي للعلم مدلولاً فضفاضاً، يمتنع عن التضييق والحصر معتبراً أن

62 الترميزية Herménentique هي : «نظرية في تأويل الإشارات على أنها عناصر رمزية معبرة عن حضارة». جبور عبد النور وسهيل إدريس، المنهل قاموس فرنسي — عربي، بيروت دار الآداب ودار العلم للملايين، الطبعة الأولى، 1970. وبصفة أدق هي «النظر في قيمة الحكم والاستدلال مضموناً ومصدراً. القضايا الناتجة عن التأويل والنقد، أي المفهوم وهو ما يمكن تصوره، وهو عند المنطقيين ما حصل في العقل ويخص كل الآثار المكتوبة ثم كل أشكال التعبير الإنساني مكتوبة أو غير مكتوبة، وبالتالي مفهوم الوجود الإنساني».

للعلوم الاجتماعية مكانتها الشرعية، رغم حمولتها الفلسفية وشحنتها النقدية. كما أنه يرفض أن يقتصر العمل الإبستمولوجي على مجرد الرصد والتحليل لمنهج العلوم «الدقيقة». وبهذا يكون هابرْماص قد تجند، بجانب أدُرنو، لعقد مناظرة شهيرة مع كارْل پوپر و هـ. ألْبير حول الوضعية؛ وهي المناظرة التي هزت أركان العلوم عامة، والعلوم الاجتماعية خاصة، وحركت الأوساط الجامعية بألمانيا الغربية في عقد الستينات وما بعدها.

لكن النقاش الفلسفي حول إبستملوجيا العلوم الاجتماعية لا يقف عند مهاجمة الوضعية بل يشمل أيضاً التفكير الترميزي كما جاء به **جَدَمير*** أو سار على نهجه، أو كما هو عند هَيْدجَر. ويعيب هابرْماص على هؤلاء الترميزيين وأولئك الوضعيين طبيعتهم «المحافظة». فالوضعية وإن تسترت في رداء عصري تظل خادمة للتكنولوجيا فتكون قادرة على العنف والتحطيم. أما الترميزيون فهم محافظون حقّاً لأن تعلقهم بالتقاليد والتشبث بها يجعلهم في النهاية يغرقون في التأملات، الشيء الذي يمنعهم من الحركة ويسلبهم الحسّ النقدي .

وبموازاة هذا الجدل الذي يتخذ من النظرية النقدية[63] مضماراً له تدرج هابرْماص إلى تصنيف ثلاثي للعلوم. فهو يعتقد أن البحث العلمي يحركه في المقام الأول مستلزمات الحياة ومتطلبات البشر الأولية التي تجعلهم يسعون إلى التحكم في محيطهم الطبيعي والسيطرة عليه. وهذا ما جعلهم يؤسسون العلوم الطبيعية أو العلوم التجريبية أو التجريبية ـ التحليلية كما يسميها هابرماص. وهي علوم تنِم عن «معرفة حملية». وقد تفضي إلى تطبيقات تقنية استناداً إلى التصور الوضعي لمنطق البحث العلمي كما يراه پوپر.

لكن البشر، بحكم تعايشهم الطبيعي، يحتاجون كذلك إلى التفاهم وربط الاتصال فيما بينهم. وهذا أمر على درجة عالية من الخطورة، وتضطلع بهذه المهمة «العلوم التاريخية ـ الترميزية»، أي العلوم الإنسانية أو «الروحية» بالمفهوم الألماني. فهي التي تقوم بربط الصلة بين ذات (حالية) تتطلع إلى المعرفة وموضوع، أي ذات ثانية (غائبة) لها رموزها وخصائصها الثقافية، وذلك بتأويل النصوص والآثار اعتماداً على فرض أو

63
النظرية النقدية عند هابرماص هي الماركسية كما يراها هو، أي ماركسية «غير قطعية» تستعيد بُعدها الفلسفي ولا تؤدي بها المادية إلى العِلمَوية؛ ماركسية لا تدعي تحقيق التاريخ وتمتنع عن النظر إلى المجتمع نظرة مادية صرفة؛ ماركسية تعترف بأهمية وخصوصيات البُنى الفوقية المعيارية للتقاليد الحضارية كالقانون والأخلاق والدين والفن... إلخ ،التي لا يجوز التقليل من شأنها واعتبارها مجرد إيديولوجيا، ليس إلا.

* **H.G. Gadamer**

«حكم سبقي» يشكل بالضرورة تأويلا ذاتيا طبقاً للطرح العام للنظرية الترميزية.

وإذا كان الاهتمام بحاجيات البشر وطموحاتهم تتلخص عادة في هاتين المسألتين، فإن هابرْماص يضيف شيئاً ثالثاً باعتبار أن كل فرد يسعى أيضاً إلى التفتح الكلي ويتطلع إلى التخلص من كل القيود الجائرة أو الزائدة التي تثقل كاهله. لذلك فهو يرى من الضروري قيام صنف ثالث من العلوم يسميها «علوماً نقدية». وهي قسمان : علم النفس من جهة، ونقد الايديولوجيات من جهة ثانية، أي السوسيولوجيا النقدية. وهي نظريته النقدية بالذات. وهكذا فإن العلوم الاجتماعية كما يراها هابرْماص ليست أحادية الحجر، بل مزدوجية البنيان تجمع بين الترميزية والنظرية النقدية.

4.1.2 ـ الجغرافيا في فلك النظرية النقدية

وانطلاقا من هذه الأفكار لهابرْماص جاء **رِتشَرد برنشطايْن*** في سنة 1976 يعطي تأويلًا لحركة إعادة بناء النظرية الاجتماعية والسياسية[64]، فاعتبر أن الأزمة التي تلت الوضعية ثم السلوكية والتي زعزعت في السبعينات العلوم الاجتماعية برمتها تشكل منعطفاً ينبىء بعهد «النقدية» بعد فترة الظاهريات التي سادت فيها العلوم الترميزية. فإذا كان اعتبار الدلالة ـ دلالة الأشياء والظواهر ـ يشكل مرحلة ضروية في بناء العلم العصري، فهي مع ذلك لا تمثل سوى مرحلة تمهيدية وإعدادية، بحيث لا يكون العلم علماً إلا بالنقد كما حاول البعض تبرير ذلك[65].

ولقد اعتمد أحد الجغرافيين، وهو **دِرِكْ جريجوري***، على هذه الآراء فراح يطبقها على التطورات التي شهدتها الساحة الجغرافية في العقود الأخيرة؛ فبدا له أن التطور الأول الذي حدث في الستينات لم يستوعب جيداً خصوصيات العلوم الاجتماعية، لذلك انحازت الجغرافيا الجديدة للمذهب الوضعي فجاءت مخيبة للآمال. فهل يعمل الاتجاه الترميزي الذي دعا إليه أنصار الظاهريات في العقد الموالي إلى تقويم الوضع وتصحيح المسار ؟ صحيح أن هؤلاء الجغرافيين لا يخفى عليهم شيء من أمر

---

* **Richard J. Bernstein**

64 Bernstein (Richard J.) **The restructuring of social and political theory,** Oxpford, Blackwell, 1976.

65 Bhaskar (Roy), **The possibility of naturalism,** Brighton, Harvester Press, 1976 - Giddens (Anthony) **A contempory critique of historical materialism,** Londonn, Croom Helm, 1981.

* **Derck Gregory**

القصدية والدلالة وما يترتب عنهما من مشاكل ومعاناة لتحقيق التواصل والتفاهم بين الناس، لكن چريچوري يجد أن القنوع والاقتناع بهذا إنما يُنمَّان عن تفكير مبتور إذ لابد في رأيه من معرفة ما يختفي وراء القيم التي يعتبرها القوم قيماً ثابتة. لذلك راح يفضح ما فيها من وهم وتغرير. وعليه فإن الجغرافيا البشرية في نظرة لن تستطيع التخلص من أزمتها وتكتسب صفة العلم التي تنشُدها إلا بالأخذ بالمنهج الماركسي وتطبيقه[66].

ولقد لقيت هذه الأفكار في البداية الترحاب والتصفيق. لكن سرعان ما ارتفعت أصوات معادية تنتقدها وتفندها، محتجة بأن النظرية الماركسية لا تخدم أصلا الجغرافيا وأهدافها لأن الماركسية تحاول ضبط الآليات الأساسية للظواهر الجغرافية اعتماداً على التحليل التصوري دون مراعاة لعامل المكان[67]. كما أن بعض الماركسيين أنفسهم لم يتورعوا في توجيه النقد اللاذع لزملائهم الذين يحرفون المنهج العلمي عندما يطبقون بعض أشكال البنائية الماركسية تطبيقاً سيئاً[68]. وحتى چريچوري نفسه نجده في مقالات لاحقة يراجع نفسه ويعدل موقفه ويحاول التقليل من التعارض بين النزعة الظاهرياتية والضرورة النقدية، ساعيا إلى التوفيق بينهما وصهرهما في «مذهب إنسي – ماركسي».

2.4 ـ الجغرافيا الحديثة علم اجتماعي

إن المتفرس في تاريخ الفكر الجغرافي منذ الخمسينات يخلص لا محالة إلى فكرة أساسية ألا وهي استبدال الجغرافيا النموذج الاجتماعي بالنموذج الطبيعي الذي ظل يقودها السنين الطوال ويحجب عنها في نفس الوقت كثيراً من المسائل الاجتماعية التي لا غنى عنها لفهم الظواهر الاجتماعية فهما صحيحاً. وهذا التحول الهام الذي تم في ظروف شديدة الاضطراب، شعرت فيها العلوم الاجتماعية بخصوصيتها وأحست بما يميزها عن العلوم الطبيعية يعمل اليوم حثيثاً على توجيه الجغرافيا نحو إعداد مشروع جديد لم تكتمل ملامحه بعد.

1.2.4 ـ الأطوار الكبرى للجغرافيا

لعلنا نتذكر أن أول وأهم نقطة تحول في مسار الجغرافيا العصرية

66

Geogory (Derk) **Ideology, science and human geography,** London, Hutchinson, 1978.

67

إن العلاقة بين الجغرافيا والماركسية ما تزال إلى يومنا هذا تشكل نقطة خلاف كبير وموضوع نقاش حاد بين الجغرافيين كما يدل على ذلك الجدل بين پول كلفال مثلا ومعارضيه الماركسيين. أنظر :

Claval (Paul), **Le marxisme et l'espace,** l'Espace géographique, n° 3, 1977, p. 145-164.

Collectif de chercheurs de Bordeaux. **A propos de l'article de P. Claval «le marxisme et l'espace».** l'Espace géographique, idem, p 165-177.

Claval (Paul), **Le néo-marxisme et l'espace,** l'Espace geographique, n° 3, 1987. p 161-166.

Lung (Yannik), **Le néo-marxisme et l'espace, réponse à Paul Claval,** l'Espace géographique, n° 3, 1988, p 47-50.

68

Hindess (Barry), **Philosophy and methodology in social science,** Brighton, Harvester Press, 1977.

طرأت لما حاول الجغرافيون الرد على تساؤلات الفلسفة الطبيعية التي ازدهرت في الديار الألمانية في القرن الثامن عشر. لكن الجغرافيا لم تحتل المكانة الرفيعة إلا في العقود الثلاثة الأخيرة من القرن التاسع عشر. وترجع تلك الطفرة إلى طلبات المجتمع آنذاك أكثر مما تعود إلى اجتهادات الجغرافيا نفسها. ولكي تقوم الجغرافيا بالدور الذي أسند إليها وتؤدي الرسالة التي أنيطت بها كان لزاماً أن تصبح تخصصا علميا. ومن أجل ذلك تشبهت بالعلوم الطبيعية واستعارت منهجها فانصرف الجغرافيون طيلة نصف قرن من الزمن يزاولون نشاطهم بكل ثقة واطمئنان، الوضعية مذهبهم والطبيعيات منهجهم؛ أما المجتمع فهو مجتمع تقليدي ما يزال يتخبط في مشاكل باطنية لم تَطف بعد على السطح بالقدر الذي يلفت إليها نظر الجغرافيين.

لكن الوضع أخذ يتطور بسرعة مباشرة بعد الحرب العالمية الثانية نتيجة القلق الذي أصاب الجغرافيين لما شعر بعضهم بإهمال الجغرافيا قضايا المجتمع والتفريط فيها. واستدراكاً للموقف لم يجد هؤلاء ساعتئذ منفذاً لمأزقهم هذا غير الارتماء في أحضان الاقتصاد الذي تبني البعد المكاني فأصبح يمدهم بالعديد من المفاهيم والأدوات التي يمكن استعمالها بيسر وبساطة في ميدان التخطيط وإعداد التراب الوطني. غير أن التوسع الاقتصادي الهائل الذي شهده الغرب عموماً والذي بلغ أوجه في الستينات أضحى يطرح جملة من المشاكل المستعصية احتلت فيها مسألة العدالة الاجتماعية موقع الصدارة. وهذا ما جعل التيار الراديكالي يتقوى ويوجه البحث في الجغرافيا كما في سائر العلوم الاجتماعية الأخرى. وبقدر ما يحيّي المرء الجغرافيين ويشد على يدهم على اهتمامهم بقضايا الناس، بقدر ما يندهش لإغفالهم مشاكل البيئة الطبيعية التي كانت الجغرافيا سباقة إلى الاعتناء بها منذ ما يقرب من مائة عام[69].

فهل يعود ذلك إلى انفعال سطحي للجغرافيين إزاء المستجدات الطارئة على الساحة الفكرية والانبهار بنماذج بعض العلوم الاجتماعية ؟ فكيفما كان الحال فهم في الستينات يؤمنون بالوضعية ويأخذون بالمناهج الكمية «الدقيقة»، وفي السبعينات حيارى يكاد يقتلهم اليأس ! وهم حينما

69

يشكل موضوع البيئة كما هو معلوم أحد المواضيع الرئيسية للجغرافيا. فإذا بقيت الجغرافيا السفياتية ــ سواء في الاتحاد السفياتي أو في بلدان المعسكر الاشتراكي ــ تباشره وتطوره لأسباب إيديولوجية سبق شرحها (راجع الفقرة 2.1.3. من الفصل الثاني)، ففي الغرب يعد **ماكس صور** Max Sorre في الأربعينات من أواخر الجغرافيين الكبار الذي ظل على العهد، باحثار مجتهداً.

يستندون إلى مذهب معين أو بحث إبستمولوجي أو نتيجة علمية لا يفعلون ذلك إلا بقصد التبرير والاحتماء.

2.2.4 ـ استكمال المعادلة ؟

وعلى كل حال فإن هذه التطورات التي شهدتها الجغرافيا الحديثة منذ ثلاثين سنة لم تنبع هذه المرة من المحيط الاجتماعي بقدر ما صدرت عن الجغرافيا نفسها ومنطقها الذاتي الذي اقتضى بناء نسق فكري متماسك يلائم الواقع الاجتماعي. وخلافاً لما كانت عليه الجغرافيا كدراسة إقليمية أو بيئية أو مشهدية، نراها اليوم تظهر كتخصص يُعني بالأبعاد المكانية للحياة البشرية عامة، والاجتماعية خاصة، مع مراعاة المحيط البيئي الذي لا يمكن لأي جغرافي جاد أن يتنصل عنه.

ولما كانت الحياة الاجتماعية تقوم على التعاون بين الناس لتحقيق التعايش والرفاهية، ظلت العلوم الاجتماعية، وإلى زمن قريب تركز اهتمامها بالذات، وبالدرجة الأولى، على المجتمع. ولعل ما جعل الجغرافيين، حديثي العهد بالموضوع، يسارعون إلى الاقتداء ببعضها وإن كان منها ما أهمل الفرد ولم يعطه المكانة اللائقة به كالاقتصاد الذي أغرى الجغرافيا بتصوره المتماسك للعمليات الاقتصادية في بعدها المكاني. ولا شك أن النموذج الاقتصادي الذي استهوى الجغرافيين على اختلاف انتماءاتهم وتعدد مشاربهم هو الذي حفزهم فيما بعد، في السبعينات، على محاولة صياغة نظرية مكانية مماثلة تشمل العمليات الاجتماعية والسياسية معاً، ما دام أهل الاختصاص من علماء اجتماع وإناسة وسياسة وغيرهم لم يقدموا ما يلبي رغبات التحليل الجغرافي.

إن النماذج الاجتماعية، التي لم تعط الفرد حقه، لا تستطيع أن تخبرنا عن تفاعل الإنسان، لا مع بيئته ولا مع المؤسسات التي تسوسه. كما أنها لا تحدثنا عن موقفه منها، قابلًا أو رافضاً؛ ولا تفصح عن مدلولها بالنسبة إليه. ومعنى هذا أن تلك التساؤلات وغيرها تستلزم بناء نماذج إنسانية تكتمل فيها كل عناصر الموضوع. فالجغرافيا التقليدية بحكم نزعتها الطبيعية لم يغب عنها هذا الأمر حيث كان الباحث، نظراً لتكوينه الأصلي

واطلاعه الواسع على «الانسانيات»، يتقن فن المقابلة ويحسن الإصغاء إلى الناس. لكن هذا الحس، وإن لم تترجمه أعمال السابقين كما يجب، تراجع كثيراً في الستينات ليعود من جديد في العقد الموالي تحت تأثير الظاهريات حتى أصبحت الجغرافيا تسير على شاكلة العلوم الاجتماعية التي أخذ بعضها كالإنساة والتاريخ ينظر إلى المسألة نظرة جديدة. فلما أضحى موضوع الإنسان البدائي ينكمش ويجف بدأ الإناسيون يولون اهتمامهم للإنسان المعاصر ضاربين عصفورين بحجر واحد : فهم من جهة تلخصوا من الأزمة الخانقة التي كادت تقتلهم، ومن جهة أخرى بادروا إلى وضع يديهم على موضوع أهمله الكثير. أما في التاريخ فإن الأبحاث أصبحت تميل بالتدريج من الانشغالات ذات الطابع الاقتصادي والاجتماعي إلى الاعتناء بالعقليات.

لكن موضوع الإنسان، رغم أهميته وطرافته، لم يكن ليحجب عن البحث الجغرافي القضايا الأخرى وعلى رأسها العدالة الاجتماعية التي جاهد من أجلها الراديكاليون، بدءاً بانتقاد الأنظمة الاقتصادية والاجتماعية وانتهاءاً برسم أنماط مكانية بديلة ودراسة البيئة التي أصبحت جذعاً مشتركاً لكثير من العلوم.

خلاصة : عند مفترق الطرق

عند مفترق الطـرق

إن هذا العرض، حسب ما كنت أتصور في البداية، ورغم القالب التاريخي الذي أفرغته فيه، كان يسعى في المقام الأول إلى تحقيق غاية إبستمـولوجية معينة تتلخص في استجلاء منطق «علم الجغرافيا» ورصد الأحداث الفاعلة فيه بغية التعرف على مقوماته وفهم قضاياه الراهنة. لكن درس الابستمـولوجيا كان أفيد من ذلك بكثير حيث بدا من غير الممكن التعرض لعلم بعينه أو معرفة خاصة في معزل عن باقي العلوم والمعارف الأخرى، ودون ربط هذه كلها بجذورها الحقيقية.

وعندما تنتشر دائرة الضوء ويتوسع الأفق وتنكشف الساحة العلمية، أفقيا وعموديا، فإن حجم المشكلات الخاصة يتضاءل بسرعة ليذوب في قضية كبرى تشمل العلم برمته وتمثل فيه حجر الزاوية ومنطلق كل تأمل تقويمي، علما وعملا.

ولما كانت العلوم التي نزاولها اليوم، خاصة الإنسانية منها، ثماراً للفكر الغربي الذي ما انفك يسود الدنيا لقرابة ثلاثة قرون أو يزيد، رغم ما يعتريه من علل وانحرافات، فإنني، خلافا للمحاولات الابستمـولوجية، الراهنة، خصوصا منها تلك التي يقدم عليها بعض الجغرافيين الغربيين أو المتغربين، والتي تكاد تقتصر اهتماماتها، بسبب قناعاتها العلمانية وتأسيا برواد الابستمـولوجيا المعاصرة، على قضيتي الموضوع والمنهاج، هاملة البعد الفلسفي للقضية؛ إذن خلافا لهذا، أرى من الضروري تعميق التأمل في العلاقة الجدلية القائمة بين أطراف «المعادلة الابستمولوجية» الثلاثة : الموضوع والمنهاج والإشكالية.

ولست أستبعد أن يكون هذا الخلل أحد الأسباب الرئيسية، حتى الآن، في فشل بناء جغرافيا متماسكة. وإنني بقدر ما أوافق على العناية بمسألة الموضوع التي يجب أن تصبح بالفعل الشغل الشاغل لكل جغرافي، بقدر ما أتخوف من الاستمرار في تجاهل البعد الفلسفي الذي سيظل، أحببنا أم كرهنا، يمثل عنصراً لا يمكن الاستغناء عنه بتاتا، ما دام هو المنبع الأصلي لكل تفكير والمرجع الأول لكل تطبيق.

وهذا ما جعل الجغرافيا مدة قرن بكامله، أي منذ تأسيسها كعلم عصري إلى اندلاع الثورة المنهجية، مادة فارغة تعيش كالشجرة العقيمة، تورق ولا تزهر. والسبب في ذلك أنها اختارت أن تكون علما طبيعيا سرعان ما أصدر الحكم بالنفي على الفلسفة باسم الفلاسفة والوضعية «المقدسة» !. وبما أن الجغرافيا كانت آنذاك تضطلع بمهمة الاكتشاف وتقوم بدور إخباري هام، لم يشعر الجغرافيون بقضية الموضوع، بينما اهتموا أساسا بالمنهج الذي أخذوه عن الطبيعيات. ولعل جغرافيي الغرب خلال تلك الفترة الطويلة لهم بعض الأعذار في عدم التنبه لما نسميه نحن اليوم بالقضية الإبستمولوجية، وهي قضية يمكن إجمالها في ظروف المحيط العلمي والتطور البطيء للمجتمعات بالمقارنة مع التسارع الذي سيشهده العالم كله بعد الحرب العالمية الثانية في شتى مناحي الحياة.

ورغم التطورات الجذرية التي طرأت على كل المجتمعات البشرية، والتي أخذت تفرز عددا من المشاكل الإجتماعية والإنسانية المعقدة، ظهر جيل جديد من الجغرافيين، تدفعه النية الحسنة وتحركه الغيرة على المادة، استقدموا أسلحة من الخارج ثم نادوا بالثورة، لكن دون أن تكون لهم عقيدة معلنة أو برنامج عمل واضح. ومعنى ذلك أن ما أصبح يعرف في تاريخ الجغرافيا بالثورة المنهجية، أو تجاوزا بالجغرافيا الجديدة، هو في الحقيقة استمرار للفكر السابق لأن «الاصلاحيين» كـ «التقليديين» يهتمون هم أيضا بالمنهج ويسهون عن الموضوع ويضربون الصفح تماما عن الفلسفة والأيديولوجيا. والدليل على ذلك ردود الفعل السريعة والعنيفة التي أعقبت الثورة مباشرة.

ولعل هذا التحول الذي برز في الستينات ثم تجلى في العقد الموالي حدث بارز يجعل من هذه الفترة منعطفا حاسما بالنسبة للجغرافيا، إذ فيه اكتملت عناصر المعادلة : اهتمام متزايد بالموضوع ورد الاعتبار للفلسفة والأيديولوجيا مع الاستمرار في تطوير المنهج ووسائل البحث. هذا في الوقت الذي أصبح فيه المجتمع والانسان يحتلان الصدارة في هموم واهتمامات وبحوث الجغرافيين قاطبة، وحتى «الطبيعيين» منهم الذين وجدوا في موضوع البيئة الطبيعية وسيلة لإنعاش الجغرافيا الطبيعية بعد أن فقدت صولتها.

لكن لما استجابت الجغرافيا للطلبات الجديدة والملحة وأصبحت تواجه سيلا عارما من المشكلات المعقدة، وجد الجغرافيون أنفسهم خاويي الوفاض، صفر الأيدي. فلم يجدوا مخرجا لمأزقهم هذا سوى الاستغاثة بالعلوم الإجتماعية والإنسانية التي لها بعض التجربة في الموضوع. وهكذا فمنهم من استنجد بالاقتصاد ومنهم من استعان بالسّكانة (الديمغرافيا) ومنهم من اعتنق علم الاجتماع ومنهم من استهواه علم النفس... الخ. وليت المسألة وقفت عند هذا الحد، بل زاد الطين بلة بفعل التأثيرات الأيديولوجية المتضاربة. فلا غرابة إذن أن تتشتت الجغرافيا إلى تيارات مختلفة نلخصها في الجدول الموالي.

أهم اتجاهات الفكر الجغرافي المعاصر

النزعة	المرجع الفلسفي	الطرح	التاريخ	النموذج	المنهج	الاشكالية	الموضوع	الاتجاه
الطبيعية	المذهب التطوري	ليبرالي	1900/ 50—1930	الطبيعات	أحادي	• الإقليم • البيئة والإنسان • «المشهد»	الأشكال الوظيفية	**الجغرافيا الوصفية**
	الوضعية الجديدة		50—1930	الاقتصاد	تعميمي	؟	تنظيم المكان	**الجغرافيا النظرية**
البشرية	الظاهريات الوجودية الأمثلية	بنيوي	1970 ~	الاجتماع	جدلي	النظرية الماركسية	التشكيلات «السوسيو مكانية»	**الجغرافيا الراديكالية**
		إنسي	1970 ~	علم النفس			• المكان المعيش • المكان الذهني	**الجغرافيا السلوكية**

لكن علي أن أبادر لأقول بأن هذا التقسيم لا أعني به تصنيفا محكما ـ على افتراض إمكانية ذلك في فترة مخاض ـ بقدر ما أهدف من ورائه إلى التأكيد على تذبذب الفكر الجغرافي في المعاصر واضطرابه. وهذه الاتجاهات التي ليست في الحقيقة سوى انعكاس لما تعرفه علوم أخرى، ينقسم في النهاية إلى نزعتين : نزعة طبيعية تنتهي إلى الماديات ونزعة بشرية تجعل العقل فوق كل شيء؛ وكلتاهما تؤلهان الإنسان.

وبالنظر إلى هذه الاستنتاجات العامة حول الفكر الجغرافي المعاصر فإن مشروع الإصلاح أو التصحيح لا شك أنه سيكون مثار جدل ساخن سببه الرئيسي اختلاف العقائد. وللخروج من هذا المأزق فلا أرى سوى بناء «جغرافيات جهوية» يوحدها الموضوع والمنهاج وتميزها الاشكاليات كي يتعامل كل مجتمع وكل فرد مع الكون وفق عقيدته. ولتثبت التجربة، بعد ذلك، الحقيقة !.

والحمد لله رب العالمين

محتويات الكتاب